

أكرم محمد الطيغاني

أدب المقالة الصحفية

الجزء الثاني

مكتبة الأستاذ
د. أنور فكري



أدب المقالة الصحفية

أحمد مكي
أحمد مكي

تأليف

دكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة مزيّدة ومنقّحة

مكتبة المطبع والنشر
دار الفكر العربي

١٩٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

في الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب ، أذكر أني تحدثت إلى القراء عن نشأة الرأي العام في مصر ، ثم عن نشأة الصحافة بها ، ثم عن الحركة الفكرية المصرية منذ بداية القرن التاسع عشر ، ثم عن تطور الأساليب الكتابية العربية منذ بدايتها إلى ذلك القرن ، متخذاً من الفصول الأربعة السابقة تمهيداً للحديث عن المدرسة الصحفية الأولى في مصر وعلى رأس هذه المدرسة رقاعة رافع الطمطاوى . وقد أفضى بنا البحث إلى أن تلك المدرسة الصحفية في مصر كن قصارها أن حاولت إنشاء ما يسمى « بالمقال الصحفي » .

ذلك أنها كانت مقيدة في هذه المحاولة بقيود كثيرة ، كان معظمها نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي اكتشفت رجال تلك المدرسة .

وحسبنا أن نشير من الظروف السياسية إلى واحد فقط ، ونعني به الظروف الذي قضى على الصحافة المصرية أن تكون في أول أمرها من وسعى الولاية والحكام ، وأن تولد في حجورهم ، وتعيش بأموالهم ، وتنفذ بأفكارهم ، ولا تكاد تتحدث إلا بالسبهم ، بل لا تكاد تعبر إلا عن رأيهم . وبقيت الصحافة المصرية رسمية على هذا النحو ، حتى ظهرت إلى جانبها صحافة أخرى هي الصحافة الشعبية . وحتى هذه الأخيرة لم تكن في أول أمرها إلا صورة دقيقة من الصحافة الرسمية التي تتحدث عنها .

ثم حسبنا كذلك أن نشير من الظروف الاجتماعية والفكرية إلى واحد فقط ، ونعني به الجهل ، الذي نعيم على مصر طوال الحكم العثماني ، وجعل

في سماءها سحبا كثيفة داكنة مظلمة ، يركب بعضها فوق بعض ، فتعجب النور عن أهل مصر ، فلا يصل منه قيس إلى عقولهم ، وتلود عنهم الدفء ، فلا سبيل إلى أن تستمتع به أجسامهم . ولقد ظل المصريون على هذه الحال السيئة من الحرمان ، حتى أنت الحملة الفرنسية ، وأتى محمد علي ، وكان لهُذين الفضل في إنهاض المصريين من سباتهم ، ثم في الأخذ بيدهم إلى السير في ركب الحضارة الحديثة والعلوم الحديثة ، وذلك هو السبب الذي من أجله قضى المصريون ، حكاما ومحكومين ، أكثر من نصف القرن الماضي في شيء واحد فقط ، « محاربة الجهل » ، واشترك كثيرون في هذه الحرب التي شنتها مصر يومئذ على ذلك العدو ؛ فنهضت الولاة بأموالهم وسلطانهم وتوجيهاتهم ، ومنهم طوائف الشعب على اختلافهم ، وذلك بدافع من الوعي القوي الذي نما نمواً كبيراً في بلادهم . ثم منهم رجال الصحافة الذين جرّهم تيار التلميم والثقافة ، فكدت تنحصر جهودهم في هذه السبيل الأخيرة ، وجاءت أكثر الصحف التي أصدرتها المدرسة الصحفية الأولى مشحونة بالفصول العلمية والأدبية ، مترجمة عن الكتب الأجنبية حيناً ، ومأخوذة من الكتب العربية القديمة حيناً ، ومؤلفة بقصد أن يتكون منها كتاب في العلم أو الأدب في نهاية الأمر .

تلك إذن بعض القيود التي قيدت بها المدرسة الصحفية الأولى في مصر ، وتلك إشارة موجزة إلى بعض الظروف التي كانت هذه القيود من نتائجها في ذلك الطرف وهكذا كانت صيغة المدرسة الأولى علمية أدبية ، أكثر منها سياسية واجتماعية . وذلك من حيث الموضوع .

أما من حيث الأسلوب فقد كان رجال تلك المدرسة مقيدين كذلك بقيود الماضي الغريب ، حين كان النثر العربي يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع ، التي فن بها أدباء العربية منذ القرن الرابع الهجري . غير أن البديع أو الزينة اللفظية لا تحسنان — كما أشرت إلى ذلك في موضعه من الجزء الأول من هذا الكتاب — لإلامع ثقافة واسعة ، وذوق في اللغة رفيع ، وحسن في الأدب دقيق ، وهو ما حرمت مصر أكثره طوال القرن الثامن عشر . ومن ثم ورتت الصعقون في القرن الماضي لونا باهتا من ألوان النثر العربي ، لم يكن خليقاً بأن يحتذى ،

ولا كان جديراً بأن ينسج على منواله . ومع ذلك فقد مضى رجال المدرسة الأولى يكتبون صحفهم بطريقة لا تبيد كثيراً عن هذه الطريقة ، ولا تسكاد تحرر منها إلا في أوقات قليلة ، حتى جاء الوقت الذي سُموا فيه السجع ، وزهدوا فيه البديع وكان ذلك إيذاناً بمجيء المدرسة الصحفية الثانية . وهي المدرسة التي نعمت بقسط من الحرية في الموضوع ومن الحرية في الأسلوب ، ليس شك في أنه كبير بالقياس إلى القسط الذي نعمت به المدرسة التي سبقتها إلى الوجود .

والتن كانت المدرسة الأولى للصحافة في مصر تجاهد في ظلام حالك ، ولم يكن أمامها مثل واضح يحتذى في الكتابة أو الصحافة ، لقد كانت الثانية تشرق طريقها في شيء من النور الخفيف الذي يشبه نور الفجر ، وكان أمامها مثل — إن لم يكن كامل الموضح — فهو كلف لأن يهدي القوم سواء السبيل .

والتن كان رجال المدرسة الأولى يمثلون من الصحافة دور الطفولة ، لقد كان رجال المدرسة الثانية يمثلون من الصحافة دور النضج ، أو قل إنهم تجاوزوا هذه النضج إلى حيث قطعوا بالصحافة أول مرحلة من مراحل الشباب .

والتن كانت المدرسة الأولى قريبة عهد بالعلوم الحديثة ، والأخذ بتعريب من الثقافة الأدبية الجديدة ؛ بحيث قصروا جهودهم ، أو كادوا يقصرونها على نقل هذه الثقافة . لقد كانت المدرسة الثانية قد تخففت نوعاً ما من هذا الجهد ، وحطت عن كاهلها بعض هذا العبء ، والتفتت إلى لون آخر من ألوان الجهاد القوي ، ونزلت ميادين أخرى من ميادين الإصلاح ، ونعنى به الإصلاح الاجتماعي والإصلاح السياسي ، والإصلاح القوي .

وأخيراً — لتن كانت المدرسة الأولى تحاول إنشاء المقال الصحفي ، وتجسد عسراً شديداً ومشقة كبيرة في هذه المحاولة ، لقد كانت المدرسة الثانية قادرة على إنشاء المقال ، باللغة منه ما أريد به .

ومهما يكن من شيء ، فقد أبلت رجال المدرسة الصحفية الأولى في مصر بلاء حسناً في نشر الثقافة ، والتكوين لها ، ثم في إنشاء الصحف ، واقتناع الناس بها ، ثم في محاولة إنشاء المقال الصحفي بالطريقة التي أملاها جو العصر

من جهة ، والاسلوب الادبي الذي كان من وحي ماضيهم وحاضرهم معاً من جهة ثانية .

ألا ما أعظم الجهد الذي بذله الرعيل الأول في ميدان الصحافة المصرية ، وما أجل خطر المهمة التي ألقيت على عاتقه ، وما أعظم الواجب الذي قام به هذا الرعيل نحو الوطن ، حتى خطا خطوات سريعة إلى نهضة شملت من جميع جوانبه .

ومضى عهد المدرسة الأولى حيداً في مصر على هذا الوجه ، وأتى بعده عهد المدرسة الثانية ، فوجدنا المقالة الصحفية بالمعنى الصحيح تولد على أيدي رجالها ، ويتمتع القراء في مصر والشرق بطائفة من المقالات السياسية حيناً ، والاجتماعية حيناً آخر ، وإذا بإعلام هذه المدرسة لهم قدرة على أداء هذه المعاني في أدق صورها ، وأجمل مناظرها وأيسر طرقها . أو قريباً إلى أذهان الخاصة والعامة على السواء .

ألا ما أعظم الوثبة التي وثبها الرعيل الثاني في ميدان الصحافة المصرية ، وما أسرع الخطا التي خطاها بالمقال الصحفي ، في موضوعه وفي أسلوبه وفي وقت معاً .

راعى كل ذلك ، وملاً نفسه إعجاباً ، وقلبي غبطة وسروراً ، فكتبت هذا الجزء الثاني في الحديث عن ثلاثة فقط من رجال هذا الرعيل ؛ وهم أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم . ولا شك في أن هؤلاء الثلاثة أيموا إلا أمثلة فقط لكتاب المدرسة الثانية ، وإن شئت فقل لأنهم زعماء هذه المدرسة التي تملك غيرهم ، من لم يتسع الكتاب لذكرهم ، والإشادة بالجهد الصحفي الذي بذلوه في تلك المرحلة .

وفي ترجمتي لحياة أولئك الثلاثة الكتاب ، انتفعت بطائفة من الكتب الحديثة والتراجم الخاصة ، ومنها ترجمة عوني إسحاق لأخيه أديب إسحاق و ترجمة أحمد سمير لصديقه عبد الله النديم ، و ترجمة رشيد رضا لشيخه محمد عبده . ثم كتاب زعماء الإصلاح ، لأستاذي الكبير أحمد دبك ، أمين .

أما أساليب أولئك الثلاثة الكتاب . ودراستها وتقديرها وتحليلها وما يتصل

بذلك من أبحاث غايتها استخلاص الطابع الصحفي للمقال . وشرح المنهج الصحفي لكل واحد من أولئك الكتاب وبمجهودى الخاص . الذى أعتقد — فى حدود علمى — أننى لم أسبق إليه

وأنا إذ أقدم هذا الجزء إلى القراء أرجو أن يتنفع به طلبة الجامعة عامة . وقسم التحرير والترجمة والصحافة خاصة . والمتصلون بالصحافة نفسها اتصال حرفة ، أو اتصال بحث وعلم على وجه أخص .

وقد عزمنا على أن نخصى فى الكتابة عن رجال الصحافة طبقة بعد طبقة ، ورعيلا بعد رعيلا . حتى نصل إلى الصحفيين الذين نعيش معهم فى هذا العصر .

والله تعالى نسال أن يوفقنا إلى هذه الغاية ويهدينا سواء السبيل ؟

مصر الجديدة فى فبراير سنة ١٩٦٥

عبد اللطيف همزة

الفصل الأول

ظروف عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية

واجهت الصحافة العربية في مصر في النصف الثاني من القرن الماضي ظروفًا مختلفة بعض الشيء للظروف التي واجهتها في النصف الأول وهي ظروف أوجبت على الصحافة أن تجرل جولات واسعة في ميدان الإصلاح الاجتماعي وميدان الإصلاح الأدبي أو اللغوي ، وميدان الإصلاح السياسي آخر الأمر ، على حين كانت في النصف الأول من القرن الماضي تكاد تنحصر جهودها كما قلنا في الميدان الثقافي وحده قبل كل شيء . وبعبارة أخرى في نقل الثقافة الأوروبية إلى اللغة العربية من جهة ، ونشر الكتب القديمة المعروفة في الأدب العربي من جهة ثانية .

وإذا أمعنا النظر في هذا النشاط الكبير الذي استغرق جهود المصريين في النصف الثاني من القرن الماضي وجدناه موزعاً في الواقع على حركات ثلاث وهي :

١ - حركة التنوير .

٢ - حركة المستور .

٣ - حركة المقاومة .

حركة التنوير

فأما حركة التنوير فنحن نعلم أنها بدأت بمجيء الحملة الفرنسية ، ثم بظهور محمد علي وعنايته بنشر التعليم الحديث ، وجذب المصريين إلى الثقافة الأوروبية كما سبق أن شرحنا وذلك في الجزء الأول من كتاب (أدب المقالة الصحفية) .

غير أن أسباباً أخرى جعلت في النصف الثاني من القرن الماضي وكان من شأنها تقوية هذه الحركة والمضي بها أشواطاً بعيدة المدى . وأهم هذه الأسباب الجديدة مايلي :

أولاً - بناء المصريين على إصرارهم القديم على التمسك باللغة العربية وإيثارها بالاستعمال على اللغة التركية وذلك في الصحافة والتعليم والتأليف في الدواوين الحكومية المختلفة

أجل - إن هذا الاتجاه نحو اللغة العربية والتنصب لها على هذا النحو كان مسيراً للنهضة المصرية منذ بدايتها إلى نهايتها . وكان هذا الاتجاه من اتجاهات النهضة مؤيداً من المجالس النيابية أو شبه النيابية في مصر تأييداً تاماً وذلك منذ طالبت هذه المجالس بضرورة استخدام العربية في شئون التعليم . وكان قد ظهر منافس جديد للغة العربية منذ الاحتلال البريطاني . وهذا المنافس الجديد هو اللغة الإنجليزية فأصر الثواب على أن تحمل اللغة العربية عمل هذه اللغة الإنجليزية في جميع مراحل التعليم ولقي المشروع صعوبات جمّة . ولكن الثواب ورجال الصحف تغلبوا عليها في النهاية على نحو ما هو معروف في التاريخ .

ثانياً - كان من تلك الأسباب التي جددت في النصف الثاني من القرن الماضي وأصبح لها أثر في تقوية حركة التنوير مجيء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر وإقامته فيها بين سنتي ١٨٧١ - ١٨٧٩ يذر فيها بذور الحرية ، ويشجع المصريين والشرقيين على اليقظة الفكرية واليقظة السياسية . وجمع حوله الشباب العربي على هذه الفكرة وكان من هؤلاء على سبيل المثال : أديب إسحق ، ومحمد عبده ، وعبد الله التديم ، وإبراهيم المويلحي ، وسفي القحافي ، وسعد زغلول ، وغيرهم كثيرون .

ثالثاً - ولعل من أقوى الأسباب التي ساعدت على تنمية حركة التنوير أن حركة الترجمة التي بدأت منذ أيام محمد علي واستمرت إلى أيام إسماعيل كانت قد أثمرت وأنبعت وبدت آثارها قوية في الدوائر الثقافية وفي نمو العقل العربي الجديد وهو العقل الذي وجدناه يدين بجزء كبير من تكوينه ونشاطه إلى التيار الأوروبي مثلاً في ذلك السبيل الضخم من المكتب المترجمة في شتى العلوم المختلفة التي احتاجت إليها النهضة المصرية على النحو الذي فصلنا فيه القول في الجزء الأول من كتابنا (أدب المقالة الصحفية) .

رابعا - ثم من الأسباب التي عادت بالخير على حركة التنوير نهضة الأزهر الشريف أو شعور الأزهريين في تلك الفترة من تاريخ مصر بأن عليهم واجبا هاما نحو الثقافة الشرقية أو العربية حتى تقف على قدميها بجوار الثقافة الأوروبية . ولكن الأزهر إذ ذاك يتأثر تأثرا عميقا بالنقد الشديد الذي كان يصدر من أحد أبنائه - وهو الشيخ محمد عبده . ولهذا الأخير جهود مشكورة في نشر التراث العربي الإسلامي والعناية بطبع الكتب القديمة التي هي أمهات الأدب العربي . وحذا حذو الشيخ محمد عبده في ذلك عدد كبير من الذين تلقوا علومهم في الأزهر الشريف وتألفت لذلك جمعيات أدبية كثيرة لهذا الغرض . ونحن نعلم أن الحكومة المصرية شاركت من جانبها في هذا المشروع وذلك منذ عهدنا بشيخ الصحافة المصرية رفاعة رافع الطهطاوي وتلاميذه من بعده .

خامسا - من أسباب تقدم هذه الحركة وهي حركة التنوير استمرار تدفق السوريين إلى مصر وعنايتهم إذ ذاك بالصحافة والأدب والمسرح وبالقصة المترجمة والقصة المؤلفة . والذي لا شك فيه أن جهود السوريين نجحت نجاحا كبيرا في تنوير الذهن المصري ، وكانت في ذاتها مشاركة قوية في بناء الثقافة العربية .

سادسا - في ذلك الوقت كانت الحرب الروسية التركية قائمة (سنة ١٨٧٧) وكانت هذه الحرب - كما قلنا في الجزء الأول من أدب المقالة الصحفية - حجر الزاوية من النشاط الذي بدا من جانب الصحافة المصرية ، لقد انقسم الصحفيون المصريون وقتئذ فرقتين :

فريق يؤيد الأتراك ضد الروس .

وفريق يؤيد الروس ضد الأتراك

وبسطت الحكومة المصرية الحبل الصحافة في هذا المجال لأول مرة في حياتها . وكان ذلك من دواعي ظهور ما يسمى بالرأى العام في مصر . وظهر فيها لأول مرة على هذا النحو .

غير أن الاتجاه العام من جانب الصحف الوطنية إذ ذاك كان ضد قيام الحرب

من حيث هي . ولكن هدف إلى إشاعة الكراهية لها أو الترويج لمعانيها . وجاءت مقالات أديب لإسحق معبرة عن هذه الكراهية ، تقدم السكاكيب الحرب صورة منفردة ؛ كتبها على طريقة الأدباء ، ولم يكتبها على طريقة السياسة ، ومن ثم جاءت هذه المقالات وهي لوحة فنية لا تقل في كمالها الفني عن أروع قصيدة من قصائد الحرب نظمها شاعر من أكبر شعراء العربية كافي تمام أو المتنبى وغيرهما .

هذه عوامل قليلة من أخرى كثيرة أفضت إلى التحول الصحفي من المدرسة الأولى إلى المدرسة الثانية ، كما أفضت إلى ازدهار حركة التحرير ، وكان لها فضل عظيم في الانتقال بالمصريين من مجرد الاكتفاء بالثقافة العربية إلى التطلع إلى الدرج بين الثقافتين العربية والأوربية ، وقد كان تلاميذ المدرسة الصحفية الثانية في مصر من دعاة هذا التحول ، وثمر من ثمراته في مصر والعالم العربي .

حركة الدستور

أما عن حركة الدستور فخلاصة القول فيها أننا نجد الحياة النيابية في مصر تمتد من عن دساتير ومجالس نيابية أو شبه نيابية على النحو التالي :

أولاً - مجلس شورى النواب (١٨٦٦ - ١٨٧٩) وهو المجلس الذي أنشأه إسماعيل .

ثانياً - المجلس الذي تمخضت عنه الثورة العرابية ولو أنه لم يدم أكثر من أربعة شهور (من ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ إلى ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٢) . ثم أتى بعده الاحتلال البريطاني .

ثالثاً - مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية (١٨٨٣ - ١٩١٢) وهو النظام الذي اقترحه الاحتلال البريطاني .

رابعاً - الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ وهي الجمعية التي توقفت عن العمل بنشوب الحرب المالية الأولى سنة ١٩١٤ .

خامساً - مجلس النواب المصرى سنة ١٩٢٤ وهو المجلس الذى كان ثمرة من ثمرات الثورة الكبرى سنة ١٩١٩ .

فإذا نحن أخفينا النظر عن المجلسين اللذين لم يدوما طويلا وهما مجلس الثورة المرافية من جهة والجمعية التشريعية من جهة - قلنا إن الحياة النيابية في مصر خضعت لأطوار ثلاثة تمثلها مجالس ثلاثة وهى :

١ - مجلس شورى النواب

٢ - مجلس شورى القوانين

٣ - ومجلس النواب المصرى .

فأما المجلس الأول فكان رأيه استشارياً محضاً . وبالأهم من ذلك ظهرت فيه المعارضة شيئاً فشيئاً حتى بلغت غايتها في وزارة رياض باشا منذ اصطدم بنائين جريئين هما محمد رشدي وعبد السلام الموطى ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في الجزء الأول من أدب المقالة الصحفية .

وأما المجلس الثانى - وهو مجلس شورى القوانين - فكان أعضاؤه يتألفون من عنصرين متعارضين كل التعارض وهما :

العنصر التركى أو التركى ومنه يتألف حزب السراى، والعنصر الوطنى وقوامه الأعيان وأصحاب المصالح الحقيقية في البلاد ، ومعهم المتفقون في الأمة . وقد تألف من العنصر الأخير حزب أطلق على نفسه (حزب الفلاحين) يتميزاً له عن حزب السراى أو حزب الأتراك أو حزب الشراكسة . وكان الخلاف شديداً بين الحزبين . وكان لهذا الخلاف نتائج في غاية الخطورة على البلاد ، وسنعود إلى الحديث عن بعض هذه النتائج عند الكلام عن حركة المقاومة .

ولانستطيع أن ندع الكلام عن حركة المستوردون أن نفير إلى الاقتصادات الباهرة التى أحرزها النواب المصريون في داخل هذا المجلس الأخير ، برهم الظروف الصعبة التى أحاطت بأولئك الأعضاء ، والضغط الشديد الذى عانوه من قبل حكاهم الشرعيين من ناحية ، وجمال الاحتلال البريطانى من أصحاب السلطة الفعلية في البلاد من ناحية ثانية .

ومن ههنا الانتصارات على سبيل المثال ما يقرن بشخصية الأستاذ الشيخ محمد عبده فقد كان له أعق الآثار في مجلس شورى القوانين ، وذلك منذ دخل هذا المجلس في يونية سنة ١٨٩٩ ، ومنذ صار عضواً بارزاً في كل لجنة من لجانه وحركة من حركاته . وكان الشيخ محمد عبده يبنى سياسته دائماً على الوقوف موقفاً وسطاً بين الحكومة المصرية والاحتلال البريطاني ، وذلك في كل خلاف يقع بينهما حول مسألة من المسائل الهامة . على أن الشيخ لم يدخسر وسعاً كذلك في بث روح المسؤولية والكرامة في نفوس الأعضاء فيما يتصل بالمصلحة العامة (١) .

حركة المقاومة

وننظر كذلك في هذه الحركة الأخيرة فنجد أنها مرت في طورين كبيرين لا يستينا منهما الآن إلا الطور الأول ، وهذان الطوران هما :

١ - طور التخلص من النفوذ التركي .

٢ - طور التخلص من النفوذ الأوروبي .

والذي لا شك فيه أن جميع حركات المقاومة التي ظهرت في مصر في طور التخلص من النفوذ التركي إنما صدرت عن (حزب الفلاحين) وهو الحزب الذي أطلق على نفسه أسماء أخرى منها (الحزب المصري) و (الحزب الوطني) وهو غير (الحزب الوطني) المنسوب إلى مصطفى كامل ، وظهرت معه الأحزاب المصرية الأخرى بين عامي ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ .

من ذلك الحزب الذي أطلق على نفسه (حوز الفلاحين) نبعث جمعيات سرية كثيرة منها :

(١) عبد الطيف حمزة : أجواء فكرية وسياسية عاش فيها الأدب الحديث والمصاحفة المصرية . بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة : الجزء الثاني ، المجلد السادس عشر بتاريخ ديسمبر سنة ١٩٥٤ .

١ - الجمعية السرية للضباط المصريين سنة ١٨٦٧ .

٢ - جمعية مصر الفتاة التي ظهرت بمدينة الإسكندرية سنة ١٨٧٩ .

والأولى من هاتين الجمعيتين تسمت باسم (الحزب الوطني) . وكانت الحزب عروانا بين هذين الحزبين الكبيرين أو التيارين المتنازعين وهما :

حزب السراى أو الشراكة من جانب ، وحزب الفلاحين أو الحزب المصرى من جانب آخر . كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وانظر إلى عبارة وردت في تقرير أحمد مرادى تعليقاً منه على الحادث الذى وقع في الحادى عشر من شهر يونية سنة ١٨٨١ وكان مقدمة من مقدمات الثورة العرابية وفيها يقول : (إن حزب السراى المكون من الأتراك والشراكة عدو للانسانية . فهم يعتقدون أن الله التقدير لم يخلق المصريين إلا ليكونوا عبيداً لهم وغداهم الذين يشغلونهم آلة لنشر سلطانهم المطلق . وهم في كل ذلك يعاملونهم بكل قسوة واحتقار حتى رأوا أن جهودات الحزب المصرى بدأت تؤق ثمارها ، وأن فريقاً ناهياً من هؤلاء الذين كانوا يظنونهم عبيداً لهم قد خطوا خطوات شاسعة إلى الأمام ، وأصبح منهم وزراء يجلسون معهم على قدم المساواة في مجالسهم المقدسة . . . الخ) (١) .

* * *

تلك إشارة عابرة إلى بعض الظروف التى عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية . وهى المدرسة التى كان من تلاميذها أديب إسحق ، ومحمد عبده ، وعبدالله التديم ، وإبراهيم المولى .

ومن هنا وجدنا صحافة هذه الطبقة تخوض في موضوعات اجنبائية ولنوعية وسياسية . منها على سبيل المثال :

(١) عبد اللطيف حمزة : النقطة المركزية عند مدرسة الشيخ محمد عبده وأثرها على صحافة هذه المدرسة ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد الثامن عشر الجزء الأول بتاريخ مايو سنة ١٩٥٦ هـ خلا من التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر (للسريبلات) الترجمة العربية ص ٣٧٨ .

موضوع الخلاف بين الباب العالي والحيدو إسماعيل ، وموضوع الدستور والمجالس النيابية أو شبه النيابية في مصر ، وموضوع إصلاح اللغة العربية والسير بها إلى الدرجة التي تستطيع فيها مواجهة المطالب الحضارية الجديدة ، وموضوع الثقافة الأوروبية والمتنافسة التي بينها وبين الثقافة الشرقية ، وموضوع التبشير والمبشرين المسيحيين ، وهذا كله فضلا عن الموضوعات الاجتماعية الكثيرة التي أثارها الصحفيون وكان لها أكبر الأثر على الأدب المصري والفكر المصري منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين .

شهدت الصحافة المصرية على يد المدرسة الثانية كل هذه الظروف . وكان وجهاً لوجه كذلك أمام التدخل الأجنبي الذي ظهر بأشكال كثيرة من أهمها الوزارة الأوروبية . ومعناها في التاريخ المصري الحديث اشتراك عضوين أوروبيين في الوزارة المصرية ، أحدهما فرنسي والآخر إنجليزي ، ومن أم أشكال هذا التدخل كذلك منافسة العناصر التركية العناصر الوطنية في الجيش ، وفي وظائف الحكومة ، وفي المجالس النيابية كما قدمنا . فامتلات قلوب المصريين شعوراً بالكراهية الشديدة لمؤلا الأتراك السراكسة الذين ظفروا بثقة الحاكم الشرعي ثم نهضوا في إيقاد صدره ضد الوطنيين . وكان ذلك سبباً من أهم أسباب الثورة العرابية التي قامت تطالب بحقوق المصريين في مناصب الجيش . كما قامت هذه الثورة لفرض أهم من الفرض الأول ؛ وهو هنا المطالبة بدستور سليم يكون على غرار الدساتير الأوروبية الحديثة ، ومن ثم ذهب التاريخ إلا أن الثورة العرابية ثورة دستورية في جوهرها .

وأخيراً شهدت صحافة المدرسة الثانية التي تؤرخ لها في هذا الكتاب في أواخر عهدا بداية الاحتلال البريطاني نتيجة لفشل عرابي قشرد كثيرون من رجال هذه الطبقة كما قشرد الكثيرون من رجال الثورة العرابية ذاتها . واختفى الزعماء المضحون فترة من الميدان ، هي الفترة التي أصبحت فيها النهضة المصرية والأقلام المصرية والصحافة المصرية بشل مؤقت لم يكد يزيد عن عشر سنوات عادت بعدها هذه الأقلام إلى الظهور من جديد لتقود حركة صحفية كبيرة بدت في نهاية المدرسة الصحفية التي تؤرخ لها هذا الكتاب . ولكنها بلغت أقصى قوتها على أيدي

المدرسة الثالثة من مدارس الصحافة في مصر . وهي المدرسة التي كان من أعلامها السيد علي يوسف صاحب المؤيد ، والزعيم الشاب مصطفى كامل صاحب القواء والأستاذ أحمد لطفي السيد عمرد « الجريلة » .

* * *

(وبعد) فأود أن أختتم هذا الفصل بما بدأت به ، وهو الطابع العام لصحافة المدرسة الثانية في مصر ؛ فأقول إنه الطابع الاجتماعي لا الثقافي أو السياسي

وتفسير ذلك بإيجاز أنه إذا كانت المدرسة الصحفية الأولى في مصر تمتاز بالطابع الثقافي البحت . وكانت المدرسة الصحفية الثالثة في مصر تمتاز بالطابع السياسي ، فإن المدرسة الصحفية الثانية التي نودخ لها هذا الكتاب تمتاز بالطابع الاجتماعي .

لهذا أديب إسحق - من تلاميذ هذه الطبقة - يعلم الناس معاني الحرية والوطن والوطنية ، ويصيح بذلك حلقة الاتصال بين المدرسة الأولى والمدرسة الثانية .

ثم هذا هو الشيخ محمد عبده يقيم من نفسه مصلحاً اجتماعياً لبلاده مصر ؛ حتى إذا نفى إلى باريس والتقى فيها بالسيد جمال الدين الأفغاني انقلب مصلحاً اجتماعياً للعالم الإسلامي كله .

ثم هذا هو السيد عبد الله النديم يصدر جريدته (التسيكيت والتبكيك) لفرض أسامي هو الإصلاح الاجتماعي .

ثم هذا هو إبراهيم الميمني من رجال هذه الطبقة الثانية من طبقات الصحفيين في مصر يسلك نفس السبيل ، وينادي بإصلاح الأزهر من جانب ، وإصلاح المجتمع المصري الذي خضع لتيارات أوروبية جديدة من جانب آخر .

وهكذا غمرت موجة الإصلاح الاجتماعي جميع الصحف المصرية التي صدرت في تلك الفترة وكانت صدى لاحتياجات الشعب المصري بعد إذ تم تحوله إلى الحالة الجديدة التي وجد نفسه فيها عاصماً لتأثيرات الحضارة الأوروبية يصلحها حيناً ، ويغاصها حيناً ، ثم يقصد الصلح النهائي بينهما في نهاية الأمر .

(٢٠ - أدب الخالة ج ٢)

الفصل الثاني

حياة أديب إسحاق

(١٨٥٦ - ١٨٨٥)

لم تكن في مصر أو الشرق جامعات في القرن الماضي - وذلك باستثناء الجامعة الأزهرية - وكانت هذه الأخيرة من الركود على نحو ما وصفنا في الجزء الأول من هذه السلسلة . ومع ذلك فقد يجيب الباحث من أولئك الكتاب الذين أنجهم الشرق العربي في ذلك القرن ، كيف نشأ أنفسهم هذه التلثة الأدبية القوية . بل كيف كشف لهم في أنفسهم عن تلك المواهب ، التي انتفع بها الشرق العربي في أنسب وقت لهذا الانتفاع .

وهذا قتي من قتيان تلك الحلبة (وهو أديب إسحاق) ، ولد بدمشق عام ١٨٥٦ لليلاد ، ثم أدخله أبوه مدرسة الآباء المازاريين ، حيث تلقى مبادئ اللغتين العربية والفرنسية ، وفي تلك السن المبكرة التي لم تلبس بعد عهد النظام يلفت الطفل نظر أستاذه في اللغة العربية ، حتى يقول أستاذه لأبيه يوماً ما : « إن ابنك هذا سيكون قوياً » . يريد شاعراً ، لكثرة ما كان يرد من كلام هذا الصبي مسحوراً صفو القريحة . ثم سرعان ما حقق الطفل نبوءة أستاذه ، فتعلق بالشعر ، ونظم القصائد وهو بعد لم يتجاوز العاشرة من عمره .

وقيل أن أسرة الطفل تعرضت بعد ذلك للتعطل ، واحتاجت يومئذ إلى معونة هذا الصبي . فالتحق وهو في الحادية عشرة من عمره بمدرسة « الجرك » . وكان راتبه إذ ذاك لا يزيد على مائتي قرش .

فهل كان اضطلاع الصبي بقبجات أسرته في تلك السن المبكرة ، سبباً في حدة المراج التي وصف بها فيما بعد ؟ أم كانت هذه في مراحه طبيعة فيه ولدت معه ؟ لست أدري .

مهما يكن من شيء ، فإن هذا العمل الذى اشتغل به الصبي لم يكن يشغله عن صوغ الشعر ، وعمل الموشحات ، ونحو ذلك من الجهود الأدبية التى كان يبذلها وقت فراغه .

ثم عرض لوالده بعد ذلك السفر إلى بيروت ، والاشتغال بخدمة د البوسطة العثمانية ، وهناك استمدى الوالد ابنه ليلحق به ويعينه في عمله ، فسافر الصبي في الخامسة عشرة من عمره إلى بيروت ، لتنفيذ لأمر والده ، وهناك تعرف هذا الصبي الشاعر بطائفة من رجال الأدب ، وكانت له معهم مطارحات ومراسلات شعرية .

واشتهر أمر الفتى في بيروت . ولفت إليه أنظار الناس هناك ، ثم نذرت به نازعة الملا إلى الاشتغال بفن الكتابة ، فتولى تحرير جريدة التقدم . وذلك بعد نشأتها زمن قليل ، ووجد في هذه الجريدة ، وملاها بكثير من قصوله الأدبية ، التى كان لها أكبر الأثر في ترويض قلبه ، وإعداده للجهاد الصحفى الذى كان ينتظره في حياته المستقبلية . ثم لم يكتب الفتى بذلك حتى سميت نفسه في بيروت إلى المشاركة في التأليف الأدبى ، كما سذكر ذلك فيما بعد .. ولم تلبث بعد ذلك أن رأينا هذا الفتى عضواً عاملاً في جماعة ذهرة الآداب ، وقد كشفت هذه الجماعة الأخيرة عن موهبة ثالثة من مواهبه ، هى موهبة الخطابة ، وأتاح له مساجلات هذه الجماعة فرصة المran في هذه الناحية . كل ذلك وسنه دون العشرين . وكان موضوع أول خطبة ألقاها في جماعة ذهرة الآداب اليونان والرومان ، ثم أتى بعد ذلك خطاباً ومحاضرات كثيرة في موضوع « النعصب والتساهل » ، وموضوع الحرية ، وموضوع « نابليون الأول هل كان خير أم أكثر من شره » الخ .

وفي بيروت كان الفتى قد ترجم رواية « أندوماك » لراسسين ؛ وذلك بإشادة من قنصل فرنسا هناك ، بل إنه نظم أشعار هذه الرواية ، وقام بتدريب الممثلين على أدوارها ، وذلك في مدى ثلاثين يوماً ، ثم مثلت الرواية ؛ وخصص ربحها لمساعدة البنات اليتيمات في المدينة .

وسافر الشاب بعد ذلك إلى الإسكندرية ، بمشورة بعض أصدقائه . وهناك ترجم رواية « شريان » ، وأعاد النظر في « أندروماك » ، ولقيت الروايتان رواجا عظيما .

ثم لم تلبث أن رأينا هذا الفتى بالقاهرة ، وبها رجل الشرق وواحد السيد جمال الدين الأفغانى ، فالتصّل به أديب إسحاق ، وحضر كثيراً من دروسه فى المنطق والفلسفة ، وتوسّم السيد جمال الدين فى هذا الشاب التجارة والسّن وحسن الكتابة ، فأوعز إليه يومئذ أن ينشئ جريدة مصر ، فقام بإنشائها أديب إسحاق عام ١٨٧٧ ، وقيل إنه لم يكن فى جيبه يومئذ أكثر من عشرين فرنكا ١ .

وأقبل الناس على هذه الجريدة ، ومالوا إليها ، وبقيت إدارة الجريدة قائمة بالقاهرة حتى أشار عليه بعض أصدقائه أن ينقل إدارتها إلى الإسكندرية ، فوافقه على ذلك ، وشاركه فى تحريرها يومئذ صديقه « سليم النقاش » ، وبذل الرجلان فى هذه الجريدة جهداً لغوياً مفكوراً ، لا يترك مجالاً للشك فى عظم الدين الذى لما فى خلق اللغة والأدب . وكان أديب إسحاق - وهو بالإسكندرية - يشترك فى تحرير القسم الفرنسى من جريدة « مصر الفتاة » ، وله فيها بحوث قيمة ، أهمها بحث بعنوان « سكون الأمة المصرية بإزاء التاريخ » كتبته بالفرنسية ، وترجمه بعد ذلك بنفسه إلى اللغة العربية (١) .

ولم يكتف الأديبان - إسحاق والنقاش - بذلك بل اشتركا معاً فى تحرير جريدة أخرى اسمها « التجارة » ، أصدرها أسبوعية ، كما كانت جريدة « مصر » أسبوعية أيضاً . فكانتا فى الحقيقة من أقوى دعائم النهضتين القومية والأدبية ، ثم دعت شئون وأحوال إلى إلغائها الجريدتين معاً :

وربما كان من أهم هذه الأحوال التى نشير إليها تعرض أديب إسحاق فى جريدته «التجارة» لتقد الحكومة المصرية نقداً جارحاً فى أمور كثيرة ، كاحتلالها

(١) ظهرت هذه الصحيفة بالإسكندرية فى عام ١٨٧٩ وكانت لسان حال الجمعية السرية التى أطلقت ذلك باسم «جمعية مصر الفتاة» وكان من أعضائها أديب إسحاق والسيد عبد الله النديم .



أديب إسحاق

١٢٧٣ - ١٣٠٢ هـ

١٨٥٦ - ١٨٨٥ م

على الأجناب إلى درجة كبيرة ، فقد وصف أديب إسحاق ذلك بأنه « بربرية
أوربية لا يجوز السكوت عليها ، لأن القوم نازحوا الأرض المحبولة بدم آباءنا ؛
وأصبحوا أمراء في بلادنا الخ » . ثم طالت الجريدتان نظرتا ، ومضت كل منهما
تناضل عن قضية الوطن ؛ حتى وصلت أولاهما « مصر » ، لمدة أسبوعين ، وقيمت
« التجارة » ، وحدها في الميدان ، وطفقت تقابل قراوات الإلغاء والتعطيل
بازدراء وعناد ، وأمضت في خطتها التي ترى إلى حماية مجلس النواب من نفوذ
الوزيرين الأجنيين وهكذا هدت « التجارة » ، هي الأخرى بالتعطيل فكتبت
في عددها الصادر في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٩ تقول :

والتجارة تحسب حب الوطن ديناً ؛ والمدافعة عنه جهاداً ؛ فإن عاشت فيه
فهي سعيدة ، وإن ماتت فهي شهيدة ، ولقد آتاه الله الثمنتين وأتاح لها الحسنيين ،
فماشت به ، وماتت عليه . وستبث بعد أسبوعين رافلة في ثوب الشهادة ، مزيّنة
بمحل السعادة ، وعلى رغم أنوف حاسديها الذين أولوا كلامنا بما لم نقصد وحاولوا
إطفاء نور الحق ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون .

ولكن أديب إسحاق بعد إذ أنشيت جريدته التجارة ، فكر في السفر إلى
فرنسا فسافر إلى باريس مدينه النور ؛ حيث لاذ بموطن الحرية ، وبومئذ كان
الحديث قد نفى السيد جمال الدين الأفغانى من مصر ، وتخلص منه ، وكان قد أقبل
الوزارة المصرية ذات الميول الوطنية ، ونفى بها وزارة شريف . ولذا ذاك أيضاً
كان الحديث قد أسند الوزارة إلى رياض باشا ، فقبل هذا أن يتولى رئاسة الوزارة ؛
وكان قبوله لها في تلك الظروف معناه العودة إلى الحكم الاستبدادى . وفي ذلك
الوقت ألفت في حلوان الجماعة المعروفة باسم « الحزب الوطنى »^(١) ، وقيل إن هذا
الحزب فكر يومئذ في أن يرسل على نفقته أديب إسحاق إلى باريس ، ليصدر
هناك جريدته « مصر القاهرة » .

وكان رياض هو الذى أمر بإلغاء جرائد أديب إسحاق ، فرحل هذا الأديب

(١) وهو غير الحزب الوطنى للندوب إلى ممطلق كامل . وهذا الاسم يتأيل (حزب السراي)
الذى كان يضم إليه الأتراك والعراكة ، على حين كان الحزب الوطنى يضم إليه الإقلاص المصريين
(راجع التاريخ السرى لاحتلال الإنجليز مصر . للسيد بلانت : ص ٣٧٨ ، راجع برنامج الحزب
الوطنى — الترجمة العربية : ص ٤٤٠) .

الصحن إلى فرنسا والنيظ يأكل قلبه ، والثورة تحتدم في نفسه ، والنم يغفل في عروقه والمرجح أن ذلك عام ١٨٨٠ ميلادية . وهناك في باريس صاب الرجل جلم مخضبه أولا على رياض باشا ، فلم يكذب بخلوص واحد من أعداد صحيفته من سخرية خبيثة ، تناولت كل جانب من جوانب هذا الرجل ، وتعرضت لحلقته وعرضه ، وهذه النقطة الأخيرة هي الجانب الذى فى كتابة أديب إسحاق ، أو الحلقة الخبيثة التى لا نواقه عليها ، فإذا صرفنا النظر عن هذه النقطة الأخيرة ، ونظرنا في صحافة أديب إسحاق ومقالاته التى كتبها في باريس ، فمنها نبذى إعجابنا به وبقلبه ، على النحو الذى سفسرناه فيما بعد .

والعجيب أن أديب إسحاق بدأ يحرر هذه الصحيفة في باريس بخط يده ، وينسخ منها نسخاً عديدة بخط يده ، ولم يشأ أن ينتظر حتى يظفر بالمطبعة التى تقوم لهذا العمل وكان يكتب في صدر صحيفته دائماً كلمات مساواة ، حرية ، إخاء ، وجاء في الأعداد الأولى من هذه الجريدة قوله :

... ما تغيرت الحقيقة بتغيير الرسم ، ولا تغيرت الصحيفة بتغيير الاسم ، بل هي ... مصر خادمة مصر (١)

ومنذ يومئذ وهذه الجريدة متنفس لهذا القاب الثائر ، الذى أحس بحريته في باريس ، وشعر بأنه أصبح أشبه ما يكون بوحش قد أطلق سراحه . وهناك في باريس أقام أديب إسحاق قرابة تسعة أشهر ، أقام فيها من الفوائد السياسية والأدبية شيئاً كثيراً ؛ من ذلك أنه تعرف بكثير من رجال فرنسا ، حتى كتبت عنه بعض الصحف الفرنسية . ومن ذلك أنه شهد مجلس النواب الفرنسى ، ورأى بنفسه كيف يخطب الخطباء في قعد الحكومة ، وكيف يمارسونها في حرية وصراحة ، وكيف يوجهونها توجيهاً سليماً في الناحيتين السياسية والاجتماعية . وكان ذهنه في هذه الحالة ينتقل سريعاً إلى مجلس النواب المصرى ، وكانت تسوؤه الموازنة بينه وبين مجلس النواب الفرنسى ، فكان يعد من المقالات اللاذعة في نقد نوابنا المصريين ما سئرى أمثلة يسيرة منه بعد قليل .

(١) انظر عدد ديسمبر ١٨٧٩ ، وهو مدار الكتب المصرية .

ولم ينس أديب إسحاق في أثناء مقامه بفرنسا أن يكتب المقالات الكثيرة من الشرق ، ولم ينس كذلك أن يفرغ لتأليف كتاب له باسم (تراجم مصر ، في هذا العصر) . والظاهر أن الكتاب الأخير قد من جملة ما قد من آثاره ، والظاهر أيضاً أنه تعرض فيه لكثير من الشخصيات المصرية ومن أهمها شخصية رياض باشا التي تناولها على عادته بالنقد والتجريح

واتهر أديب فرصة وجوده بباريس فزار المكتبة الأهلية زيارات كثيرة ، واطلع فيها على طائفة كبيرة من المؤلفات الفرنسية والمخطوطات العربية . ويقال إنه نسخ منها قطعاً ليست باليسيرة وفي باريس بقى هذا الشاب الممتلئ بالحياة حركة دائمة ، ونشاطاً مستمراً ، وجذوة لا تنطفئ . حراوتها ، حتى ظهرت عليه أعراض مرض قديم ، كان قد بدأ معه وهو بالإسكندرية ، وهذا المرض هو مرض الصدر . وحين سافر إلى باريس كان البرد قارساً ، حتى قيل إن ميزان الحرارة قد سجل فيها درجة الثلاثين تحت الصفر . وكان أديب يستجيب في باريس لتداعى الشباب ، فكان لا يرى إذ ذاك إلا غموراً وأخيراً عاد هذا الشاب المصدور إلى بيروت . وكان عليه أن يأخذ نفسه بالراحة والمهدوء ، ولكن أنى له ذلك وهو لم يتعود قط أن يستريح . فهذا هو صاحب جريدة « التقدم » يمرض عليه أن يتولى تحريرها للمرة الثانية ، فيأوده الحنين إلى أول جريدة عمل بها في حياته ، وسرحان ما يقبل على تحريرها ، فيسكد عاطره ، ويقتو على نفسه في كتابة المقالات الشاقة ، والفصول الضافية سنة كاملة .

ثم دعاه إخوانه وأصدقائه في مصر إلى العاق بهم ، واتصل دعائهم له ولإلحاحهم عليه ، فلم يجد أديب بداً من الخضوع لهم ، والذهاب إلى مصر ، فخرج من بيروت ، وودعه فيها أصحابه توديعاً حاراً .

ووصل إلى القاهرة ؛ وعين بها ناظراً لقلم الإنشاء والتجربة بنظارة المعارف ، وسعى حتى حصل من الحكومة المصرية مرة أخرى على ترخيص له بنشر جريدته « مصر » فأصدرها أولاً في شكل «كراسة » ، ثم أعاد مظهرها

الأول في أربع صفحات . وأشارت إلى ذلك جريدة « المفيد » محررها
« حسن القمى » وذلك بعدد الصادر بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨١
— قالت :

« سينشأ في نظارة المعارف قلم تحرير وترجمة ، يكون المتعلمون فيه هم
التلامذة الذين تمموا الفنون التي تدرس في المدارس العالية ، وصاروا صالحين
للخدمة في دوائر الحكومة الخ ، وقد تعين لرياسته حضرة المجهذ الحاذق ، والكاتب
الماهر ، صديقنا أديب إسحاق . ويقال إنه مع ذلك سيصدر جريدته المفضاة
« مصر » ، لكن على شكل كراسة تصدر في العاصمة سواء كانت سياسية أو
أدبية ، تاركة ذكر الأخبار الطارئة الأسبوعية أو اليومية إلى قريبتها : جريدة
العصر الجديد ، وجريدة الخروسة . ولا شك أن هاتين الخدمتين سيقوم بهما هذا
الفاضل فوق ما يؤمل ؛ فتروج بذلك صناعة الأدب ، وتتغير عما قليل هيئة
الكتابة في الدواوين إلى الفصحى ؛ وتشرقيا بيننا الكتب العلمية المؤلفة
بلغة الأجانب . التي تهوينا إلى رثيتها لابساً لحن العربية ؛ ولم يظفر بذلك
من صد وفاة المحرم رفاعة بك ، لفقدان معلم الترجمة ، لهذا المشروع ،
ونعم الغرض . »

ثم أضيفت إلى أديب إسحاق وظيفة أخرى إلى جانب الوظيفة الأولى إذ
عين كاتباً لأسرار مجلس النواب . وإذ ذاك منحه الخديو رتبة البكوية من الدرجة
الثالثة . قال أخوه حرقى إسحاق في ذلك :

« وما انتقله — رحمه الله — أنه لما التمس له الرتبة المشار إليها . سعى
أحدهم في إظهار صدر الخديو عليه . ليحول دون صدور البراءة . فاقبلت نياً
السعاية بأديب إسحاق — ولكن مريضاً ملازماً قرائشه — فهب على الفور متأثراً
منغلاً ؛ يتألم المرض والضعف ؛ وجاء إلى إدارة المطبعة التي كانت تطبع فيها
جريدة « مصر » ؛ فقرأى الجريدة تحت الطبع ؛ فاستوقف طبعا . وكتب في
بضع دقائق مقالة عنوانها « الجلاسوسية » . جاء فيها قوله : « أو ما رأيت فيمن
رأيت دمياً قيثاً مسيحياً ضائع نور الحياء . فاضرب ماء الوجه زانغ إنسان العين

محاول حفدة اللسان . سريع حركة القدم ، حرباوى لون السحنة كلبى الطباع فيها
عدا الأمانة ، خنزيرى النفس ؛ يرى فى الساعة الواحدة على عشرة أبواب ،
وينطق فى اليوم الفرد بمائة لسان ساعيا إلى زيد بما يقول عمرو . وإلى عمرو بما
يفعل زيد . وإلى عابد بما يقول ويفعل الإثنان متجسسا الكلى فى الكلى على الكلى
كاذبا مداهنا مواربا ، غتالا غالبا ، غتالا مناهقا ، مقتالا أمراض الكلى ، كاسبا
مستورنا ؛ ساليا غاضبا ضاحكا من الكلى . لهذا المسخ من تزللات إبليس أخواه
الله بين عباد الله . فإن رأيت بين أقدامك ، فارفع أطراف الثوب عنه ، وإن مسه
لفظه مزرجسه تطهيرا ، ثم ارمه ببحر الاحتقار ، إنه الكلب الأجرى ، فلا تغش
منه هديرا . . الخ (١) .

تلك حادثة بسيطة ، وهى مع بساطتها تصور لنا جانبيين من جوانب أديب
إسحاق : أحدهما العنف الذى جبل عليه وأضر به . والثانية الموهبة الكتابية التى
كانت تطارده . وتحمده أحيانا بقوة غريبة ، يتغلب بها على المرض والضعف .

وهكذا كان أديب فى الواقع قاسيا على نفسه طول حياته . ومن الناس
من يعملون على أنفسهم ، ويتكثرون على أصابعهم ، إلى حد يودى
بصياتهم ، ويصورهم الناس بصورة النار التى تأبى إلا الإحراق ، أو يتم
إخمادها ، أو تصير رمادا .

وأخيرا فكر أديب إسحاق - أو على الأصح أشير عليه بذلك من الجهات
العليا - أن يترك العمل فى الجريدة ، ليتفرغ لهما منصب ، فأحال امتيازها لأخيه
هوئى إسحاق ، وكتب يومئذ يودع جريدته ، فقال :

« قفى وحمينا قبل وشك التفرق »

وإن كنت أرجو الحياة إلى حين تلتقى ، فما بعدتك اختلافا إلى سواك ، وما
فارقتك انحرافا عن هواك ، فأفنى :

(١) انظر القدر لليون إسحاق طبعوت ص ٢٤١

خلقت أروفا لو رجعت لصقي لفارقت سقبي موجع القلب باكياً (١)
فكيف وأنت الحديقة التي غرست فيها غصون آدابي ، وبذلت ماء شياي ،
وأنتفتحت دبنار قوتي ، وعرفت مدخر صحتي ، حتى نمت هاتيك الانحصان ، وصار
عليها من كل فاكهة زوجان ، وأنت الطريقة التي أدرعت في سلوكها الليل ، وشمرت
لها الدليل ، وهدت بها التقدم خوض الأهوال ، وعلمت النفس اقتحام الأوحال ،
حتى سهل الصعب عندها وهان ، فلحقت بمنزلة أهل العرفان وأنت الصديقة التي
واسقتني في الضراء ، وزادتنى فرحاً في السراء . وعرفتني العنجر في الوحدة ،
وأزالتني الكدر في الشدة ، حتى اجتبتني صروف الحدثان ، ولم يبق الخوف
في القلب مكان ، وأنت الرفقة التي ألقتها والعمر في نضرتي ، والشباب في مبتدأ
نوتي ، فلزمتني في الإقامة ، مع الهناء والكرامة ؛ وصحبتنني في القرية ، أيام العناء
والنسكة ، حتى عاد لنا الزمان ، بعد البعد والهجران .

ولكنها خدمة حبست بقية العزم عليها ، والتزمت الانقطاع إليها ، وهي من
لازم الوفاء ، وهي حق واجب القضاء ، على أنها من تمليكاتك في المقصود منها ،
ومن مظاهره في التأني . هنا ، فهي أنت ولكن نغير الاسم ، وأنت هي ولكن
تبدل الرسم . فبلى — ياربك الله — أولياءنا المحسنين ، ونصراءنا الخيبرين ،
سلام محب يذكر نعمتهم ، ولا يعمل إن شاء الله خدمتهم :

وإن تذكر أياماً بها سلفت يقول بالله يا أيامنا هودي (٢)

وقامت الثورة العراقية في مصر ، وكان أديب إسحاق يتصل بجريدته من حين
لآخر ، ويحرق فيها مقالات شتى ، وهنا قد يجب الباحث من أن أديباً كان إذ
ذلك من أصحاب الدعوة إلى الاعتدال في طلب الحرية ، وأن ذلك أسخط عليه
رجال الثورة العراقية ، ومنع جريدته من أن تكون لسان حالها : واستماض
التوار يومئذ . . . بصصف أديب إسحاق صحفاً أخرى أهمها : جريدة «المفيد»

(١) حيث الكاتب يبيت شعر المتنبي يقول فيه :

خلقت أروفا لو رجعت إلى الصبا لفلقت شيبى موجع القلب باكياً

(٢) أظهر العدد من ٣٨٦ - ٣٩٠

وجريدة « الطائف » . بل إن جريدة المفيد كتبت في عددها الصادر بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢ بعنوان « الجرائم الشامية » تقول :

« وكل من جريدة الأحوال والمحروسة ومصر أناثا أصحابها وجيوبهم أفرغ من فزادهم من الوطنية التي ادعواها ترويحاً لقاصدهم ، فأنشوا بين أيدينا جرائمهم ودعوا باسم الوطنية والخدمة الإنسانية والحال في سكون . فلما ارتبكك الحال قطعوا ألسنة جرائمهم ، ودجسوا إلى بلادهم بحر الحقائق (١) . فقمم الأحباب لازمونا في الحناء . وفارقونا في الشقاء . وهكذا أخذت جريدة المفيد تهاجم الصحافة السورية في مصر ، فاضطر كثيرون من السوريين إلى الهجرة من مصر . وساء ذلك جريدة « الطائف » . فراح تمالج الموقف وكتبت مقالا بعنوان « المصريون والشاميون » ، سمت فيه هجرة السوريين إلى بلادهم نزوحاً سيمودون بعده إلى مصر بسلامة الله (٢) .

وكن من أثر هذه الحوادث أن قطع أديب إسحاق - وهو موظف بالحكومة المصرية - كل صلة له بجريدة مصر . ولم يبق من الصحف السورية يومئذ جريدة (المحروسة) لصاحبها سليم النقاش . إذ بقيت هذه الجريدة الأخيرة موالية للحكومة (٣) حتى عطلها عراقى حوالى ثلاثة أشهر . وأخيراً هاجر أديب إسحاق إلى بيروت في جملة من هاجروا إليها من السوريين . وهناك نولى تحرير جريدة (التقدم) للمرة الثالثة في حياته . وهناك أقم أديب إسحاق بطبع رواية « الباريسية الحناء » . وكان قد ترجمها في أوائل صباه .

وبعث أديب إسحاق وهو في بيروت بقصيدة طويلة إلى شريف باشا وهو رئيس الوزارة المصرية التي أسقطها الثوار . وتلتها وزارة محمود باشا ساعياً

(١) كناية من امتلاء جيوبهم بالمال .

(٢) جريدة الطائف في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٢ .

(٣) كانت المحروسة لناديال شريف ثم عمر لطفي الذي كان محافظاً للاسكندرية منذ حدوث الاضطرابات بالاسكندرية في ١١ يولية سنة ١٨٨٢ وهي الاضطرابات التي أبت حياة عمر لطفي وأنه كان ضالماً مع الحديو والإنجليز .

البارودي . وفي هذه القصيدة يصف لنا أديب إسحاق حوادث الثورة العراقية .
وعامة ما وقع منها في عام ١٨٨٢ . ونفى بذلك حرب الإسكندرية في الحادي
عشر من شهر يوليو من تلك السنة . ومن هذه القصيدة قوله :

ه حج بي على تلك الطلول وتاد
هل صادم شرك الودي فأبادم
ما غادروا الأوطار في أوطانهم
ومنها .

يا وارد الإسكندرية طامعا
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت
كانت مرائع نعمة ففدت وما
فأبادها جمل غنى ما بدا
جمل الذي رام الأمانى وهى فى
وغدا وما لقي الثعالب عمه
وسى إلى الثورى ولكن خالما
شقيت بذلته الخسوح وطالما
وتلاه فى سبيل الفؤاد معشر
غرسوا الجنابة فى الجنون فاجنوا
خلعوا الثمار المستعار من الحيا
فأنام وعده المدافع مبرقا
وسلوا على المستأمنين حياة
ورموا بنادم الديار ويدوا
نكر عرفنا منه أن لبعنهم
وقيصة يسى بها أنبأهم
إلى أن قال :

يا مولما من ساعة مرت بما
ذهبت به الأرواح من الأجساد

نشروا عراة واجفين فيومهم يوم الميعاد أتى بلا ميعاد
والنار موقدة سرت من خلفهم فكأنها حيات بطن الوادى
والجند شردم قتال صدوم فرقا فلم يتجملوا لجلاد
فهم اللصوص وإنهم قد أوموا أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد
وبلادهم قد نالها من عارهم ما لم يحق في عهدنا ييلاد

والقصيدة طويلة نكتنى منها بهذه الآيات التى وصف فيها الشاعر هذا الحادث
وبكى مدينة الإسكندرية بعد إذ تعرضت لقنابل الإنجليز ، وسخرية الشاعر سافرة
في أكثر قصيدته من الرايين حيث قال :

جمل الذى رام الأمانى وهى فى قم الجبال وكان دون الوادى
كما أظهر الشاة بهم وبرصهم حين قال :

شقت بولته الجوع وطالما أشقت جموعا زلة الأفراد

كما وصف الشاعر هول تلك الساعة الرهبة : التى فر فيها جند عربى من وجه
الإنجليز . وأسأوا فى طريقهم إلى كل من قهيم من المصريين :

والجند شردم قتال صدوم فرقا فلم يتجملوا لجلاد
وتنذوا على هذا السيل بواترا فى الحرب ما نصبت من الأغراد

وأخيراً قذف الرايين بقوله وقد أساء فى حقهم إساءة بالغة :

فهم اللصوص وإنهم قد أوموا أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد

ومهما يكن من شيء فهو رأى رجل سورى فى الثورة العربية ، ولنا
فى مقام الحاسبة له أو لرجال الثورة ، ولكنا فى مقام العرض لهذه القصيدة التى
نظمها يومئذ ، وهى كما رأيت قصيدة رجل محقق شديد الفيط قد شئ بعد غيظه
إخفاق هذه الثورة ، والتبعض على رجالها ، وإن كان قد آله ما انتهت إليه من
احتلال الإنجليز مصر ، واحتلال الأمن بها ، لولا حرم قمر من عقلائها
كشريف باشا الذى أهدى إليه هذه القصيدة وقال له فى نهايتها :

عبث فلولاً الساجون ومجدم ويقاء من ولوا من الأجداد
ومؤيد ملك أمروء عادل أربي بمفرده على الأعداء
وصباه كانت قلائد فضلم أبهى من الأطواق في الأجداد
لم تلق في مصر ومصر عزيرة من قاتل : هاشى البلاد بلادى

واشدت علة الصدر على أديب إسحاق وهو في بيروت ، فأشار عليه أطباؤه
بالذهاب إلى مصر مستشفياً ، فالتس الإذن بذلك من الحكومة المصرية ،
فأذنت له ، وأقام بالقاهرة أياماً قليلة ، ثم عاد إلى الإسكندرية وأقام فيها أياماً
بمحطة الرمل ، لانتاس العافية ، ولكن ضاقت عليه سمة العمر ، فلما لم يرج
الأطباء له شفاء أقنعوه بالعودة إلى أمه في نغرة بيروت . فعاد إليها . وذهب إلى
مصيفه في الحدث « بجبل لبنان » ، ولم يمض على عودته ثلاثون يوماً حتى توفاه
الله خير متجاوز من العمر تسعة وعشرين ربيعاً ، « كلن رحمه الله طويل القامة
والعنق مع انحناء قليل ، أبيض اللون . براق العينين ، عريض الجبهة بارزها ،
جهمودى الصوت ، طلق اللسان ، نبت الجنان ، لطيف الحديث ، ذكياً نبهاً ،
مقدماً حاد الذهن ، أبن النفس ، سليم القلب ، حسن الطويقة » .

وكان زهرة الأدب في الشام ، وريحانة العرب في مصر ، لو فصح الله في
عمره لخدم الأوطان خدمات قل أن يستطيع سواء مثلها الخ .
قالت مجلة الهلال في نهاية تأييده :

« وإنما يؤخذ عليه رحمه الله تسامحه في طرق معاشرته ، وإطلاق هوى
النفس فيما تسوق إليه الشهية حتى أثر ذلك في مزاجه ، وعجل منيته ، فقصفت
غصناً طريفاً لم يبلغ ثلاثين ربيعاً ، ولاربيب عندنا أنه لو عمل بالقانون ، وأصنى
لنصيحة الشيخ الرئيس ، لعمر طويلاً ، وخدم الأوطان خدمات قل أن يستطيع
الناس مثلها ، وفيه في عبادة حكمة لا تتركها العقول .

وهكذا رثته الصحف في مصر والشام ، ورثاه رجال الأدب على اختلافهم
رثاء حاراً لا يتسع المجال هذا لوصفه ، أو للإلمام به .

الفصل الثالث

أسلوب أديب إسحق

من قراءة حياة أديب إسحاق نعلم أنه كان مثقفاً بالثقافتين العربية والفرنسية، تعلم مبادئهما بالمدرسة، ثم ترك وشأنه فهما، لخدمتهما بمجده الشخصي، وذلك بأسرع ما لو كان بالجامعة حيث المنهج والأنظمة، ومحببتنا أن نعلم أن أديب إسحاق قام بترجمة روايات فرنسية كثيرة، كراوية، أندروماك، ورواية وشرلمان، وهو بعد لم يتجاوز العشرين من العمر.

والحق أن بينه وبين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فروقاً من نواح عدة: منها الثقافة، والخلق، والمزاج. فأما من حيث الثقافة فأديب إسحاق يحذق العربية والفرنسية، وله كتابات ومؤلفات قهها معاً، على حين أن الشيخ محمد عبده لا يعرف غير العربية، وأما من حيث الخلق فأديب إسحاق أدنى إلى التحلل من القواعد الدينية، في حين أن الشيخ محمد عبده رجل ورح القلب فنى النفس شديد الفيرة على الدين وآدابه كما سنعرف. وأما من حيث المزاج فأديب إسحاق رجل نائر الأعصاب، سريع الهياج، في حين أن الشيخ محمد عبده هادى، بطيخ، لا يحتاج إلا إذا اتصل بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى كما سنشرح ذلك فيما بعد.

على أن هناك فرقاً أم في نظرنا من جميع الفروق المتقدمة، وهو فرق من ناحية الأسلوب. ويمكن أن يتلخص هذا الفرق في كلمة واحدة قلنا تفصيلها فيما بعد، وهى أن أسلوب أديب إسحق أكثر جمالاً من أسلوب الشيخ محمد عبده. وهما بعد يتفقان في قوة التأدية. ومصدر الجمال في أسلوب أديب إسحاق أشياء كثيرة، منها سرعة الانفعال عند هذا الشاب، مما يجعل أسلوبه إلى طبيعة الشعر أدنى منه إلى طبيعة النثر؛ ومنها تلوين الكلام عنده بالمحسنات اللفظية والمعنوية، مع قدرة ظاهرة على هذا التلوين في غير تكلف محقوت ولا صناعة مرذولة ومنها الثقافة الأجنبية، وهى التى زودت أديب إسحق بالمعاني التى لا سبيل للأستاذ الإمام (م - ٣ - أحب للقالة ج ٣)

إليها . وباختصار نرى أن أسلوب أديب إسحق يلد الأدب أكثر من الصحفي . وربما كان الأمر على عكس ذلك بإقياس إلى أسلوب الشيخ محمد عبده .
وعما تقدم أيضاً في توجة أديب إسحق نعلم أنه كتب في المصحف الآتية :

- (١) صحيفة التقدم ببيروت (١) .
- (٢) صحيفة مصر الفتاة الصادرة بالإسكندرية عام ١٨٧٩ (٢) .
- (٣) صحيفة مصر الصادرة بالقاهرة ثم الإسكندرية .
- (٤) صحيفة التجارة بالإسكندرية .
- (٥) صحيفة مصر القاهرة . الصادرة بإديس سنة ١٨٨٠ .

جريدة النور :

فأما جريدة التقدم فلم تكن له ، وإنما تولى تحريرها ثلاث مرات في حياته :
الأولى قبل سن العشرين يوم أثر العمل في الصحيفة على المضي في مزاولة العمل
بالمرك . والثانية بعد عودته من باريس وإنشائه جريدة (مصر القاهرة) فيها .
والثالثة بعد عودته من مصر عقب قيام الثورة العراقية ونشوب الفتنة بين المصريين
والسوريين . ولم نستطع نحن للأسف أن نحصل على نموذج لأديب إسحق من
مقالاته في صحيفة التقدم حين كان يتولى تحريرها للمرة الأولى ، وإن كنا
نرجح أن أسلوبه في هذه المرحلة كان أميل إلى السجع ، وأكثر نكلاً
للمحسنات اللفظية .

ولكنه حين تولى تحرير التقدم للمرة الثانية كان أسلوبه قد تكون وتكامل
في مصر ، وازداد في باريس قدرة على توضيح أفكاره ، ومسايرة انفعالاته .
فلما أتى إلى بيروت كان يشارك في إصدار الجريدة مرتين في الأسبوع . وإذا ذلك
قال في مقدمة العدد الأول من أعدادها :

النموذج الأول

و تملد مظاهر الوجود في السكان الموجود ، فيتدرج في مراتب الكمال بما له

(١) انظر متعديت جريدة التقدم في كتاب النور ص ٢٧٢ .

(٢) انظر متعديت جريدة مصر الفتاة في كتاب النور ص ١٢٤ .

من معدات الكون والبقاء ، والحركة والنماء ؛ فلا تأسف على الحبة مدفونة في الأرض شتاء ، إنها ستنبث نامية تتوجاً (١) ، ولا تبك على الشجرة مجردة في الحريف ، إنها ستبدو في الربيع خضراء تسر الناظرين ، ولقد أتى على هذه الصحيفة حين من الدهر دفنت فيه حبة قصدها ، وجردها عن نفعها بما طرأ عليها من حوادث الأيام ، وعاديات الحداث . ثم تحلت بهذا المظهر ، ولم تنفأ من العدم البحت ، ولم تبد بعد المخو المطلق ، ولكن تجمعت من الحياة ثوباً جديداً فهي الآن رسوا رجائنا إلى الذين عرفنا من أحياء الأدب ؛ تصدر إليهم يوم الإثنين ويوم الخميس من كل أسبوع ، مشتملة على المهم من أخبار السياسة ، والراجع من آراء ذوي النقد ، والنافع من شذوذ الأدب ، والمأثور من خطرات الآلآباب ، تجمع فيها السياسات تحصيلاً ، ونبسطة الأدييات تفصيلاً ؛ لا نسود منها بالرياء وجهاً ، ولا نعللها بسفاسف القول وطاباً . وإن سطرأ عما يؤلف بين القلوب خير من فصل عما يختلف عليه الآراء ، وإن كلمة عما تدعو إليه الحكمة ، لا نفع من كتاب عما تبك عليه الأهواء . وقد اخترنا لها ما يرى في هذا المثال من الترتيب والتبويب ، معولين فيه على عدوية المورد ، وسهولة المقصد ، وجودة الإيضاح ؛ لا تسكلف لجميع ذلك إلا الإلهام ، ولا نعتد غير تقدير المعاني في الإلهام ، من أقرب وجوه الكلام . وما ندعى في هذا الأسلوب كالا ولا إحساناً . إن هو إلا جهد مقل ينطق من غيرة وإن قاته العلم . ولو قيل كل امرئ ما يستطيع من منفعة لما رأينا على سطح الأرض شقياً . فإذا بلغنا المأمول من القبول ، قتلك يد عندنا لذوى الفضل والحلم ، من أهل العدل والعلم . ولا نحسبنا من المند بذل الجهد ، ومن التأساء (٢) حسن التقصد ، مقتضياً علينا بالعجز ، ولا نرجم محكوماً علينا بسوء النية ، نعرف بالضعف في جملة كثير من الأنام ، ولا نؤى بنقص القادرين على التمام ، على أننا في أيام ليست كالأيام ؛ وموقف ضحك المقام .

د نعم . إن دولتنا المليية ، حقق الله بها آمالنا وأصلح بعنايتها أحوالنا ، قد وضعت للطبوعات قانوناً ليناً في غير ضعف ، ووازعا في غير عنف ، يؤمن

(١) التوج : التي حان نتاجها .

(٢) الاعتداء .

المستمع بعروة الحق والصدق ، ولكنتنا بين أمور عظام ، ومشاكل جسام ، لا ينبغي في مباحثها حسن النية ، ولا تكفي سلامة القصد ؛ فربما انحبس عنا القول من حيث لا نعلم فمالا ، وربما ضاق علينا المجال من حيث نرى مجالاً ،

« بل لا ينبغي القول ، ولا يضيق المجال إن التقدم أنصاراً من أهل الفيرة العلمية ، وأولياء من أهل النجدة الأدبية ، لا يرضون عليه بما يجدون من فرائد فوائدهم ، وفواضل أفضالهم ، وليس ما يجدون من ذلك قليلاً .

فانظر كيف بدأ مقاله الافتتاحي بقوله « تعدد مظاهر الوجود في الكائن الموجود » معبراً بذلك عن عودة (التقدم) الظهور .

ثم انظر إليه كيف ساق هذا التلخيص المحسوس الذي يدل على أنه أديب ، وهو قوله « فلا تأسف على الحبة مدفونة في الأرض شتاء ، إنها ستنبث في الصيف نامية تتوجأ (أى كثيرة الإنتاج) الخ .

ثم انظر إلى الكلام الذي يورده الكاتب موارد الحكم كما في قوله « إن سطرأ ما يؤلف بين القلوب لخير من فصل ما تختلف عليه الآراء » ، وقوله « إن كلمة ما تدعو إليه الحكمة لأنفع من كتاب ما تبحث عليه الأهواء » وإلى قوله « ولو فعل كل امرئ ما يستطيع من منفعة لما رأيت على سطح الأرض شقياً » .

وانظر كذلك إلى التضمين في قوله « ولا نرى بتقص القادرين على التأم ، وإلى ختامه في قوله « نرحم مقضياً علينا بالعجز ، ولا نرحم محكوماً علينا بسوء النية » .

مهما يكن من أمر فإن مقالات الكاتب التي كتبها في جريدة التقدم ببירות لانيننا كثيراً بقدر ما تمنينا مقالاته التي كتبها في صحفه بمصر ، وأهمها فيما نعلم صحيفتان ، هما : (جريدة مصر) التي قلنا أن مقرها كان بالقاهرة ، ثم انتقل بها إلى الإسكندرية ، و (جريدة التجارة) التي جعل منها رداء لجريدته الأولى واختار لها . غير أن هذه الأخيرة لم تدم لصاحبها كثيراً إذ عطلت بعد العدد الخامس عشر من أعدادها ؛ بسبب المقالات الثورية التي كان يكتبها أديب بنفسه في هذه الجريدة .

ولقد كان الموضوع السياسي الهام الذى يشغل بال الصحافة المصرية فى تلك الفترة ، ذا شقين : الشق الأول يتصل بالسياسة الخارجية ، وأم ما فيها الحرب الروسية التركية ، والشق الثانى يتصل بالأحوال الداخلية المصرية ؛ وأم ما فيها مسألة الدين ، وهى المسألة التى صطت بتدخل الدول الأجنبية ، ومكنت إنجلترا وفرنسا من الإشراف على مالية البلاد ، وجاءت روسيا تزيد العلين به ، وطلبت خراج مصر رهناً تسدد منه تركيا غرامة الحرب . فكشبت الصحف المصرية فى كل ذلك ، وكشبت فى موضوع الحرية ، كل بطريقتها الخاصة ، وكانت طريقة أديب إسحق فى ذلك الوقت تقوم على وصف الحريات التى تتمتع بها الدول الغربية ، وكانت ثمرة لمهادها فى سبيل الحصول عليها .

جريدة مصر ^(١) : سنة ١٨٧٧ (٣٠ يوليو : تاريخ صدور العدد الأول) من أجل هذا كتب أديب إسحق فى جريدة مصر عام ١٨٧٨ — أحنى بمد مرور سنة تقريباً على إنشاء هذه الجريدة مقالاً بعنوان (الملك والرعية) تحدث فيه عن الملك الاستبدادى والملك الشورى ، ليصل من ذلك إلى السخرية بنوع الحكم الروسى ؛ ثم قال :

النموذج الثانى

« ولم يكف الروسية بقاؤها مستبدة على حين تحول سائر الدول إلى الشورى ، حتى كانت سبباً فى توقيف غيرها عن ذلك التصد النبيل ، فإنها قد منعت الدولة العثمانية حيناً عن إنجاز ما شرعت فيه من إصلاح دخليتها وتنظيم شوراها بهذه الحرب العنيفة التى دعا إليها الغرور . على أن الدولة العثمانية لم تكن لينتها من ذلك مانع ، فإنها لم تهمل ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها الخ » .

إلى أن قال « وغاية ما أدرجه أن أرى حكومة الدولة العثمانية حكومة شورية ، والله أسأل أن يؤهلنى لصنع الخير فى قوى ، ويجمع على محبى قلوبهم ، ويعيننى على أن أقم فى بلادى بعد هذه الحرب الظلمية ، حكومة جيدة تضمن لها مستقبلًا حسنًا » .

(١) كانت جريدة مصر أسبوعية . وأما عقيدتها (التجارة) فكانت يومية ، وصدر أول عدد من أعدادها بتاريخ ٢٣ مايو سنة ١٨٧٨ .

وأثنى أديب إسحق في هذه المقالة ثناء مستطاباً على السلطان . وكان يصدر في جميع مقالاته في الواقع عن ولائه له ، ونظرة إلى كل «عصرى وسورى على أنه عيان» .

ثم كتب أديب إسحق بعد ذلك في (الحرب) ، وفي (جرحى الحرب) ، وفي (إغاثة الجرحى) ووثق هذه المقالات بالأشعار والمقابلات ؛ فن الأشعار التي استفيد بها قوله .

الفردج الثالث

الحرب أول ما تكون قتية تسمى بزيقتها لكل جهول
حتى إذا حبت وشب شراها عادت صجوراً غيد ذات خليل
شطاء جزت وأسها وتنكرت مكروهة للشم والتفيل
ومن هذه الكلمات في وصف جرحى الحرب قوله :

في سكرت أرمضت فيه بروق المرمفات ، ولعلمت رصود المدافع قتلتها غيوت
السكرات ، وسكرت السيوف بغير من الدم ، لمهربت في الرؤس . وعقد العشير
ملك الموت سرادقا مطنيا بالقتنا والخيول ساغبة تقبل نقالا ، وتمود خفافا ، وكأنها
وقد أعيهاها الفارس حيا فخصبت على الإنسان قداسات هامة اتقاما . وقد
استحييت الشمس من خشوة الإنسان فاحتجبت بحجاب الضباب ، وتلملمت
الأرض من أعماله لزلزل زلاها ، وكادت تخرج أقالها ، فارتعد الرعديد ، وثبت
الصنديد ، ونادى منادى الحرب من فر من الموت وقع ، ومن كان ينوى أهله
فلادجج ، طريح على الأرض جريح ذو كبد حرى ، يستجير بإحدى يديه وفوق
السكبد اليد الأخرى ، يذكر خلية أو دحلية ، آله فراقها مع أمل الرجوع ،
فما الظن به وقد اختفى نور ذلك الأمل ، ووالدة تألمت به حينئذ وأرضعته طفلا ،
ودبته يالها ، وسهرت عليه حلا . والبدأ واساه في كتابته ، وسلاه في حزنه ،
وتوجه له في مصابه ، ثم تنجل له الدنيا بزخرفها وزيتها . فيرى مرير عذابها
حلوا ، وكدر مشاربها صفوا . فهذا هو الإنسان الجريح بسلاح الإنسان ؛
المطلوبة مساعدته من الإنسان (١) .

النموذج الرابع

ثم كتب أديب إسحاق فصلا بعنوان (الأمة والوطن) . وآخر بعنوان (حرية الأفكار) والآخر موضوع الثورة الفرنسية ، بدأه بقوله :

أرى خلل الرمد وميض نار ووشك أن يكون لما ضرام

بل هي شعلة إصلاح كانت في كون النهر في عالم الضياء والنور . فساقتها يد الحكمة بمعدات الحركة إلى عالم الظهور ، وسرت في أوروبا من جانب الغرب الأقصى ، وكنت في ماوراء المائش أياماً وأعواماً ، متتقة من صورة إلى صورة ، ومن كيفية إلى كيفية ، حتى أعدت لها طريق البروز ، فظهر ضرامها بعد الخفاء ، وانجبت منها جرائم الضياء ، فضيرت هيئة الأرض ، وحالة الناس . وطهرت ذلك الجانب من الأرجاس : تلك ثورة الفرنسيين التي إلى أن قال وإنما

نرى خلل الرمد وميض نار ووشك أن يكون له ضرام

فإن النبلست في الروسية ، والسويالست في ألمانيا ، طامعتان قد استفحل أمرهما وعظم شأنهما ، وحسبك أن فتاة من النبلست يقال لها (ساسولتش) قد تجاسرت وهي في أرض السلطة ، تحت سماء السطوة ، أن ترمي إلى الشرطة بالوصاص عدداً . وأنه قلم لها بين قومها نصراء وعامون ، وشغفاء ومدافعون ، وأن فتى من الطائفة الثانية يسمى (لمان) قد تجرأ وهو في أرض القوة تحت سماء العظمة ، أن يرى الملك الفائح الكبير بالوصاص ثلاثاً ... الخ ...

ثم أراد السكائب أن يقول إن الشجعة التي استضاءت بها الثورة الفرنسية قد انتقلت إلى الشرق موطنها الأول ، ولكنه عبر عن ذلك بطريقة أدبية شاقة هي طريقة التسكنية ، التي اضطرت إلى الشرح في غضون المقال ، وذلك حيث قال :
و ثم ذكرت تلك الشعلة وطنها القديم ، لحنت إليه ، ولا غرو أن يحين الغريب إلى وطنه (نقي الشرق) مقر جرائم الحركات الدينية والسياسية التي ظهرت هيئة الأرض ، وأحوال الإنسان ، فسرت إليه نفيه غافله ، ونفقه جاهله ، وظهرت في بلاد (أهورا ماذا) بين أبنائه (زودشت) تحت سماء العقاليد (نريد بلاد الفرس) فإن مذهب البابين نسبة إلى السيد علي محمد الملقب (باب

المهدي) قد ظهر في تلك البلاد منذ نحو ثلاثين سنة ، وعلق بقلوب الناس قتمذهب به جمع كثير منهم ، وأناروا الفتنة على الحكومة .

وعلق أدب إسحق يذكر ما يعرفه عن أخبار هذه الثورة الأخيرة ، قائلا إنه إنما يستمد جميع ذلك من بحر معارف أستاذنا الكبير الفيلسوف الشهير ، درة تاج الحكما ، وواسطة عقد العلماء الفضلاء ، السيد جمال الدين الأفغاني نزيل المحروسة .

ومعنى ذلك إذن أن هذه المقالة الأخيرة إنما هي من وحي السيد جمال الدين . ورأينا له - أي لأدب إسحق - بعد ذلك مقالات أخرى في جريدة مصر بعنوان (أماني وطنية) بعنوان (توفيق مصر) وأكبر الظن أنه قصد في هذا العنوان الأخير إلى التورية ، وفي هذا المقال أثني أدب إسحق كثيراً على ولي العهد الأمير توفيق ، وأتى بهذه العبارة التاريخية التي تفسر له حقيقة العظمة في نظره حيث قال :

النموذج الخامس

« فن لنا بذى حمة عليّة . وقس ذكية ، ينصب قسطاس العدل في محكة الإنسانية ، ليعلم الناس على اختلاف مراتبهم ، وتنوع شأربهم . أن من أصلت سيفه ، وأعلن شره ، وقاد الرجال ، وسلك بهم مسالك الأهوال ، لحطام ينتهزه ، أو تار يدركه ، أومقت يقوده ، لجمل رؤوسهم صوامع تصلى عليها رهبان الغربان ، وأجسامهم مطاعم للعقبان ، لا يقاس بمن أصلح من قومه ما قس . ودوج من أحوالهم ما كس ، ورضى من الأجر ، يحصلوا الخير ، ومن المنعم اندفاع الشر . وإن الإسكندر بجده اللامع ، وصيته الشائع ، لا يقاس بسنسانتوس الأكار الروماني الذي انتخب قسلاً لجمهورية رومه عام ٦٤٠ قبل الميلاد ، فنهض بأعباء الخدمة ، وحى أطراف الدولة والأمة ، ولما أتى من ذلك على مافي الرغبة والنية ، عاد إلى مهنته يطلب منها رزقه . ثم ألت بقومه الأخطار ، فانتخبوه لحكومتهم رئيساً . وذلك عام ٥٨٨ قبل الميلاد ، فدفع الأذى عنهم ، ورد الراحة إليهم ، ورجع إلى شأه الأول لسته عشر يوماً من رياسته . وفي عام ٤٣٨ انتخب مرة ثالثة لرئاسة الجمهورية . وقد مر من عمره يومئذ ثمانون عاماً . فنهض بأعبائها ،

وأصلح خلقها . ووجد بها نظام الأمن والراحة ، ثم استقال منها لواحد وعشرين يوماً من صيده بها . ومع ظهور قنفه ومزيتة في ما أجرى ، لم يقبل منه مكانة ولا أجراً !!!

فأجدر مثل هذا الرجل بالثناء والإكرام ؛ وما أولاده بالإطراء والإعظام ، بل ما أظهر الشبه بينه وبين ولي العهد توفيق مصر أعزه الله ، في ظل الجناب الوالدى الخديوى ، حفظ الله وجوده وصان علاه .

إلى أن قال : وكيف لا يمدون الله وقد خصهم بمليك :

”ذكر الأنام لنا فكان قصيدة“ وهو البديع الفرد من أبياتها وأمره :

رأيت جميع الناس دون الله فأيقنت أن البحر للناس ناقد
ثم قال :

وقد علم قراء صحفنا أن ليس من شأنا الإطراء استعداد ، ولا الوقعة افتراء . وإنما ننظر إلى الفعل لا إلى فاعله ، وإلى القول لا إلى قائله . فإنه ليس وراء الصدق رغبة ؛ وليس بعد الكذب ضعة ، والحق ملك لا ينكسر لواؤه ، وإن قل أولياؤه ، فإن لم يشرب هذا الماء على صفائه . ولم يلبس هذا الثوب على بهائه . فرب نفيس رعى به من حائق ، ورب حسناء طاق وقد جاء في الأثر الكريم (من نشر معروفًا فقد شكره ، ومن ستره فقد كفره) .

إذا أنا لم أشكر على الفضل أهله ولم أؤتم الوغد القبيح المذموم
فقيم عرفتي الخير والشر باسمه وشق لي الله المسامح وأهله ؟
وفي جريدة مصر أبل أديب إسحاق بلاء حسناً في النفاذ عن المصريين
حد الامتيازات الأجنبية . وما كتب في ذلك فصل قيم عنوانه (أمانى) وجاء في بعض هذا المقال .

النموذج السادس

ولا ريب في أن امتياز بعض الناس عن بعض في وطن واحد ، يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حاساً ومعنى . ووجه الضرر الأول أن معاملة سفلة الإفرنج

بما لا يعامل به وجوه الوطنيين ، من الإكرام لغيره ؛ والمعروف عن الذنب الواضح ، قد يشتم على الفرد ، فاعتسفوا وأفسدوا ما شاءوا ، بحيث لم يحض علينا يوم لم نسمع فيه بأن فلاناً الإيطالي أو المالطي ضرب وطنياً بخنجر ، لحمل المخرج إلى المستشفى ، والمخرج إلى دار قنصله ، فأودع فيه غرفة رقيقة يأكل بها عيشه رغداً هنيئاً . ثم لم يلبث فيها أن أطلق ، فازداد بما أكل شرهاً ونهماً . وعاد إلى مثل حاله السابقة ، وأما وجه الضرر المعنوي فهو أن اضططاع منزلة الوطنيين ، وانخفاض جناح ذلهم بالنسبة إلى الأجانب ، يولد فيهم الحسد والكسل ويشرب قلوبهم التيب والخوف ، فلا يحتملون الرعائب ، في طلب الرغائب .

وقد حان لهذه البلاد أن تلتئم من عثرتها ، وتفلت من ربقتها ، بعد أن ضربت عليها الذلة ، وتطامن أهلها لرق صاغرين ، مئات بل ألوفاً من السنين ، حتى ضربت الأمثال بطاعتهم العمياء ، للآمراء والزعماء ، وكيف لا — وهم الذين احتملوا ظلم القراصنة ، وقوة الرعاة . وصف اليونان ، وجور الحاكم بأمره الذي لعب بهم لعبة الكرة والصولجان . . ثم صبروا بمسد ذلك على صتو المالك وجندهم ، وناهيك به صبراً لا تحمله الجمال ، بل لا تقله الجبال ولا تحمد على ذلك .

فصاية المفرط في سلمه كفاية المفرط في حربه وأنا لنحلمهم عن أن يكونوا قد ألغوا الدل فرضوا به ، أو عافوا أن يكون الإكداء مع الكسد ، والخبية مع الطلب ، فقالوا إن رزقنا سوف يأتينا نسعى له فيجهدنا ، ثم نسكن فيأتق ولا يعنينا الخ . . .

والظاهر إن هذا المقال الأخير الذي كتبه أديب إسحاق كان من وصي السيد جمال الدين ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، لأنه من معيشه ، وعلى طريقته في تأدية هذا المعنى .

وحين انتقل أديب إسحق بحريدة (مصر) إلى الإسكندرية ، سار على هذا النهج ، وكتب بهذا الروح ، وصدر عن هذه الثقافة الأوروبية الواضحة .

بهريرة مصر القاهرة :

ثم انتقل الرجل بهريته (مصر القاهرة) إلى باريس وهو على الحال النفسية التي أشرنا إليها ، فأخذ يكتب المقالات الحادة التي منها مقال له بعنوان « السعادة بعد الشهادة » ، جاء فيه قوله :

الفؤجج الساج

« الحمد لله وحده ، هذه صحيفة مصر ، طواها الاستبداد فانت شديدة ، ثم أحيتها الحرية فهاشت سعيدة . ترسل إلى المريدين والأولياء ، ونهاه القراء ، منية إليهم أن قد آتاني الله نعمة الحرية ، ومن أوتي هذه النعمة فقد أوتي شيئاً كثيراً ، ولسوف ترون مني رواية الصادق ، في رأى الآمل ؛ في صوم الآيس .

« حاول رياض باشا المتصدر في بلاد مصر إطفاء نوري ، وأنى الله إلا أن يتم نوره وإن كره الظالمون ! أما نى بدعوى الحرص على الخواطر أن أنهرها إلى الفتنة ، بل عاف أن أكشف الحجاب عن حقيقة أحواله ، فزعم أنى ناصبته الشر ، نفرة منه وتضيماً لسواه ، وما أنا فى شيء من ذلك ، فإنى أعترفناً ، وأبذل قصداً ، من أن تستملى الأشخاص . وإنما أميل مع المقاصد ، فسا كان منها ملائماً للشرب الذى أحسبه حقاً :

فذلك من دون المشارب مشربى وذلك ما بين المذاهب منهى
وما كان منها مقابراً للبدا الذى أراه عدلاً .

رमित به من حائق رعى حائق متى يرم لم يخطىء وإن يبع بدأب
« على أن ذلك شأن لا ترتفع إليه مدارك ظالمى ، فقد انصلت نفسه من درجيات المعالى ، فلم يرفى جهادى غير القصد الذاتى ، فأخذنى أخل المتحدى القاسط :

وكن كذئب السوء إذ قال مرة للمروسة (١) والذئب غرثان مرم (٢)
أأنت التى فى غير ذئب شتمتى قتالت متى ذا ؟ قال ذا عام أول
قتالت :

ولنت العام بل رمت غيرة قدوتك أكلنى لاهنى لك ما كل

(١) المروسة النجبة . (٢) مرم ملصق بالرمل أوديق الجبل من الجوع .

بل دون أكلى خرط القتاد ، بل دونه عرين الأسود ، وسرى منى نارا ،
شبر شراراً تناديه جهاراً :

من أى وجه تحرق أم أى سوء تستحق
فالنشر للنشر خلق

على أنى لا أقصد الانتقام ، وإنما أروم مقاومة الباطل ، ونصرة الحق ،
والمداخلة عن الشر وآله . والفضل ورجاله .

فلسكنى أن أكشف حقائق الأمور ملازماً جانب التصريح ، متجافياً عن
التعريض والتلميح ، وأن أجلو مبادئ الحرية ، وآراء ذوى النقد ، وأن أبين
ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ، ومقاصد أهل الحل والعقد ، وأن أوضح
معايير العصور الذين نسميهم اصطلاحاً (أولى الأمر) ، ومثالب الخونة الذين
ندعهم وهما (أبناء الأمة) ، ومقاصد الظلمة الذين نلقبهم جهلاً (ولاية النظام) ،
وأن أبين واجبات الإنسان الشرقى بالنسبة إلى نفسه ، وإلى قومه ، وإلى بلاده ،
وما يقابل تلك الواجبات من الحقوق ، وقصدى أن أثير بقية الحمية الشرقية ،
وأهيج فضالة الدم العربى ، وأرفع النشادة عن أميين الساذجين ، وأحيى الغيرة
في قلوب العارفين ، ليعلم قوى أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ، ومالاً منهوياً
فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف ، وينبذوا عنهم كل موالس (١) يشترى
بحقوقهم ثمناً قليلاً ، ويدفعوا الخاتنين عذاباً ويبدوا ويستصغروا الأنفس والتفائس
في جنب حقوقهم ، ويستتبعوا في مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأمواهم وأوطانهم
بما يطعمون فيه من رقة المقام فن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله
فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن عاش بعد أولئك الشهداء
فهو سجين .

هذه الحدة البالغة ، والثورة الجامعة ، كل الشاب يكتب مقالاته في باريس ،
لا يمشى بطش حاكم يرده إلى المدود والاعتدال ، ولا يحسب حساباً
لقانون المطبوعات .

(١) للوالدة المدام والميامة ، ووالس الحديث مرض به ولم يصرح : المحيط

وقد اشتمل هذا العدد على مقالات أخرى بعنوان (أوروبا والشرق)
« وسياسة الإنكليز » ، و « الوزارة الفرنسية » ، و « المفقضان الصوميان بمصر » ،
« والمسألة الكلية (١) » في مصر ، ومقالا بعنوان « خرقاء ذات
نيفة » (٢) موضوعه التهم برياض باشا ، ومقتطفات أخرى .

وبودي لو استطعت أن أقرأ جميع المقالات التي اشتمل عليها هذا
العدد . إذ هي في حقيقة الأمر تستحق أن تقرأ في قلوبنا هذا المجد ، ولكيف
مكتف هنا بفقرات قليلة من المقالتين الأولى والأخيرة على سبيل المثال ، وسأعود
إلى المقالات الأخرى عند الحاجة إلى ذلك ، فن مقاله بعنوان (أوروبا والشرق) :

النموذج الثامن

« قضى على الشرق جبل عامته ، واستبداد عاصته ، وخيانة دعاته ، وتصيب
رؤسائه ، أن يهبط بعد الارتقاع ، وبذلك بعد الإمتاع ، ويكون هدفا لسهام
المطامع والمطالب ، تمتع به أيدي الأجانب ، من كل جانب فهم من يغير عليه
بحجة الغيرة على الإنسانية ، ومنهم من يتطرق إليه بدعوى إقامة أمر المدينة ، ولم
تر منهم من صدق في دعواه ، بل كلهم تابع في ذلك قصد دعواه » .
ثم قال بعد فقرات :

« فإذا لم يقبض الشرقيون من غفلتهم ، ولم يلبذوا عنهم التقاليد الموجبة لتفريق
كلمتهم . ولم يفتدوا أبواب صفارهم بغذاء الحرية ، ولم يرسموا على ألواح صدورهم
رسم الوطنية ، ولم يمرضوا عن وعيد الخائفين ، ولم يقوموا بأمر السراة الصادقين
ولم يعضبوا لوطنهم أن ينصب ، ولما لم أن ينهب ، ولحقهم أن يسلب ، ولجدهم
أن ينهب ، فما يلبثون أن يصيروا عبيد أعدائهم ، وأمرأ نزلاتهم . لا ترى فيهم
بعد حين غير البواب رفع الستارة ، ويسدل الحجاب ، والفرش ، يضع الوسادة ،
ويهدد الفرش ، والكناس يزيل الغبار والأرجاس ، والسائل ، يطلب الصدقة

(١) ضاع للنقل أجنى في مصر كلب هامت الحكومة وقصدت ، فاختد أدب إسحاق
من هذه المسألة موضوع مقال سفره من الحكومة المصرية سفرية مرة « انظر الدرر
ص ١٨٠ » .

(٢) الثانية : بوزن رقيقة : اسم من التتوي في الأمر ، وهو التأنيق فيه . وهو مثل
يضرب الجاهل بالأمر ومع ذلك يدعى للفرقة .

بالسمع السائل ، أما الأمراء فيحرقون ، وأما الأغنياء فيفتقرون ، وأما النبهاء فيهجرون .

« أليس الموت ، خيراً من هذا الفوت ؟ أليق بذى الدم الشرقى أن يصبر على هذا الصف ؟ أم يحسن بذى النفس الزكية أن يرضى بهذا الخسف ؟ أم لا يعلم قوماً أنه :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

النموذج التاسع

وأما المقال الأخير الذى (عنوانه خرقاء ذات نيفة) فبصدأه بقوله يطالب رياضاً :

خلا لك الجو فيضى واصفرى وقرى ما شئت أن تنقضى
لا بد من صيدك يوماً فأصبرى !

وغتمه بقوله :

وإذ ما خلا الجبان بأرض ، طلب الحرب وحده والنزالا
ومضى (أديب إسحق) يحرر الأعداد الأخرى من جريدته على هذا القرار ، وهو يتحدث عن الشرق وآلامه وعن الوطن وحقوقه ، وعن الاحتلال وسياساته وعن رياض وحكومته ، وعن المسألة الشرقية وغيرها من المسائل الأخرى . وكانت مقالاته لا تخطئ من وصافة في الأسلوب ، وحلاوة في التعبير ، وقندرة على التهكم ، وقصد إلى التناول على الرئيس رياض بنوع خاص .

ثم في هذه المدينة الأوربية التى كان أديب إسحق ينعم فيها بالحرية وهى مدينة باريس ، طلق يكتب الفصول الرائعة والمقالات الدائمة ، في موضوع الشرق وذله والغرب وعونه ؛ كما أخذ يندد بالاستعمار وجبروته ، والظلم وسلطوته ، ويتحدث إلى المصريين وغيرهم من الشرقيين عن المجالس النيابية « الأوربية » ، ويوازن بينها وبين المجالس النيابية المصرية والعثمانية ، ويسخر في أثناء ذلك سخيرة مرة من الحال السيئة التى وصل إليها المصريون والعثمانيون ، ولا يكتفى الكاتب هنا بإيراد الأمثلة على الحياة النيابية السليمة في فرنسا ، بل يرجع بشعنه وبقراءته إلى التاريخ اليونانى أو التاريخ الرومانى القديم ، فيستمد منها أمثلة حية يحث المصريين على

اقتدائها والسعى وراءها ، وبلغت هذه المقالات غايتها من الحماية والقوة في فصل
له بعنوان « نفثه مصدور » سنأتى على طرف منه .

ثم في أوقات قليلة كان هذا الصحفي الثائر يظل إلى نفسه ، ويمنح إلى شيء من
الراحة والمهدوء . ويستغل بأبحاث هادئة ، موضوعا تاريخ العرب حيناً ، وتاريخ
المصريين وحدهم حيناً آخر ، وتاريخ جمال الدين الأفغانى حيناً ثالثاً ، ثم تاريخ
الكتابة الإنشائية وهكذا .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نقبس شيئاً مما كتبه أديب لمسحق في هذه
الفئة لنعرض منه نموذجاً كاملاً للقارىء . والحقيقة أننا لا نجد في هذه الفصول
قطعة أبلغ من الأخرى ، فمن مضطرون إلى الاكتفاء هنا بجزء يسير مما كتبه
تحت عنوان :

النموذج العاشر

نفثه مصدور :

« وأنا تحت سماء الإنصاف ، على أرض الراحة ، بين أهل الحرية ، أسمع
الحانا في مجالس العدل ، فأذكر أنين قوى في مجالس الظلمة ، وتحت سياط
الجلادين ، فأنوح نوح الثاكلات ، وأرى علام النعمة ، في معاهد المساواة ،
فأذكر شقاء سربى في ربوع الظلمة ، فأذرف الدمع بمنزجها بسواد القلب ، فأكتب
به إليهم .

« يا قوم ، ظلمتم غير ممدورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسعيتم غير
مشكورين ، فهل كنتم غير مأسوف عليكم . تصبرون على الظلم حتى يحسبه
الناس عدلاً ، وتبسمون لتقيد حتى يظنه الناس نافذاً حليماً ، وتخضعون للظالمين جناح
الذل حتى يقول من يراكم ماهولاء بشرا إنهم إلا آله سخرت للناس فيلعبون بها
الأرض ويذرعون .

« قلب الجاثرون عليكم أنواع المكائد ، وأصناف الخيل ، وألوان
الحديد فيما يقتلسون ، كما قلب المغموده لدى الأطفال أوجه الودعات في

استخراج ما يضرهم ، فتارة يضرهم المغارم ، تهديد المسالك ، وإفناء المنافع ، ونسرة يفرضون الإتاوات ، لإصلاح الشئون ، وإعزاز الدولة ، وحينما يرسمون بالضرائب لصيانة الحقوق . وتأييد الاستقلال ، وأوقية يطالبون المسال قرصاً يحفظونه لكم على سبيل الأمانة ، حتى إذا ملئت بأموالكم الخزان ، ولم يبق على أبدانكم ما يباع ولا في دياركم ما يرهن . سلم الظلة المنافع التي أنشأتم ، وباعوا المسالك التي مهدتم . وأذلوا الدولة التي عززتم ، وأضاعوا الاستقلال الذي أيدتم ، وأكلوا الأمانة ، فهي في أحشائهم ناز يسلون سميرها وهم في جميعها عائدون ، إلى أن قال :

« ولقد رأيت من نواب الفرنسيين من يصعد المنبر فيقول لرجال الدولة ترومون وضع هذا القانون ، وإبرام ذلك الحكم ، وتقض هاته العادة ، فاعلموا أن هذا الفصل مخالف لمصلحة الزارع ، ميان لمنفعة الصائم ، مغاير لحقوق التاجر ، وإلى أعاركم فيه وأنكره عليكم . فإن كن ما يقول حقاً أيده غالبية الآراء ، فيبدل أهل الدولة عما عزموا عليه . امثالاً لإرادة الأمة . فتذكرت زاعمكم بين شيخ يأمره وعبيده إنهاء ، ومأمور ينهي ، ومدير يحلله ، ووزير يتصرف في ماله كيف شاء ، وصانكم بين شرطي يسرقه ، وضابط يصادره ، وحاكم ينفيه . وتاجركم بين مكاس يظلمه ، وجلب يسرقه ، وناظر لا ينصفه ، فقلت :

« ورأيت فلاحهم في حقله الصغير يتناول الطعام أكلا مريئاً ، وينام القبولة نوماً مئيتاً ويأوى إلى البيت قياً كل بين عياله ، ويتلو عليهم صحيفة النهار ، ثم ينام ملء عينه لا يحلم بصوت المأمور . ولا يتصور عصا الشيخ ، ولا يذكر حبس المدير ، فتعيتكم بين السواق والآثار ، تفتغلون سحابة اليوم لتجتمعوا على القصة السوداء ، قتلتموها قتات الثعير ، وتمسكوا على الرعة ، ففشروا الماء الكدر ، ثم تعودون إلى الأرض المريضة تزرعونها والثقة الوفيرة تمصونها ، لتصرفوا إلى أكرام بالية ، تشبه قبوراً توالى عليها السنون . فيجتمع من حولكم سفار لا تعرف أيدانهم الوقت ، ونساء يعمضن الأقدار عن الكساء . ثم يأتيكم المأمور سالباً ، والشيخ فاضباً ، والمدير فاهباً ، فأتم في بلاء مستقر ، وعناء مستمر

تخصدون البر ولا تأكلون . وتملكون الأرض ولا تسكنون ، قلت ما علة هذا الفرق بين الطائفتين :

والناس من جهة المثال أكفأ والأصل فيما يقال الطين والماء .
فأجاني لسان الحال دع الطين والماء . في صحف القدماء ، فهو العلم يعز بلابه ، وبذل أربابه والأقدام ترتفع به النفوس ، والوهن تنخفض معه الرؤوس .
« ورأيت دولتهم تسكاه بالمال رفع الشأن من اتقذ المستهلك . وأجار الخائف ، ورد المقتال ، فصورنكم على حفة النهر تبصرون الغريق في القلعة ثم تصرفون عنه وجوهاً لا تجهل الحياة ، وتصمون فيه قلوباً لا تنكر الرحمة ، تخالفه أن تنقذوه فيأتيكم المأمور سائلاً من الرجل ، وفيهم فرق وكيف لم تفرجوه حياً ، ثم لا يسمع من المنقذ جواباً ، ولا يطلق له سبيلاً ، حتى يقرع باب مسمه برنة الدينار ، ويميل عقدة ظلمه برفقة الرشوة ؛ أو تهدر دمه بيده ، ويده يعنقه ، وعقده بالقيد ، وقيدته بتد السجن ، قلت ما نفوسنا يظلمون أحياء ، ولا يأمنون المصف أمواتاً فأجاني لسان الحال : هو الذل أمات أفسكم فصرتم أشباحاً بغير أدواح تطفون ، ولكن بحكم العادة ، وتسعون ، ولكن بحركة الاستمرار ، ذلك بأن رضيتهم بموت الذل حرصاً على البقاء ، ولم تعلموا أن وجود الدليل عين الفناء ، فعدت إلى النعم أذله ، والهبة أودعها ، والومان أعاتبه ، ثم نظرت إلى السماء نظرة آيس يوشك لولا العقيدة أن يقول : أى قضاء ظالم قدر علينا هذا الخسف ، وأى حكم قاسط أنزل بنا ذلك البلاء ، فنشفي نور الرجاء ، وغاطني لسان الأمل ، من وراء حجاب الإخلاص ، بما سأبديه في كتابي الثاني إن شاء الله .

وهكذا طفق هذا الطائر الفرد - وقد أحس نفسه طليقاً في مدينة النور - يردد شجوه وشكواه من الظلم الذي يرسف فيه المصربون والشرقيون ، ويتنفي بالحرية التي ينعم بها الفرنسيون والأوربيون . ولقد شجاء هذا النوح ، واهزئت أوتار قلبه لهذا النغم فاستمر في شجوه ونغمه وهو يقول :

(م ٤ - أحب الخالة ج ٢)

« لقد آليت أن أبكي الحق في مصر حتى يعود غفر العود ، فإن عاد فلا أسف على البقاء ، وإن لم يعد فعل الدنيا مفاء » . وفي قوله :

« على أنفكم تأتوا من منكر يوجب هذا القصاص الأليم ، بل أستغفر الله ، فقد أتيت منكرأ لا ينفر » في صبركم على المنكر ، ومن أغشى عن المنكر على علم به ، ومقدرة على إزالته ، قد شارك أصحابه ، واستحق عقابه ، وأهملتم ما حق عليكم ، فلا غرو أن نهرموا ما حق لكم ، (١) ،

وبقي هذا الكاتب الشاعر في باريس يهتف بالحرية ، ويسبح بمجدها في صحيفته ، وهو كلما جرى على لسانه لفظ الحرية ذكر الثورة الفرنسية ، ورد إليها الفضل في إطلاق الإنسان من الأسر والعبودية ، وانظر إليه قد بدأ فصلا من فصله في هذا المعنى بقوله (٢) .

النموذج الحادى عشر

« أبدأ مقال بالثناء على جرائم الضياء التي يمشيها يد العزمة ، من أفق الحكمة ، فانشق بها ستر الظلام عن ذات جمال ، كلها الحسن بتاج السكال ، لجرت على هام الأوهام مطارف ثوب نسجه يد الصبح ، ينزل شعاع الشمس ، فانبهرت بها مقل الظلام ، وراما نبهاء الناس نوراً على نور ، فرفعوا لها بينهم مناراً ، وأوقدوا من حولها ناراً تهدى قوماً وتمرق آخري ، وما يحترق بها إلا المكابرون ، الذين يقاومون الحق بسيف الباطل وبئس ما كانوا يفعلون .

« ثم سرح طرف القطة . في روضة تلك الظلمة ، وأجعل ثلث استهلال ، في رقة إطلال (٣) غزلا أرق من العبا ، وأحن من عود العبا ، في قد لا يحاكيه النسن ، وطرف لا يماثله النرجس ، وغد لا يعادله الورد ؛ وثمر لا يقارنه البرق ، وفرق لا يباريه الصبح ، وفرع لا يحارب به الليل ، من صورة من تعشقه النفس ، ولا يدركها الحس . فهي مفردة بصفاتها ، لا تشبه إلا بذاتها . يموت في حبها

(١) للدرس ١٦٧ .

(٢) للدرس ١٨٧ — ١٨٨ .

(٣) الامثال ولغ الصوت بالتركيب ونحو ذلك .

المشاق غيرة عليها . ثم لا يمتنعونها عن المشتاق إليها فهي المورد يراه الظمان ،
والأمن يجده الخائف ، والسبيل يلقاه الناه ، بل مقصد الساعي يناله بعد اليأس ،
وكلمة المعز يسمها من كان على النطع . بل هي فوق ما يصف الواصفون ، وينعت
المعارفون ، بل هي « الحرية » ، وكفى بذلك وصفا لقوم يقتلون . الخ . .

ثم أتبع ذلك بأبيات من الشعر ، أكبر على أنها من نظمه هو ، لا من
نظم شاعر سواه . وهي قوله :

| | |
|---------------------------|------------------------------|
| إذا غاب وجهي عن حاكم لمة | قلبي ليديكم كل يوم يسلم |
| وما عاقني إلا عدو مسلط | ينزل ويقتل من يقا . ويرضم |
| ولم يستغل إلا بكم وبحولكم | ولا يأنى أن يمنح العز مجرم |
| فكنتنوه فاستطال عليكم | وكنت بنا نيرانه تحترم |
| وجمع غوانا لصوصا أسافلا | ومنام أن يقتلوكم ويقتنوا |
| فصار له في كل يوم جباية | جباية آلاف تسهد وتقيم |
| وصار لأهل النثر روح وراحه | به ولأهل الخبر صاب وطقم |
| وأتم عليه صابرون لتوجروا | ولكن " صدم النثر بأثر أحرم ، |

وعلى هذا النحو راح الرجل يتنزل بالحرية غزلا هو إلى الشعر أقرب منه
إلى النثر ، وذلك لما في هذا النزول من شق التشبيهات المتلاحقة ، والاستعارات
التي يتلو بعضها بعضا ، والصور البيانية التي ازدحمت في عبارته ازدحاما قل أن
يحتمله النثر الأدبي ، به الصحن . على أن أسلوبه في هذه العبارة لم يحل من تكلف
سليبي إليه في موضع آخر .

وأخيرا عاد السكاكبي إلى مصر حيث أذن له — كما قلنا — بالعودة إلى
جريدة (مصر) ، فأخذ يكتب فيها فصولا عليها طابع الهدوء ، كما شرع يعالج
فيها أموراً أخرى غير السياسية البحتة ، كأمر التعليم وأمر السفور ، وبقي على
ذلك حتى اضطرت الظروف إلى مفاداة مصر إلى بيروت حيث اتفق للمرة الثالثة
بجريدته القديمة ، ونعى بها جريدته (التقدم) كما رأينا .

من هذه النماذج القليلة التي استعرضناها لأديب إسحق نستطيع أن نقول في صراحة بالغة : إننا لا نبالي كثيراً إذا نظرنا إلى هذا الصحفي الشاب على أنه من رواد النهضة الحديثة في النثر والترسل . بل إننا لا نتردد في أن أضغه على رأس الصف الأول من صفوة الأدباء الذين نهضوا بالنثر العربي من عقاه . وأضغوا على الكتابة الصحفية هذا الجمال ، ونفثوا فيها ذلك الروح ووهبوا لها تلك الحياة والحركة .

والحق أن أديب إسحق رجل عراسى في نشأته الأدبية ، فقد نبغ في الأدب في سن مبكرة كأرأينا ، يدل على ذلك كثرة ما وضع من الكتب الأدبية ، وما ترجم من الروايات الأجنبية ، فلم يكدهم الثامنة عشرة من عمره حتى كان له ديوان شعر تزيد أبياته - فيما قيل - على ألف بيت . ولقد طبع ديوانه هذا باسم (أنيس المجلس) وبعد هذا الوقت بقليل رأيناه يترجم قسماً من (معجم المعاصرين) وإن عجز عن تقديم ما ترجمه من هذا المعجم إلى المطبعة . وبألف كتاباً باسم (نزهة الأجداد ، في مصارع العشاق) وترجم لصاحب جريدة التقدم كتاباً (في العادات والأخلاق) واشترك مع سليم الخوري في إنشاء كتاب (آناز الأدهار) وكان ذلك في التاسعة عشرة من عمره تقريباً . وفي باريس - كما رأينا - اشتغل بتأليف كتاب (تراجم أهل مصر ؛ في هذا العصر) وذلك كله عدا الروايات التي ترجمها كرواية (أندروماك) ورواية (شرلمان) أو الروايات التي ألفها كرواية (الحادثة الصينية) ورواية (غرائب الاتفاق) وإن شاباً يشتغل بهذه الكتب جميعها ترجمة وتأليفاً وتصنيفاً ، ثم هو لا يقف عند هذا الحد حتى يروض نفسه على صوغ الشعر . ليعتبر أهوية من أعاجيب عصره ، حتى ولو لم تكن هذه الجهود التي ألقى فيها وقته قيمة إلى هذا الحد يرضى عنه ناقد أدبي ينظر إلى المثل الأعلى .

على أن شيئاً آخر يدلنا على ميول هذا الشاب الأدبية من جهة . ويزيدنا اقتناعاً بأنه من رواد النهضة الحديثة في النثر من جهة ثانية . وهذا الشيء هو أن (أديب إسحق) كان من أكثر الصحفيين في القرن الماضي عناية بالغة . وبسلامة

الأساليب . وانظر إلى أديب إسحق يقول في جريدة التقدم (١) .
« وأما مقصدنا الأدبي فهو تميم التعليم بتقريب المعاني الأدبية ، والقضايا
المعلية لأفهام العوام ، ولإحصائها لأذهانهم من طريق الصراحة المطلقة في
الكلام ، بحيث تكون عباراتنا الأدبية والمعلية قريبة المأخذ ، بعيدة من مواضع
الاشكال » .

ولم يقله في جريدة مصر (٢) .

« ومنها - أى من الأمور التي التزمها الجريدة - تهذيب العبارة ، وتقريب
الإشارة ، وتنقيح الكلام ، وتمرير المعنى في الأفهام ، وإطراح ما يحتاج من
اللفظ من مضاعف الزلة ، وما كان منه غريباً تفرمته الجواهر ، وتقسّم النفوس ،
فإنه لا طر لم يقل صفق ، وفي اللغة كشيء ، وقدموس ، وفيها قديم ، والشهر
المنصرم ، وفيها الماضي والسابق ، والغابر . والمنسلخ ، والمنحسم وكثير غيرها ،
وذلك مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه ، وأطراحنا فاسد التركيب وعامية فإنه
داه إذا سرى في عامة الناس أمات اللغة ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم .

ولم يقله في جريدة مصر أيضاً بعد انتقالها من القاهرة إلى الإسكندرية (٣) ،
وأيت من الواجب على :

أولاً : أن أصرف العناية والاجتهاد إلى تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة ،
لتمرير المعنى في الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ؛ واتقاء اللفظ
الرشيق ، للمعنى الرقيق ، متجنباً ما كان من الكلام غريباً وحشياً ، أو مبتذلاً
سوقياً ، فإن التهاوت على الغريب صجر ، وفساد التركيب بالخروج عن دائرة
الإنشاء داه إذا سرى في القراء والمطالعين أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة
معاني كتب العلم ، والتنازل إلى ألفاظ العامية يقضي بإماتة اللغة وإضاعة محاسنها ،
وأن في لغة القوم لدليلاً على حالهم » .

(١) العدد من ٣٧١

(٢) من ١٠٨

(٣) من ١٤٠

بل إن (أدب إسحق) لم يكتف بذلك حتى قام بطائفة من البحوث الأدبية في صناعة الكتابة ، على النحو الذي نراه في كتب النقد القديمة فكتب بعنوان « مطلب في صناعة الكتابة » (١) عن حد الكتابة وأقسامها ، وعن النثر المسجوع ، وعن رأى ابن خلدون في المسجع والمرسل ، وأورد أمثلة من بليغ الكلام في كل ذلك ، وبحث في نشأة المسجع في اللغة العربية ، ثم بحث في صفات الكاتب وما يحتاج إليه ، وتكلم في الأسلوب وما يراد بهذه الكلمة عند إطلاقها ، وبحث في اختلاف الأساليب باختلاف أصحابها ، إلى آخر هذه البحوث التي تنهض دليلاً قاطعاً على تأصل الميول الأدبية في نفس هذا النقي ، وعلى أنه كان من أصلح من وآم القرن التاسع عشر لقيام بهذه المهمة الشاقة في ذلك الوقت ، وهي مهمة تقوم الأساليب العربية وإثباتها من عثرتها .

* * *

ونعلم أن منج أدب إسحق السياسي قائم على تقوية الدولة العثمانية ، والعمل على توحيد الشعوب التي تألفت منها ، ورغم أن أدب إسحق كان عصبي المراجع ، فإنه كان في ميدان السياسة من دعة الاعتدال . ولتلك الأسباب المتقدمة كانت ضاية أدب إسحاق بأخبار الدولة العلية وبالقوام لا تقل عن عنايته بأخبار مصر . وانظر إليه حيث يقول في جريدة للتقدم حين تولى تحريرها للمرة الثالثة (٢) :

« وأما مسلكنا في الرواية فهو نقل الأخبار عن نطاق الصحة ، ومواضع الرجوع ، والتثبت فيما قبل النشر ما أمكن ذلك في صحف الأخبار بحيث لا نخطئ ولا مغلون . ثم إننا نتخذ منها ما كان بمصلحتنا أمس ، ولبلادنا أقرب ، وباعتنا أحق مبتدئين بأخبار بلادنا العثمانية ، ثم بأخبار سائر الممالك الشرقية ، ثم بأخبار البلاد الأوروبية ، أقربها قبل القرب ، وأهمها قبل المهم ، معولين في كل ذلك على الصحف الخطيرة المشهورة بصدق الرواية ، واعتدال الرأي . »

وهذه العبارة وإن كان قد صدر بها جريدة التقدم ببيروت إلا أنها توضح لنا السياسية التي كان يسير عليها بمصر .

(١) ص ١٤٠

(٢) العدد ٣٧٧ - وانظر مقالته بعنوان (الإصلاح) - العدد ٣٣١ - ٣٣٨

وأما من حيث منهج أديب إسحق الاجتماعي فلأننا نرى له عناية عظيمة بالأخلاق والتعليم العام ، ووجوب جعله إجباريا وفي متناول الجميع على السواء . فالجمل
- في رأيه - ضئف ، والضعف يؤدي إلى الرذيلة (١) ولكن يرى أن التعليم حق
من حقوق المرأة . ولهذا كان من أكبر المدافعين عن حقوقها ، والداعين إلى رفعها .

واعتمد أديب إسحق في الإصلاح النبائي بمصر على طريقته التي أشرنا إليها ،
وهي الموازنة بين حلة الأوروبيين وحلة الشرقيين في ذلك . وقد رأينا كيف كان
أديب إسحق يندد بالعصرين ؛ بل يتكلم بهم تنكلا لاذعا ؛ ويسخر سخرية مرة من
خوف المصريين الشديد من الأجانب . ويكنى أن قرأ له في ذلك كلمة عنوانها
(المسألة الكليية في مصر (٢)) حكى فيها أن أحد رؤساء الإنجليز في مصر قد له
كلب ، وجعل من هذه الحادثة اليسيرة مسألة خطيرة ، قامت لها الحكومة المصرية
وقضت ، ولم يقر لأحد قرار فيها حتى صر على كلب الرئيس الإنجليزي ١١

وانظر إلى أديب إسحق يبدأ كلمته هذه بقوله :

« لقد ضربت العرب الأمثال بالمناحة . فقالوا أئمن من عقاب الجو ، وأئمن
من لمة الليث ؛ وأئمن من حمى كليب . ولكن ما كل كلام يصلح لكل عصر ؛
فأنا في الزمن الذي يقال فيه : أئمن من كلب الأجنبي في مصر » .

ثم سرد الحادثة التي حدثت سرداً أدبياً ؛ ووصف كيف انطلق القنصل بلباس
الصييد إلى وزير الخارجية يطلب رجوع الكلب إليه أو يجعل أمره مسألة
سياسية ؛ فاهتر الوزير لذلك اضطراباً ؛ وعد قد الكلب مصاباً ؛ وكتب إلى
مأمور الضبطية يقول .. الخ .

ولأديب إسحق في هذا الباب مقالة بعنوان (المقيم والمقعد) (٣) لولا أننا في
مقام التلخيص لذكرناها كلمة .

* * *

(٢) العدد من ١٨٠

(١) العدد من ٢٤٤

(٣) العدد من ١٧٨

فصل في الأسلوب عند أريب إسحق :

(ويجد) قد كان علينا أن نأتي بمقال كامل لأديب إسحق أو مقالين كاملين . ولكننا قد اكتفينا بالقطع التي اقتبسناها من أسلوبه ، ونستطيع بعد ذلك أن نلخص مرآيا الأسلوب فيما يلي :

أولاً : في أنه أكثر الكتاب المصنفين جنوحاً إلى الزينة اللفظية ، يصطنعها في صفحه ولا يكتفي بها في رسائله الإخوانية وكتبه الأدبية ، كما فعل غيره من أدباء عصره . وهو يحب السجع ويميل إليه . فإن فاته السجع فإلى صنو السجع في النثر العربي وهو الازدواج ، وكان هذا السجع أو الازدواج يشبع رغبة ملحة في أحماق نفسه ، ويربح أصحابه في الكتابة ، ويتمشى مع حركاته العصبية التي لا يجد مفراً من الخضوع لها ، وذلك رغم أنه صرح بأن النثر المرسل من كل قيد أفضل من النثر المقيد بالسجع وغيره ، ولم يكن في هذا الرأي الأخير إلا مقلداً لابن خلدون وأمثاله من الكتاب ، الذين لم يجدوا في أنفسهم قدرة على التزام هذه القيود . وكما كانت مدرسة البديع في الأدب العربي تميل إلى ثلاثة أنواع متلازمة من أنواع البديع هي : السجع والجناس والطباق ، أو المقابلة ، فكذلك وجدنا أديب إسحق يميل إلى هذه الأنسب الثلاثة المتلازمة ، ومن الأمثلة على جناسه قوله : « حتى صارت مدارسنا دارسة ، لا مدارس بها ولا دارسة » (١) .

وقوله : « وقلوبنا تحترق في بلاد تحت ريق » (٢)

وقوله : « وإلا فما الحجاز عجوز الأنوار ، وما الشام مشنوم الأحوال » (٣) .

ومن الأمثلة على الطباق عند قوله .

« نفترنا إلى لقاءه خفاً وثقالاً ، وعرضنا للأخطار والمنا . أرواحاً وأموالاً ، وقلوبنا سواد ذلك المدو الأزرق ، يبيض خضبتناها بالدم الأحمر » (٤) . ولكتاب البديع المرفعين في اتباعه سقطات لا تخفى على الناقد ، ولكن من الحق أن يقال عن « أديب إسحق » ، أن سقطاته البديعية أقل من أن يدها عليها النقد ، أو يطعن من أجلها الناقد الأدبي .

وربما كان من هذه المفوات البديعية - في نظري أنا على الأقل - تلك العبارات التي وصف بها الكاتب أعضاء مجلس النواب المصري حيث قال :

« تقتل أوتار أقوامهم بما يصنع لها الرئيس من ترواقيع المكآرب ، وألحان المطامع ، ليثبت ما يعربون عنه بالحن المقصود في سفينة أنغام الرياه ، والمعروفة بالوقائع المصرية ، » .

والشاهد عندى في قوله « سفينة أنغام الرياه » ، فلمست أرى في لفظ « سفينة » أية مراعاة للظهير تتفق والألحان والأنغام والترواقيع^(١) ؛ وأسئلة هذا التعقيد قليلة كما قلت في أسلوب أديب ، وهى إنما تأتى من طبيعة هذا الغاب وقصده دائماً إلى أن يشق على نفسه في الأداء ، وأن يقرب التمييز الصحفي من الأدب الصرف ما استطاع .

ومن مفواته كذلك الإسراف في حشد ألوان كثيرة من البديع في جملة واحدة كما فعل ذلك بالجملة التي ذكرنا نصها وهى قوله :

« أهدأ مقالاً بالثناء . على جرائم الضياء التي يشنها يد العزمة ، من أفق الحكمة ، فانشق بها ستر الظلام عن ذات جمال ، كلها الحسن يتاج السكال ، فجرت على هام الأوهام مطارف ثوب لندجته يد الصبح ، بغزل شعاع الشمس ، فأنهبرت بها مقل الظلام الخ » .

فهى عبارة وإن كانت جميلة إلا أن بها ضرباً من التماثل في الكلام ، وانظر مى إلى جرائم الضياء ، ويد العزمة ، وأفق الحكمة ، وستر الظلام ؛ وهام الأوهام ، ويد الصبح ؛ وغزل شعاع الشمس ؛ ومقل الظلام ، كيف اجتمعت كلها في صعيد واحد ، وركب بعضها بعضاً في جمل لا تستغرق من المقال أكثر من ثلاثة أسطر .

ذلك ما قصدنا إليه من وصف أسلوب هذا الغاب في تلك النقرة بالتماثل ، أو اجتماع الصور البيانية وازدحامها على هذا النحو .

(١) كان الأول بالكاتب أن يستبدل بلفظ سفينة لفظاً آخر مثل صندوق . أو لوحة أو غيرها مما يطق وأدوات الموسيقى .

ثانياً : لأديب إسحاق كلف ما يإراد كلامه مورد الحكمة ، وصوغه في قالب المثل وأكثر ما يكون في ذلك في نهاية الفقرة أو نهاية المقال . حتى تكون الحكمة بمثابة تلخيص جميل لمعان هذه الفقرة . أو ذلك المقال ، فوق أنها تقوم فيما مقام الاستشهاد بالشعر ، أو التسلق على كلام غيره من الكتاب والشعراء . وقد مررت بنا أمثلة كثيرة من أمثال هذه الكلمات لأديب إسحق . كما في قوله . « ولو فعل كل امرئ ما يستطيع من منفعة لمارأينا على وجه الأرض شقياء وقوله « أن كلمة بما قدحوا إليه الحكمة لأنفع من كتاب عما تبعث عليه الأهواء . » . « وأن سطرأ ما يؤلف بين القلوب خير من فصل عما تختلف عليه الآراء . » . ثالثاً : على أن ذلك لم يمنعه من الاعتداد باعتياداً . يوشك أن يكون تاماً على الاستشهاد بالأشعار . وقد أظهرنا أديب إسحاق من ذلك على مهارة فنية خليقة بالإصجاب ، وعلى ثروة أدبية كنا نستكثرها على هذا الشاب حتى عرفنا كيف تمسب في ثلاثة نفسه على النحو الذي شرحناه .

والأشعار التي استشهد بها أديب إسحاق كثيرة . منها على سبيل المثال :

الحرب أول ما تكون ثينة تسمى بريتها لكل جهول (١)

وما حب الديار يبيع وجدى ولكن حب من سكن الديار (٢)

أدى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام (٣)

ومن تكبد الدنيا على المران يرى حدوا له ما من صدائه بد (٤)

إذا أنا لم أشكر على الفضل أمله ولم أذم الوعد القيم المذموم (٥)

قيم عرفت . الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامح والفا

وغيرها كثير . وهذا كله عدا الأشعار التي هي من نظمه لامن نظم سواء من الشعراء أو الأدباء .

رابعاً : ولقد التمس الذي كان يبدو من أديب إسحاق ولازدهلم قلبه

(١) الفدرس ٩٨ : (٢) الفدرس ٩١

(٣) الفدرس ١٠٣ . (٤) الفدرس ١١٣

(٥) الفدرس ١١٦

بشيء المشاعر والأفكار جاء أسلوبه خطائياً في كثير من المواضع . كما في قوله يخاطب المصريين في مقاله (نقشة ممدور) (١) .

« يقتلون ألبابكم بأساليب الزبالة ، ويضعفون قلوبكم بصور المخاوف والأوهام ويقتلون أذهانكم بسموم الخسار ، ثم يحجبون عنكم الحقائق . ويطلقون من حولكم الأنوار ، حتى إذا رأيكم في ظلمات الجهل لا تبصرون ما بين أيديكم ، ولا تهتدون مسالك النجاة . تداعوا إليكم وتساقلوا عليكم ، ينهبون الأموال ، ويهتكون الحرم ، ويسلبون الحقوق ، ثم يمزقون الأبدان جلدًا بالسوط ، وضرباً بالحرارة ، وطمناً بالحرية ، وقطعاً بالحسام . »

خامساً : وكانت لأديب مقدرة كذلك على الاقتباس من القرآن ومن الحديث ؟ بل كان يستطيع في بعض الأحيان أن يصطنع ألفاظ القرآن وأن يصطنع طريقة تذكر بطريقته في الأداء ، وإن كان الفرق عظيماً جداً بين الطريقتين وانظر قوله (٢) :

« لقد آتى النباه في مصر شيئاً إذا ، يكاد يزول ربا الحيف ويهد حصون الظلم خدأً » (٣) .

وكما في قوله (٤) :

« والصبر ، إن الظالم لني خسر ، فإذا الخواطر نارت ، وإذا الألباب استنارت ، وإذا روائد الأخبار سارت . فبشر أهل الظلمات بهذاب الأنوار ، إنها لتبهر الأبصار وتشرذم الأفكار ، ثم قال :

« سمعت يابن الاجتهاد ، وجاهدت في الحق خير جهاد ، وتلوت طيننا من آي الحرية ، ما أوحته إليك الإنسانية ، قللنا ذلك البيان لاربيب ، فيه هدى للشرقيين . »

(١) القدر ص ١٥٦ (٢) القدر ص ١٧٥

(٣) يلاحظ القارىء هنا أن قوله يكاد يزول ربا الحيف تساوى بالنشط قوله يزول الظلم هنا ، وما هكذا يكون الإسباب .

(٤) القدر ص ٢٠٦ .

سأبدأ : لأديب إسحاق خيال واسع ، فقرأه يبدأ مقالاه وفصوله أحياناً بحركة تشبه حركات المسرح ، وخیال كأخيلة الشعراء ، حتى يجذب إليه ذهن القارئ بقوة . كما في قوله في مطلع مقال له كتيبه تحت عنوان (البنت) (١) ،

« لما ترى في الحجرة مقداً خشناً عارياً ، وقابلة أو طيبياً متأملاً مراقباً ، ورجلاً منبر الوجه يدعو الله قثم امرأة على وشك الولادة ، ولما تسمع من تلك الحجرة صوتاً غريباً ، يليه من جانب الحضور اهتمام وارتباك ، فهناك مولود جديد يتساءلون عنه ، فيقول قائلهم بنت . ولطالما أسودت الوجوه بمثل هذا القول في المصور الخالية ، بل سل اليوم عنه فلاحاً ما ، يجيبك بما أجبني مزارع بريتوني حين سأله كم ولدك ؟ فقال « آه ياسيدي لا ولد لي ، وليس عندي خير بنات ، ا » .

وكا في قوله في مطلع كلمة لها عنوانها (إحسان الحسان) لمناسبة جمعية خيرية تألفت من بعض السيدات المحسنات في بيروت (٢) :

« أأطرك البدر بحياه ، وحياك الروض برياه ، فسرت منك نسيمات الرباه ، سحراً تغمّل شيباً وثماماً ، وتغشّت فيك أرواح الصبا ، يتأرجح بأنفاس الخواهي . أم أنت غيبرى بمسكّام الكرايم ، ومبشرى بإحسان الحسان ،

وأديب إسحاق إذا تورن بالأستاذ الإمام من حيث استخدام الألفاظ يظهر بوضوح أن ألفاظه أدنى من ألفاظ الإمام إلى الجوراء والفحولة . والجمال . ولتأصل هذا الميل في نفس هذا الشاب ، تراه لا يرضى لنفسه قط النزول بمقالاته الصحفية — مهما كان لونها — إلى مرتبة الحديث العادي ، أو مرتبة قريبة من الحديث العادي .

وآية ذلك أنك تجد في صحف أديب إسحق كثيراً من المحاورات الفكاهية ، التي يجريتها على لسان رجل عاى ، وبرغم ذلك تأتي نفس هذا الشاب أن ينزل في هذه المحاورات الفكاهية الشعبية إلى اللغة العامية ، مع أنه لو قبل لكان له

(١) العدد من ٢٩٩

(٢) العدد من ٣١١

المعز كل المعز في ذلك ، فقد سبقه إليه تحول الكتاب في الأدب العربي ، كالملاحظ وغيره . ولكن قلنا مثل فلم أديب إسحق يكبر عليه أن يجرى على الصنف بلطف مما يدور على ألسنة العامة ، ومن هنا كان الفرق عظيمًا في ذلك بين رجل كأديب إسحق ورجل آخر سيختص بفصل من فصول الكتاب ، وهو - السيد عبد الله النديم - والآخر - كاسرى - كاتب شعبي بكل ما في هذه الكلمة من معنى (١) .

وباختصار نرى أنه قد اجتمع في يد (أديب إسحق) من الأسباب ما لم يجتمع مثله في يد غيره ، ليكون رجلاً تشرعين تقرأه أنه أديب يتعالى في لفظه ، وكاتب يباهي بصناعة الكتابة ، ويعرف لها قدرها . وصحفي ذو قدرة على الأداء ، وفي أدائه تسام إلى درجة من الفن والجمال قلما تنبأ لغيره من الناس .

أجل ، كان لأديب إسحاق من المميزات ما يؤهله لأن يكون أديباً هذا شأنه : فن تتوع في الثقافة ، إلى استيحاء للأدب العربي والقرآن وبعض الحديث ، إلى معرفة جيدة جداً بتاريخ الشعوب والحضارات ، إلى علم واسع بأصول هذا الفن الذي نبع فيه منذ الصغر ، وهو فن الكتابة ، إلى رقة في الإحساس ، وإدراك في المشاعر ، لا يظفر بهما إلا شاعر ، إلى خيال صبيب لا يحد مقفه في إبداع الصور الخيالية الراقية في أكثر الأحيان إلى غير ذلك من الخصال الأدبية الفنية الخاصة .

والحق أن كتابة أديب إسحاق ليست إلا ذوب قلبه ، وعصارة هواطفه ،

(١) انظر « محاوره فلكية » بكتاب الدرر ص ٣٧٧ بدأها بقوله : « جاءنا في مكتب الجريدة أس قبل الظهر في خلق الثياب ، مقطوع اليد ، حان القديمين . في كنه شيء من الحضار والبعل والفاكة غيا بفرده وخوف ، ثم أخذنا في المحاوره الآية على سمع من بعض الزائرين ،

ثم ساق أديب إسحاق المحاوره التي جرت بينه وبين هذا الفتي ، لجأته هذه المحاوره كلها باللغة الرمية القصص ، لا باللغة العامية التي لا يحسن الفتي غيرها ، بحكم أنه أمي ،

ولو لم يكن (أديب) كاتباً ممتازاً لكان شاعراً ممتازاً . ولو تقدم به العصر لكان لنا فيه رجل كائن الروى وقة حس ، أو كباى تمام دقة صنعة . ولكننه عاش فى عصر غلبت فيه الصحافة على كل شىء ، وأصبحت اللون السائد على غيره من ألوان الأدب ، فكان لابد له من أن يكون ذلك الصحفي ، الذى إن قلنا أنه كان ديب الشرق الأدنى فى الربع الثالث من القرن الماضى ، لم نبعد عن الحق ، ولم نسرف فى المقال .

والحق أيضاً أنك مهما ذهبت تقسو على هذا الرجل ، أو تتكلف الدقة فى الحكم عليه ، ليقول الناس إنك عادل فى رأيك تزيه فى نقدك ، لم تجد له غير عيب واحد . هو أنه شديد الاعتزاز بأسلوبه ، وإن لم يقل للناس صراحة أنه يعتز به . وإذا وافقتك على ذلك ، فإنما مصدره عندى أن هذا الكاتب شاب ، وأنه مأخوذ بفتوة الشباب . وعندى أنه لو عاش هذا الأديب المفتر بأسلوبه عشرين سنة أخرى ، لتغير فى أثنائها أسلوبه بتغير أخلاقه ، فكنت ترى فيه تواضعاً يحل فى أدبه محل الاستعلاء . وكنت ترى آثار هذا التواضع واضحة فى تركيب الجملة من ناحية ، وفى اختيار الألفاظ نفسها من ناحية ثانية .

ألا ما أشد الصلة - فى نظرى - بين الطبع الذى تميز الأدباء ، وما يفتشون من أدب هو عندى صورة لهذه الطبع .

الفصل الرابع

حياة الشيخ محمد عبده

١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ

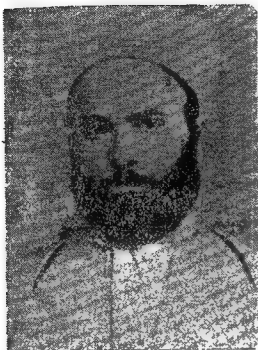
١٨٤٩ - ١٩٠٥ م

نوحى قراءتنا لتاريخ أولئك الرجال الذين وعدنا بالحديث عنهم في هذا الكتاب بأشياء ، منها أن حياة كل واحد منهم يمكن أن تلخص حياة مصر كلها ، من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية ، حتى يميل إلى الباحث أنه كان هناك شعور عام بضرورة الإصلاح ، وأن هذا الإصلاح لا ينبغي أن ينجم في نظرم إلا إذا شمل هذه النواحي كلها في وقت مما .

وشيء آخر نوحى به قراءة التاريخ المصرى من خلال التاريخ الخاص بأولئك الرجال هو أنه في القرن الماضى كانت بذور الإصلاح السياسى والأدبى والاجتماعى قد بذرت ، وتمهدا أولئك الرجال بالسق والقاء ، حتى كان القرن الذى نعيش فيه . فلم يرد رجاله على أن جنوا مازرعه الذين من قبلهم .

فالرق السياسى ، والإصلاح الاجتماعى ، والنهضة الأدبية . والجامعة المصرية ، وغير ذلك من نواحي النشاط للمصرى في الوقت الحاضر ، إنما هي أثر من آثار الجهود التى بذلها عظماء القرن الماضى ، وثمرة من ثمراتهم ، لا أكثر ولا أقل .

فأية الأمر أن كل جماعة منا اليوم تخصصت في ناحية من نواحي الإصلاح بعد أن كان رجال القرن الماضى لا يعرفون هذا التخصص ، فإذا ذهبت تترجم لحياة رجل من رجال القرن العشرين ؛ لم تجد أن حياته تلخص حياة مصر كلها ، كما تجد ذلك في كثير من تراجم القرن التاسع عشر ، ومن هذه الأخيرة



الاستاذ الإمام محمد عبيد

ترجة الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبيد وهو كما تعلم من أبناء الفلاحين ، وقد أشرنا من قبل إلى أنه إذا كان عصر محمد علي يتنازع بأشياء ، فأمرها أنه اعتمد اعتقاداً تاماً على هذه الطبقة ، فتألف منها الجيش الذي أعان الباشا على الفتح ، وتألف منها الجيش الذي حارب به الجهل في مصر ؛ وكان محمد عبيد من أولئك النفر الذين أعدتهم العناية الإلهية لهذه الغاية الأخيرة .

سيرة الاستاذ الإمام

نشأ محمد عبيد بقرية « عملة نصر » من قرى مركز شبراخيت بإقليم البحيرة . وهنا نجد الأستاذ العقاد يعظم من شأن هذه القرية فيقول : « قرية عملة نصر هذه إحدى القرى الصغيرة في إقليم الريف . ولكنها على صغرها كانت من تلك القرى التي يصح أن يقال فيها إنها موصولة التاريخ بتاريخ التنصير كله . ذات كيان اجتماعي مكيّن تتمثل فيه أحداث اليهود ويصير أهلها فيه طوائف . الزمن من عهد إلى عهد ، بل من ولاية إلى ولاية . . . ولا يخفى لنا أن هذا شأن عام مشترك بين جميع القرى في هذه الأنحاء . الخ .

أتى العقاد على هذه القرية وأتى بشئ من أخبارها التاريخية وأشار إلى رحلة مرسومة قام بها الرحالة الشهير عبد العليّ البغدادي إلى هذه الجهة وقال إنه رأى

فيها بيوتا ثلاثة كبيرة وهي : بيت الشيخ محمد عبده ، وبيت خير الله ، وبيت القرواني .

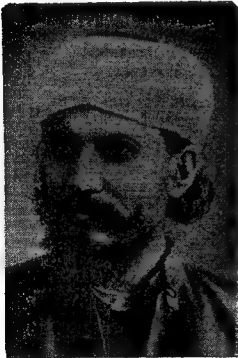
في تلك القرية نقلاً محمد عبده يركب الخيل ويستغل بالقرصية ، وذلك أنه عاش في هذه القرية بمعنى من العمل وكسب الرزق . وتعلم الكتابة والقراءة في منزل والده . ثم مضى به إلى رجل من الصالحين في القرية لتحفيظه القرآن الكريم . ثم بسط به أبوه إلى طنطا ليتلقى العلم في الجامع الأحمدى حيث قضى سنة ونصف سنة وهو لا يفهم شيئاً كما يقول لرداءة طريقة التعليم وهي بسببها طريقة الأزهر الذي التحق به الفتى فيما بعد . فاقطع عن العلم برهة ، ثم كان الفضل في عودته إليه بعد ذلك الشيخ درويش وهو رجل من الصالحين وأرباب التصوف .

مع جمال الدين الأفغانى

في ذلك الوقت أى في الثلث الأخير من القرن الماضي كانت الصلة بين الأزهر والعالم الحديث توشك أن تكون مقطوعة . ولكن الله تعالى قبض للأزهر من بهر طليعته بهذا

العالم الحديث . قبض لهم جمال الدين الأفغانى الذى اتفح حوله كثيرون من الطلبة ومنهم محمد عبده فوصلهم ببعض العلوم الرياضية والفلسفية ، وخطهم بذلك خلقاً جديداً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده في براءة وإخلاص :

« إن أبى وهبى حياة يشاركنى فيها على وعروسى . — وهما أعزواى المزدوران — أما جمال الدين فقد وهبى حياة أشارك فيها محمد وإبراهيم وهبى وهبى وغيرهم من الأولياء والتدسين . »



المريد جمال الدين الأفغانى

(م ٥ — أهدى لاله ج ٢)

وسمى ذلك أن محمد عبده ولد مرتين ، وأنه في الأخيرة ولد من أب روجي
عظيم هو السيد جمال الدين الأفغانى .

حسبنا ذلك حديثاً عن نفاه محمد عبده لثقل إلى الحديث عن :

المعلم الثانى والعقدة التركىة :

هناك ظاهرة نفسية طبعت المصر الذى عاش فيه الشيخ محمد عبده . وقد جاءت
هذه الظاهرة النفسية من أن ذلك العصر — والشيخ محمد عبده غير من يمثل في
الحقيقة — شهد نوعين قاسيين من أنواع النفوذ الأجنبي وهما :

النفوذ التركى من جهة ، والنفوذ الأوروبى من جهة ثانية ، أما النفوذ التركى
فيمثل في الطبقة الحاكمة من لدن محمد على إلى عهد إسماعيل فتوفيق فمباس على
الثانى .

وهؤلاء الثلاثة هم الحكام الشرعيون الذين اتصل بهم محمد عبده في حياته ، وأما
النفوذ الأوروبى فيمثل في الاحتلال البريطانى الذى منيت به البلاد فور انضمام
البرايين للإنجليز كما هو معروف في التاريخ .

والمهم في نظرنا الآن هو النفوذ الأول ونعنى به النفوذ التركى :

كان محمد عبده يكره من أحماق قلبه جميع أفراد الأسرة الحاكمة . ويستند في
قراءة نفسه أنها قد أساءت إلى مصر إساءة بالغة ولا يستثنى منهم أحداً حتى
(محمد على) نفسه . فينكر عليه كل شيء ، ولا يعترف له بشيء . وكان يرى أن من
الخير لمصر أن تتخلص من هذه الأسرة في أقرب وقت .

وكن يرى هذا رأى نفسه كذلك أصحاب الإمام وتلاميذه من أمثال :
عبد الله التديم ، وأحمد عرابى ، ولزهرى الثانى ، والشيخ أبى خنطرة ، والشيخ
عبد الكريم سليمان وحسن طاهر ، وسعد زغلول ، وقنحى زغلول ، وقاسم أمين
والسيد رشيد رضا ، وأحمد لطفى السيد .

وكن أكثر هؤلاء يؤلفون في الواقع مذهباً في السياسة المصرية أو حزباً من

أحزابها كان يسمى «حزب الفلاح» أو «حزب الفلاحين» ومهم عرابي وسائر ضباط الجيش، وكان يقابل ذلك مذهب آخر أو حزب آخر، هو «حزب الشراكة» .

وكن حزب الشراكة هذا ينتم إليه كثيراً من الباشوات ورؤساء الوزارات ومهم رجال القصر والقواد الأتراك في الجيش وغيرهم . ولذا كان يطلق عليه «حزب السرائ» وكان هذا الحزب الآخر يتمتع بالمناصب العالية، والحياة المرفهة والإقطاع الوافر . على حين كن رجال الحزب الأول - وهو حزب الفلاحين - يعانون الحرمان، والظلم، والاحتقار، والسخرية من جانب الأتراك الشراكة ، والنظر إلى المصريين على أنهم صيد أى صيد ١١١ ومن هنا نشأ في نفوس المصريين ما يمكن أن نسميه « بالعقدة الشركية » التي ظهرت آثارها أقوى ما تكون في أصحاب النفوس الأدبية من أمثال الشيخ محمد عبده وتلاميذه والخطابين في حبه من رجال الحزب الذي أشرنا إليه من قبل ، وهو حزب الفلاحين .

مواهب العقلية والنفسية

كان لا بد لنا من الإشارة إلى هذه العقدة الشركية قبل أن نخوض في الحديث عن مواهب الفصح الأستاذ العقلية والنفسية والخلقية ، وأما هذه المواهب فيمكن أن نتلخص في ثلاث :

الأولى منها المواهب : أن عقلية الشيخ محمد عبده كانت عقلية تطورية إذا قرنت بعقلية السيد جمال الدين الأفغانى ، وهى عقلية تورية .

والثانية من هذه المواهب أن الشيخ محمد عبده كان معلماً بطبعه شديد الإيمان بالآتية والتعليم وبقدرتهما على تفكيك الشعوب وخلقها من جديد . وبأنه لا شيء غير التربية في نظره بقادر على الوصول بالآمة إلى هذه الغاية ...

والثالثة من هذه المواهب هى جرأة الشيخ وشجاعته النفسية إلى الحد الذى أدهج الحكام الشرعيين ، وأدهش الإنجليز أنفسهم ، وكان بسببه موضعاً لاحترام

الجميع من أصدقائه وأعدائه في وقت مما وسنحاول أن نشرح كل واحدة من هذه المواهب على حدة .

الموهبة الأولى أو العقلية التطورية :

كان الشيخ محمد عبده من أكثر الناس إيماناً بالتدريج ، وكان يرى أن طبيعة الأشياء تأتي بالطفرة . ولذلك لم يكن من المؤمنين أول الأمر بالثورة العرابية ، ولكنه انغمس إليها بعد ذلك لكي يحى المستور الذي طالبت به هذه الثورة .

كان محمد عبده إذا فوس إلى أستاذه السيد جمال الدين يبدو غافلاً له كل المخالفة فإذا كان الشيخ ذا عقل تطوري - كما قلنا - فإن السيد جمال الدين كان ذا عقل ثوري بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . واجتمع الأستاذ والتلميذ في باريس في فترة من فترات حياتهما (بل حياة الأمة العربية) وفكر الرجلان في أمثل الطرق لإصلاح البلاد الشرقية الإسلامية ، فكان من رأى الإمام الشيخ محمد عبده أن ذلك لا يكون إلا بإنشاء ماسماه « مدرسة الزعماء » لتخريج المصلحين والقادة من يحصلون صبب الإصلاح في كل بلد من بلاد الشرق ولكن هذا رأى أسخط عليه السيد جمال الدين الذي لا يعرف الإبطاء سبيلاً من سبل الإصلاح أو التجديد . فقال لتلميذه يومئذ إنك لمتبط . واقترح عليه أن يشرعاً في الحال في إنشاء مجلة « العروة الوثقى » .

الموهبة الثانية أو طبيعة المعلم :

نعم - كان الشيخ يؤمن بإيماناً راسخاً أن إنقاذ أمة من الأمم لا يكون إلا على أساس قوم من التربية والتعليم . كان يؤمن بأن عمل السنين في تربية الأمة وتعليمها لن يضيع سدى ولن ينعم عليه العاملون ، ولن تنعم عليه الأمة نفسها . فإذا أريد لأمة من الأمم المغلوبة على أمرها أن تال استقلالها فما على قادتها والمصلحين من أبنائها إلا أن يدردوا هذه الأمة بأدوات الاستقلال . وما أدوات الاستقلال هنا إلا التربية والتعليم ، وقد أثر الشيخ بتفكيره هذه في تلاميذه من بعده . وكان من نتيجة ذلك أن تألف في مصر حزب سياسي يدعى « حزب الأمة »

ولهذا الحزب صحيفة خاصة به هي «الجريدة» التي كان يتولى تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد . وكانت سياسته فيها تقوم على نظرية الأستاذ الإمام . وهي النظرية القائلة بتزويد الأمة بأدوات الاستقلال . وهي هنا العلم والخلق وتربية الكرامة والشعور بالمسؤولية ، وسنزيد هذه الموهبة توضيحاً عند الكلام من جهود محمد عبد الصغية .

الموهبة الثالثة أو شجاعة الشيخ النفسية :

يبدو أن السبب الحقيقي في قوة نفس الشيخ وجرأته كما قال الأستاذ العقاد هو «التصوف» . والتصوف في ذاته قوة هائلة تميل بصاحبها إلى احتقار الماديات مهما كان شأنها وتقدير المنويات التي يخفق على الإنسان العادي قدرها . وبسبب هذه القوة كان أسلافنا من علماء الدين مصدر خطر كبير على الملوك والأمراء والسلاطين .

سئل الشيخ عزالدين بن عبد السلام أحد علماء الماليك في ذلك ، لكان يقول : «لأنني حين أستمطر هيئة الله تعالى في نفسي وأنا في حضرة السلطان يتمثل لي في صورة لا تزبد على القطر» .

وشبه بذلك تماماً ما حدث لكل من السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده . حكى عن جمال الدين أنه كان يصب بعبات سبحة في حضرة السلطان عبد الحميد ونهه رئيس الديوان إلى قواعد القسيفة فأجاب به جمال الدين ساخراً : «صه يا هذا .. إن السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليوناً من بني آدم . أفلا يلعب بجمال الدين بثلاثين حبة من حبات هذه السبحة ؟» .

أما الشيخ محمد عبده فكان الحديو عباس حلي الثاني كثيراً ما يشكو من مسلكه في حضرته ويقول عنه ، إنه يدخل على " كانه فرعون " وكان الشيخ محمد عبده يضطك من هذه العبارة ويقول «أيتا فرعون أنا أم هو ؟» .

ثم إن شجاعة الأستاذ الإمام كانت هي الشجاعة التي يتبناها الفلاسفة والأخلاقون فهم يقولون «إن الفضيلة وسط بين طرفين» . أي أن شجاعة الشيخ كانت وسطاً بين الخوف والتهور وبين الجبن والانقطاع .

وكما يقول الأستاذ المقاد « الواقع إن تاريخ الشيخ محمد عبده في خدمة القضية القومية هو تاريخ الإقدام إلى أقصى حدوده . ولكنه لم يكن قط تاريخ الاندفاع أو الخفة أو العجلة ونحو ذلك . كلن أشد أصحاب إقداماً في ممارسة الثورة הראية حين عارضها . وكلن أشدم إقداماً في تأييدها حين أيدها . ولما وقع المخطور ودخل الإنجليز مصر محتلين ، ونفى محمد عبده عن الوطن كلن هذا المنفى عن وطنه أسبق أصحابه إلى عاصمة الدولة الإنجليزية ليعلمن الحرب على الاحتلال في صقر داره . »
فلإذ ذاك طالب الشيخ في لندن بجملاء الإنجليز . وقال لهم يؤمنند : لقد شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا . لكننا الآن نعلم أن هناك ما هو شر من الأتراك وليس في مصر من بلغ به الظلم حداً يرجو معه مساعدتكم . إن لنا إليكم رجاء واحداً وهو أن تنادوا ببلادنا حالاً وإلى غير رجعة . »

وفي عاصمة الإنجليز لم يأل الشيخ جهداً كذلك في الجهر بعداوته لتوفيق فقال
هنا إذ ذاك :

« إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة . لأنه مهد لدخولكم بلادنا . ودجمل مثله انضم إلى أعدائنا في الحرب لا يمكن أن نشر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرتا له ذنبه . »

لنا لا تريد خونة ؛ وجوهم مصرية وقلوبهم إنجليزية . » قال ذلك في المنفى وهو لا يخشى أن يطول به النفي إلى أبعد مما قرره المحتل ، إلى هذا الحد (وأكثر منه) بلغت شجاعة الشيخ وهي شجاعة تذكركنا — كما قلت — بمراقب أسلافنا من علماء الدين من كانت تهاجم الملوك والسلاطين .

ولمحمد عبده حياة رسمية . وأخرى غير رسمية ، ولاتهمنا الأولى ، وإنما تهمننا الثانية ، ومع ذلك فيمكن أن نعلم عن حياته الأولى أنه اشتغل بالتدريس في الأزهر ، والتدريس بدارالعلوم ثم عينه رياض باشا رئيساً لتحرير الوقائع المصرية الرسمية وذلك في أكتوبر سنة ١٨٨٠ . وكلن ذلك بتوصية من محمود ساي البازدي ، رئيساً لإدارة المطبوعات في نظارة الداخلية ، ثم قامت الثورة



المصرية ، وثقى عن الديار
المصرية ، ثم عاد إليها ،
وعين قاضياً بالحكام الأهلية ،
مع أنه كان يرهف أن يعود
مدوناً كما كان ، ولكن الإنجليز
عاقبوا من اتصاه بالطلبة ،
وأخيراً وصل إليه من
الوظائف الحكومية وظيفة
مفتي الديار المصرية ، وفي
الأزهر الشريف قام الشيخ على
تدريس المنطق والفلسفة
والتوحيد ، وفي دار العلوم

رياض باشا

قام على تدريس التاريخ . قرأ على طلبتها مقسمة ابن خلدون ، وعمل من قراءة
كتب التاريخ المعروفة . وكان الشيخ في هذه الاتجاهات كلها يتأثر بأستاذه السيد
جمال الدين ، غير أن تأثره به لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى الكتابة في
الصحف ، فبدأ الشيخ بجريدة الأهرام وهو بعد طالب في الأزهر ، ثم قال شهادة
العالمية واتصل برياض باشا فعهد إليه في تحرير الوقائع المصرية . ثم قامت الثورة
المصرية وبلغت الغاية منها ، وقبض على زعمائها وقيم محمد عبده ، فتلى إلى بيروت
حيث بقي ثلاث سنوات إلى أن دعاه السيد جمال الدين إلى باريس . وهناك
اشترك الشيخ والخواص في تحرير «العروة الوثقى» . ثم عادت الظروف بالشيخ مرة
أخرى إلى بيروت ، فاشتغل فيها بالتدريس بالمدرسة السلطانية ، وبالتحرير في
جريدة يقال لها « ثمرات الفنون »

ويسبق ذلك أن الشيخ كتب في هذه الجرائد الأربع ، وهي : الأهرام ،
والوقائع المصرية ، والعروة الوثقى ، وثمرات الفنون .

لذا كتابه ذكره في هذه الصحف وما الأهداف التي كان يرمى إليها ؟

دعوة الأستاذ الإمام إلى الإصلاح

لخص الشيخ دعوته إلى الإصلاح بنفسه ، فقال : « ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى بنيائهما الأولى ، واعتباره من ضمن موارد العقل البشري التي وضعها الله لرد من شططه ، وتقل من خطئه وخطئه ، وإثباته على هذا الوجه بمد صدق العلم ، باعثة على البحث في أسرار الكون ، داعية إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبة بالتحويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل .

والأمر الثاني : إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء كان في الخطابات الرسمية . أو في المراسلات بين الناس ، وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يجه الذوق ، وتسكره لغة العرب :

الأول : ما كان مستملا في مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات وث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم - لا في صورته ولا في مادته .

والنوع الثاني : ما كان يستعمله الأدباء والمخرجون من الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان بارداً ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس ، وإن كان رديئاً في الذوق ، بعيداً عن الفهم . ثقيل على السمع ، غير مؤد المعنى المقصود .

وهناك أمر آخر كنت من دعائه ، والناس جميعاً في عى عنه ، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بظن مجتمعتهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ،

وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، نعم — كنت قيسن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد على عشرين قرناً ، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته — هو من البشر الذين يخطئون ، وتطلبهم شهواتهم ، وأنه لا يبرده عن خطئه ولا يقف لطنين شهوته إلا نصيح الأمة له بالقول والفعل ، جهرت بهذا القول والاستعداد لى صفوفه ، والظالم قابض على صولجائه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم بعيد له أى بعيد .

ولم أكن فى ذلك الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح البعوضة ، وهى لا تزال فى كثير مما ذكرت تأتبع ولا أبرح أدعو إلى هيدنى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة ، وقد قارب .

أما أمر الحكومة والمحكوم ، فتركه القدر يقدره . وليد الله بعد ذلك تدبيرة ، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تمنحها الأمة من غراس تفرسه ، وتقوم على تربيته السنون الطوال ، لهذا الغراس هو الذى يبنى أن يعنى به الآن ، واقع المستمان (١) .
ومع هذا وذاك فالثابت فى التاريخ أن محمد عبده حاول الاشتراك فى الحوادث التى أفضت إلى خلع إسماعيل . وفى ذلك يقول الشيخ فى مذكراته :

أما ما قاله عرابى بصدد خلع إسماعيل وأنه اقترح ذلك فأقول إنه من المؤكد أننا كنا تسكلم سراً فى هذا الشأن . وكان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع . واقترح على أنا أرب أقتل إسماعيل . وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاماً تهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقاً الواقعة كلها على قتل إسماعيل . لكن كان يتقصدنا من يقودنا فى هذه الحركة . ولو أننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكن عمله ولكن يمنع تدخل أودوا .

ولم يكن من المستطاع فى ذلك الوقت تأسيس جمهورية إذا نظرنا إلى حالة الجهل

الذي كان سائداً على العقول^(١).

ومن السهل علينا بعد قراءة هذه العبارة أن نرى أن لدعوته هذه ثلاث شعب :

شعبة دينية ، وشعبة أدبية ، وشعبة سياسية . وهي مرتبة هنا بحسب ميول الشيخ واستعداده ، وبحسب استئثار هذه الشعب بعبائنه وروايته . أي أن الهدف الأول من أهداف الإمام كان هو الإصلاح الديني ، وأن الهدف الذي يلي ذلك في الأهمية هو الإصلاح القوي أو الأدبي

وأما الهدف السياسي فلم يكن له ميل كبير إليه ، ولا احتفال كبير به . ومن ثم كان الشيخ لا ينشط نشاطاً سياسياً حراً إلا حين كان يتصل بأستاذه السيد جمال الدين الأفغاني .

وقد كان السيد رجلاً سياسياً بطبعه قبل كل شيء ، وكان إذا التقى بتلميذه الشيخ دفعه بقوة إلى الميدان السياسي . وكان الشيخ نفسه يسير بقوة هذه الدفعة ، حتى تحول الظروف بينه وبين أستاذه ، فإذا الشيخ يعود إلى هدوئه وسكونه ، ويغوص في أمور تتفق وميوله المتأصلة في قرارة نفسه . وهي الرغبة في الإصلاحين الديني والأدبي .

وذلك ما يفسر لنا الخصومة العنيفة التي كانت بين الشيخ وبين عرابي أولاً ، ثم بينه وبين مصطفى كامل والحزب الوطني ثانياً ، ثم بينه وبين الحنديو عباس الثاني آخر الأمر .

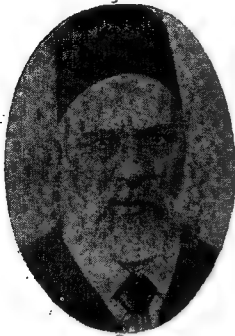
فأما العداوة بينه وبين عرابي فصدها أن عهد عبده لم يكن يرضى أن يكون زعماً الثورة من العسكريين غير المتقنين ، غير أن عهد عبده أكرهه لإكراهها على المخول في الثورة ، حتى انتهى الأمر بنفيه إلى بيروت .

وفي ذلك يقول عهد عبده :

« ولكن الثورة لم تكن من رأيي . وكنت قائم بالحصول على الدستور في ظرف خمس سنوات . فلم أوافق عرابي على حول رياض في سبتمبر سنة ١٨٨٠ . وقبل مظاهرة طاهدين بشرة أيام التقيت عرابي في دار طلبة عصمت . وكان قد

(١) راجع كتاب (سر أساطير الإنجليز في مصر) لفرانسواز بلانكو الترجمة العربية من ٢٠٠٤ .

جاء مع عرابي لطيف بك سليم . وكان هناك عدد كبير من الوائرين : فقصصت
لعرابي بالاعتدال وقلت له :
إني أرى أن بلاداً أجنبية
ستحتل بلادنا ، وأن لجنة الله
ستقع على رأس من يكون السبب
في ذلك . فأجابني عرابي بأنه
يرجو ألا تقع هذه اللجنة عليه .
وقال إن سلطان باشا وعده بأن
سيحضر له ممراتش لطلب
المستور من جميع الأحياء
وكان هذا صحيحاً . . ولكن لما
منع المستور انضمامنا إلى الثورة
لكن نسمى المستور ، (١) .



أحمد عرابي

وأما عداوته لمصطفى كامل والحزب الوطني ، فصدرها الخلاف بين الرجلين
في وجهة النظر السياسية ، فقد كان محمد عبده من يؤمنون بالتدريج في الإصلاح
السياسي ، ومن يؤثرون اللين ومسايرة الواقع من الأمور ، حتى يكسب المصريون
من الإنجليز الأتقواء . عن هذا الطريق أضعاف ما يكسبون منهم بطريق القوة
التي لا تجدي شيئاً . وكان مصطفى كامل يرى على العكس من ذلك أن الإصلاح
السياسي لا يبدأ في مصر إلا بذهاب الاحتلال الإنجليزي .

وأما عداوته للشيخ محمد عبده للحدود عباس الثاني فصدرها محاولة الشيخ
الحفاظ على علاقته الطيبة بالإنجليز ، وعلاقته الطيبة بالحدود في وقت معاً .
وكان الجمع بين هذين الأمرين يؤمنه من الأشياء التي تؤشك أن تكون مستحيلة ،
فإذا أضيف إلى ذلك معارضة الشيخ محمد عبده معارضة قوية وشريفة في رغبة
الحدود في أن يستبدل نفسه أرحماً من الأوقاف عرفت السبب الذي من أجله

(١) راجع كتاب (سر احتلال الإنجليز لمصر) مؤلفه المرحوم دكتور التريجة العربية ص ٢٦٠

اغتاظ الخديو ، وم بهزله من وظيفة مفتى الديار المصرية لولا اعتراض اللورد كرومر على ذلك ، مما اضطر الخديو إلى العدول عما عزم عليه

وما دمتا يصدد العداوة التي متى بها الشيخ محمد عبده ، فلا تنسى أن تذكر أنه كان من أعدائه كذلك الأزهر منذ استعان به الخديو عباس الثاني في السكيد للشيخ محمد عبده ، مع أن الشيخ هاشم مجاهد في إصلاح الأزهر . وسلك في سبيل ذلك كل طريق حتى طريق الإنجليز ، وذلك في وقت ضاقت فيه بالشيخ الحيل ، وسدت أمامه الأبواب ، وكان الخديو يختصمه ، والشعب من جانبيه لا ينهمه ، فلجأ إلى كرومر عملاً بالحكمة القائلة (الغاية تبرر الوسطة) ، ومع ذلك فإن الأزهر لم ين في لحظة من حياته عن قلب الشيخ ، ورميه بأشنع التهم التي من أيسرها يومئذ اتهامه بالكفر والخروج عن الإسلام .

ولم لا يكون الفصح كافرأ في نظر الأزهرين ؟

أليس هو الذي ألقى بلبس القنبعة ؟ ثم أليس هو الذي ألقى مسلمي الترسانة في بحر يضرب على رأسه حتى تضعف مقاومته ثم يذهب دون أن يذكر اسم الله عليه ، فأحله لهم ؟

ثم أليس هو الذي يدهو الأزهر أن يشكر قديمه ، ويلبس للعالم الإسلامي ثوباً جديداً غير الثوب الذي أبلاه ؟

ألم يعترض عليه أحد أعضاء المجلس الأعلى للأزهر ، وهو الشيخ البحري بقوله مستنكراً « ألم تعلم أنت في الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقب العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟ » فأجاب الإمام بقوله « إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر ، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكلت من دماغى ما خلق به من وساخة الأزهر ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة » .

والخلاصة أن الشيخ محمد عبده لم يصادف من التوفيق في الميدان السياسي ما كان يؤمله ، وذلك معنى قوله :

« وأما أمر الحكومة والمحكوم فتركته لتقديره ، وليد الله بعد ذلك تدبره . . إلخ » .

ولكن ليس معنى ذلك أننا نفضله ، ونفكر عليه جهاده في هذه الناحية ،
أو نظن أنه كان يحسن الإنجليز حبه ، ويؤثرهم بصداقته . كلا - فلقد كان
الشيخ بيني علاقته هؤلاء على المداراة . وكان لا يطمع في أكثر من أن تصل
دعوته بالشعب المصري ، لا يحول دون وصولها إليه حائل سياسي أو اجتماعي .
سافر الشيخ مرة إلى لندن لإقناع الإنجليز بالفتنة المصرية وهناك أنهى
إلى مراسل جريدة إنجليزية بقوله في حق الخديو :

إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل
مثله انضم إلى أعدائنا في الحرب لا يمكن أن نضر نحوه بأذى احترام . ومع هذا
إذا قم على ما فرط منه ، وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه . إننا
لا نريد خوة ، وجورهم وقلوبهم إنجليزية (١) .

فليس من العقول أن يكون هذا كلام رجل يهتم بحب الإنجليز ، أو الرضا
ببقائهم في أرض مصر يشربون فيها من ماء النيل (٢) .

• • •

وأما الهدف الديني من أعداد الأستاذ الإمام ، فقد توصل إليه بأمرشقي ،
منها الدروس التي كان يلقيها في الأزهر الشريف في هذه حياته ، ثم في فترات
متقطعة تبدأ فيها العاصفة .

ومنها الكتابة في الصحف ، وبنوع خاص صحيفة الوقائع المصرية - كما سنرى
بعد ، ومنها الرد على الفلاسفة مثل هانوتو ، وعلى الكتاب مثل فرح أنطون (٣)

(١) زعماء الإصلاح ص ٣١٦ .

(٢) للدكتور بحث بعنوان « الفتنة المصرية عند مدرسة محمد عبده وآثرها في الصحافة
هذه المدرسة » وضع فيها سياسة محمد عبده نحو الخديو ونحو الإنجليز . راجع مجلة كلية
الآداب عدد ديسمبر سنة ١٩٥٧ .

(٣) رد الأستاذ الإمام على هانوتو في مقال له في أواخر سنة ١٩٠٠ . ومن مجموع ردوده
على هانوتو تألف له كتابه (الإسلام والنصرانية) ورد الأستاذ الإمام كذلك على فرح
أنطون في مقال له في مجلة الجامعة عن ابن رشد ذهب فيه إلى أن المسيحية كانت أوسع
سدراً للفلسفة من الإسلام .

ومنها الفتاوى التي كان يصدرها بين الحين والحين ، قتل على فهمه الصحيح الدين ، أو على الأقل على رغبة صادقة في الاجتهاد الذي أغلق الأزهريون بابه منذ زمن قديم .

ومنها جهاده المرير في إصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وهو جهاد اقترن بالاضطهاد الذي لقيه الشيخ من جانب الأزهرين أنفسهم تارة ، وجانب الخديو تارة أخرى ، وجانب الشعب عن طريق الجرائد الموالية آخر الأمر .

غير أن الوسيلة الأولى من هذه الوسائل كلها تبين أنها الوسيلة السليمة المأمونة العاقبة . ونفى بها الدروس التي اتصل فيها اتصالاً مباشراً بطلبة العلم في الأزهر الشريف . وهناك كان يلقى الأستاذ الإمام عليهم درساً في « التفسير » . فاعتمد الشيخ على هذا الدرس اعتياداً تاماً في شرح عقائد الدين ، ومحاربة البدع التي أقبلت هذا الدين ، ثم في التوفيق بينه وبين العلم الحديث والمدنية الحديثة .

ولقد وفق الأستاذ الإمام في هذه الدروس توفيقاً وصل به إلى الذروة من مراتب المصلحين الدينيين ، وكان لدروسه أثر عظيم في نفوس كثير من المتدربين ، وفي قنن النصارى الذي تراكم على قلوبهم منذ قرون .

* * *

وأما الإصلاح القنوي أو الأدبي ، وهو ثاني المذهبين اللذين كتب فيهما النجاح التام للأستاذ الإمام ، فنرى الطرق التي سلكها فيه : طريقة إحياء الكتب القديمة ، وذلك بنشرها وشرحها من الوجهة القنوية . ونشر لذلك مقامات الحريري ، وكتاب نهج البلاغة ، وكتاب دلائل الإحجاز لمبدى القاهر المرحوم . وفي عام ١٣١٨ أسس بمصر جمعية برياسته سميت بجمعية إحياء الكتب العربية . وبدأت عملها بالفعل ف نشرت كتاب المخصص في اللغة لابن سيده ، وصهد بتصحيحه إلى القنوي المشهور الشيخ محمد محمود الشنتيفي .

ولاننى كذلك أن الأستاذ الإمام إذ عينه رياض باشا محرراً للوثائق المصرية ، وجعل له حق الإشراف على جميع ما يصدر في مصر من الكتب والمصنف ، كما جعل له الحق في انتقاد إدارات الحكومة . قد انتهت هذه الفرصة الثمينة « فكان

أول ما بدأ به باتتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والإدارات ، فأخذ يبين وجه الخل بها وأضرارها . فبهم الماني المطلوبة ، ثم يرسم الطريقة المثل التي يجب السير عليها . فلم تفسد أشبه قلية حتى ظهر فضل ذوي الإمام باللغة العربية من موظفي الحكومة . وحتهم رؤسائهم على مكاتبهم الجديدة الرسمية . واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استئناء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير (١) ، وقد أنفرد محمد عبده مرة مدير جريدة مشهورة بتحليل جريدته إذا لم يفرغها محسراً صحيح العبارة في مدة معينة .

ثم من الطرق التي سلكها في ذلك طريقة التدريس بمعاهد العلم . ونحن نعرف من تاريخ حياته أنه قام بتدريس الإنشاء في المدرسة النظامية ببغروت ، وأنه عهد إلى الأستاذ الموصفي بتدريس كتاب الكامل للبزدي وكتاب ديوان الحماسة ، لطلبة الأزهر . ولم يكن ذلك معروفاً من قبل .

وأخيراً كان من أجمع الوسائل التي اتخذها الإمام لإنهاض اللغة العربية من عشارها ، وإمدادها بالعلمة اللازمة لها في مسامرة العصر الحديث ، الكتابة والتحرير في الصحف العامة ، وهو هنا يبت التصيد من هذا التاريخ . فسرى أن مشاركة الإمام في الصحافة المصرية يمكن أن تعتبر تاريخاً لهذه الصحافة من الوجهة الفنية أو الأدبية ، وسرى أن قلم الشيخ محمد عبده كان من الأقلام التي راضت اللغة العربية في مصر رياضة حسنة قيمة ، عادت بالخير على هذه اللغة ، وذلك الأدب من جهة ، وعلى العقل المصري من جهة ثانية

* * *

وإن الشيخ لم يقتل بإصلاح الأزهر ، غارق في تفكيره في هذا الإصلاح ، وإذا بمركه تظهر بقتة في داخل الأزهر ، ويثور فيها بعض رجاله على مجلس إدارته ، وكان من أثر ذلك أن استقال السيد علي البيلاوي من المشيخة ، وعين الحندي مكانه الشيخ عبد الرحمن الشريفي ، وخطب الحندي في حفلة الإنعام عليه

خطبة كشفت عن حقه على الشيخ محمد صبيح ، فلم ير الشيخ بدأ من الاستقالة من مجلس إدارة الأزهر ، ومرض بعد ذلك ، وتقل عليه المرض ، فأت في الحادي عشر من شهر يوليو سنة ١٩٠٥ م .

وشيعت جنازته في احتفال رسمي مهيب ، اشترك فيه مجلس النظار ، وكان الحضور غائباً عن مصر ، فلما عاد إليها أنحى باللائمة على وزرائه الذين احتفلوا بمنازة الشيخ الإمام .

ليت شعري ما أشق المصلحين في كل زمان ومكان ! إنهم لكالشمعة التي تمحرق نفسها لتضيء الطريق للناس . ومع ذلك لا يكون نصيبها منهم غير اللئنة والاحتقار والمجهود والإنكار ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

هكذا حرمت مصر يومئذ شخصية قدة هي من أعظم شخصياتها وأقربها في القرن الماضي ، بل ربما كانت في عظمتها تلي مباشرة شخصية جمال الدين الأفندي .

الفصل الخامس

أسلوب محمد عبده

لقد كان الحجم فضل كبير على الكتابة العربية وهي في مهده طفولتها ، وقد أتى القرن الماضي دليلاً على أن الحجم فضلاً كبيراً على الكتابة العربية بعد إذ جاوزت دور شيخوختها .

كل النثر الفنى منذ القرن الثانى للهجرة ويذب الفرس وصليحتهم ، ودليلاً ثابتاً على سابق مجدهم وحضارتهم . فقد نشأ هذا النثر العربى نشأة عربية خالصة منذ ظهور الإسلام ، ثم تأثر هذا النثر العربى بالحضارات الأجنبية التى اشتركت فى بناء الحضارة الإسلامية ، وبعد أن كان ذلك النثر العربى أميل إلى البساطة والسذاجة التى طبع عليها العرب ، أصبح أميل إلى المنطق والإغرف اللذين اقتضتهما الحضارات الأجنبية .

أما فى القرن الماضى فقد وجدنا السيد جمال الدين الأفغانى — وهو رجل من الأفغانستان غريب عن اللغة العربية ، أجنبى عن الأدب العربى ، لم يحصل علمهما إلا بطريق التعلم — يترك فى الأسلوب الأدبى أثراً لا يمحى من حيث يقصد السيد أولاً يقصد . بل وجدنا ظهور السيد فى مصر يعتبر نقطة تحول عظيم فى الحركة الأدبية ، كما كانت نقطة تحول كبير فى الحركة السياسية .

وكذلك العظيم فى الأمة يهتدى الله به من الخلق ، وينير به من أوضاع الكون ما لو عرفه العظيم من نفسه لماله الأمر ، وصحب من قدرة الله تعالى حين يريد بالإناس الخير . ولقد كان من أنجب تلاميذ السيد جمال الدين رجل مصرى المولد ، أزهى النشأة ، هو الشيخ محمد عبده . تحركت فى نفسه الرغبة فى الكتابة الصحفية

منذ كان طالباً في الأزهر أو على الأصح منذ كان يحتل من وقت الأزهر ساعات يقضيها في الاستماع إلى السيد جمال الدين . وقد شهد الشيخ يومئذ ميلاد صحيفة كانت من أعظم صحف مصر والشرق فيما بعد ، وهي صحيفة الأهرام . فبعث إليها بقرينة قبلت الصحيفة منه شاكرة ومقدرة ، ومنذ يومئذ والشيخ يكتب في الأهرام ، فأتيحت له بذلك فرصة من أتمن الفرص ، حلته على التجرّد للكتابة في الصحيفة ، وترويض قلبه على هذه الصناعة الجديدة في وقت كان فيه الأزهريون لا يحسن أفهم طريقة أن يكتب أربعة سطور باللغة العربية السليمة . ونحن إذ ننظر في مقالات الأستاذ الإمام منذ ذلك التاريخ إلى أن توفاه الله ، نرى أن هذه المقالات تجري - كما يقول الأستاذ الشيخ وشيد رضا - في أربع مراحل :

أولاً : ما كتبه الشيخ محمد عبده في عهد طلب العلم بالأزهر ، وذلك بإرشاد السيد جمال الدين الأفغاني في الغالب .

والثانية : ما نشره بعد دخوله في طور العمل وتصديه لإصلاح الحكومة والأمة . وهو ما نشر في جريدة الوقائع المصرية الرسمية .

والثالثة : ما كتبه بعد نفيه من مصر بالاشتراك مع أستاذه جمال الدين الأفغاني ، وهو ما نشر بإريس في جريدة « العروة الوثقى » .

والرابعة : ما نشره بعد ذلك ، أي بعد عودته من المنفى ، من شتى المقالات في الصحف السورية والمصرية .

ولنتقف وقفة قصيرة عند كل مرحلة من هذه المراحل

المرحلة الأولى

ويمكن أن يقال إن المرحلة الأولى من هذه المراحل كانت لاهيئة والإعداد ، وفيها - كما سنرى من ثابا التناجز التي سنعرضها من كتابة الشيخ - نجسد أسلوب شاب مبتدئ يحاول في أول أمره أن يقد طريقة المتأدبين في رده ،

فيتحرى السجع في الكتابة ، ويملا مقاله بطائفة من الألفاظ الغريبة الغريبة ، والتعديبات التي ربما لا يستريح القارئ الحديث إلى الكثير منها ، كما يصطنع التعميرات التي حاول فيها الأخذ من العلوم الحديثة ، وإن كان لم يحسن بعد هذا الأخذ على الوجه الذي يرضى النوق .

ومع هذا وذلك كان الشيخ المبتدىء في المرحلة الأولى من الكتابة طويلاً النفس في العبارة ، يحاول أن يحل أسلوب الكتاب المفتونين بالسجع في القرن الرابع الهجري . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حسن استعداد الرجل للكتابة ، أضف إلى ذلك أن معاني الشيخ في مقالات المرحلة الأولى كانت غزيرة ، لأن أكثر هذه المعاني كان مأخوذاً من السيد جمال الدين - فإن دل ذلك أيضاً على شيء ، فإنما يدل على حسن استعداد الشيخ للإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي

وخير لنا بعد ذلك أن نعرض لقارئ نموذجاً لكتابه في هذه المرحلة ، وأن نشير بعد ذلك إلى البقية من مقالات هذه المرحلة إشارة موجزة .

كان الشيخ مجاوراً في الأزهر حين اتصل بهجريدة الأهرام الأسبوعية ونشر مقاله في العدد الخامس من السنة الأولى لهذه الجريدة ، وذلك في سبتمبر سنة ١٨٧٦ م الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ ؛ وكان موضوع المقال تقرير جريدة الأهرام ، قال :

النموذج الأول

في تقرير الأهرام

إنه لما ظهر لدى كل قاص ودان ، واشتهر بين بني نوع الإنسان ، أن يملكه معركات في سالة الإيمان ، يملكه من أشهر الممالك ، وكمية يؤمها كل سالك وناسك ، إذ كانت قد اختصت بشر العلوم ، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة في الصنائع ، والابتكار في أنواع البدائع ؛ فكان أبناء العالم إذ ذاك يتحدون ندامها ، ويستجدون جدامها ، يستملرون من الفيت

قطراً ، ويستمدون من المحيط نهراً ، فكان التمدن فيها كطلا ، حين كان عند غيرهما طفلاً . ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن . ولا عجب ، إذ رأى الطالبين تسلسل إليه من كل حذب ، وأن ملوك الأرض خدام عتبه ، وتيجان السكانيين تحت قبضته فاستكبر واعتلى ، ولكثوس الراحة اجتملى ، فأقصته إلى ممالك الغرب . ليندوق مرارة السخط أو اللغب ، ويربى بذلك ويتأدب . فبدأ بتلك الممالك غريباً ، ونادى معلماً فوجد عجيباً ، وتناوشته أيدي الجاحدين ولفحته أقوال المنكرين . ولا زال يحتمل أنواع المتاعب ، ويقامى مستحبات المصائب ، إلى أن بلغ بها أشده . وملك رشده ، وساد فيها شرقاً وغرباً ، وعامر ألباب القوم حباً ، فعم انتفاضه ، وبعث آثاره ، وتلايلات أنواره ، ولذا تحلى بحلل الجمال وتزوج بتاج الكمال ، ونفى مدة السياحة ، وباء بنهاية الراحة ، استدار الزمان كيئته . ورجع الأمر إلى بدايته ، وقفل التمدن إلى مسقط رأسه ومقر تربته ، فورد ديار مصر وروود الأمل ، وتمكن بها تمكن الأصل ، فاحتبلته الديار بنهاية المرة ، وأكرمت مثواه وأعظمت أمره ، واستردت ما كانت فقدت ، وأدنت ما كانت أنأت ، وأحلته محل القرب ، وأنزلته سويداء اللب ، فقام يؤدي حق خدمتها ، ويوفى شكر كرامتها ، فنظر إلى ما كان أبداه في تلك الأزمان ، من شواغل البليان ، التي لم بلغت الأسباب ، وحوادث الألباب ، وأنبات بما فيها من زراعة بانيتها ، ونضقت بفيها ، أن آيات السكال فيها . فلما أصعب بالمثال ، حدها حادى السكال ، لأن يسبح عن هذا المنوال ، فأنفأ لنا (جريدة الأهرام) ، المؤسسة على أسسكم قواعد الأحكام ، الكافلة بإرشاد المسترشدين وتنبية الغافلين ، بما فيها من المباني الرقيقة ، والمعاني النقية ، والأفكار العالية ، المؤيدة بالبراهين الثابتة ، القائمة بنشر العلوم بين المعموم . فبالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الثيوب ، تنادى بمقالها وحلها : حتى على الفلاح ، وطمعوا إلى موارد التجاح ، لا تفقوا عند صورة المبنى ، ولكن تجاوزوا عنه إلى المعنى تلك أهرام أشباح ، وهذه غذاء أرواح . تلك ظواهر صور ، وهذه دقائق عبر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان سر المياوات . نعم أمين ذلك الزمان ، من هذا الآن ، الذي قد سطعت فيه شمس العرفان ونفا فيه

بنو الإنسان نشأة أخرى ، وتقلب في فنون الحقائق بطناً وظهراً أن تكون أماناً
غير أيامهم ، وأهرامنا غير أهرامهم وأين الذي تقنيه الرياح والأمطار ؛ من
الذي لا يوهنه توالي المدد والأعصار ، فإن مرقه العقول العاليات ، والنفوس
الوكيات ، التي لا يتناولها الفناء . ولا يبتلها العنا . فيخرج بعثتها ، وطوبى لقاربها .
ومن الواجب على ذوى الألباب أن يجتنبوا جناها ، وأن يستطلعوا سر معناها ،
فيبوءوا بأفوار الحكمة ، وينقلبوا بفضل من الله ونعمة ، فإنه ليس شيء لدى العاقل
أبهى من حقيقة يكشفها ، ولا ألد من حكمة يصادفها .

هذا إيجاز في مزاياها ، بسم الله مجراها ومرساها . آه

والقارئ لهذا المقال يلاحظ — كما قدمنا — أنه بقي على سجع متكلف ،
من أوله إلى آخره ، وأن فيه إثارة التراكيب القديمة مثل قوله بخر بخر ، وقوله . .
تنادى بمقالها وحالها حتى على الفلاح ؛ كما يلاحظ أنه بقي كذلك على التخييل
إذ فيه تخييل الكاتب رحلة القند من مصر إلى أوديا ، ثم عودته إلى مصر
مرة أخرى حيث لقي من الإكرام ما انطلق لسانه بالفكر لها ، والإعجاب
بأهرامها ، فآلى على نفسه أن يبقى فيها أهرامها أخرى ، هي هذه الجريدة التي جاءه
الشيخ يقرظها بأسلوب المبتدىء ، حتى لكأنه شاعر في غرزمته (١) يطمح إلى مج
أدبي لم يتح له بعد .

وهكذا معنى الشيخ يد جريدة الأهرام بمقالاته من العدد الخامس إلى العدد
الواحد والأربعين . ونال في أثناء ذلك شهادة العالمية من الدرجة الثانية ، وذلك
عام ١٢٩٤ هـ ونشر في أثناء ذلك أيضاً مقالين له في جريدة (مصر) لصاحبها
أديب إسحاق ، أولاهما بعنوان (فلسفة التربية) والثانية بعنوان (فلسفة
الصناعة) وهما خلاصة درسين من دروس السيد جمال الدين الأفغاني لا أكثر
ولا أقل . ومن ثم لم يلتزم الشيخ السجع فيها طويلاً ، لأن حرصه على نقل أفكار
أستاذه كان يستأثر بمجهود كله .

(١) الفريضة أول ما يقوله الشاعر من الشعر على سبيل المحاورة .

وعما كتبه بمريدة الأهرام في هذه المرحلة مقالة بعنوان (القلم والكتابة)
ومقالة بعنوان (المدير الإنساني والمدير العقلي الروحاني) ومقالة بعنوان (العلوم
الكلامية والعلوم المصرية) .

ونبه الشيخ وشيد رضا بعد ذلك إلى مقالة للأستاذ الإمام نشرت له بإحدى
المصنف في آخر يوليو عام ١٨٧٩ انتقد فيها الدولة العثمانية في عيبها باستقلال
تونس الإدائى ، ومحاولتها كذلك العبث بمقوق مصر وامتيازاتها عقب سقوط
إسماعيل وتولية توفيق . والشيخ في جميع هذه الفصول الأدبية السابقة يميل إلى
السمع يأخذ نفسه بالقراءة ، ويحاول الأخذ عن العلوم الحديثة على سبيل
(التوجيه) . والتوجيه نوح بلاهى يصطنع فيه الأدب ببعض المصطلحات
العلمية ، وكان الشيخ يحشو بعض كلامه بالحكم والأمثال ، وينزلق أحيانا
إلى استخدام الأسماء العامة .

والضاهد في قوله (طلبات الشرايين) فليست الحاجة ماسة إلى ذلك ،
أما من حيث الموضوع فالشيخ في كل ما كتب إلى الآن يوضح للناس فوائده
المصنف تارة ، وقيمة العلوم الحديثة تارة ، ويسخر من القنار الأذهر المنطقي
تارة ثالثة ، وينقد سياسة الدولة العلمية آخر الأمر ، وذلك فضلا عن تلخيصه دروس
جمال الدين .

المرحلة الثانية

وانتقل الشيخ محمد عبده بعد ذلك إلى الكتابة في الوقائع المصرية الرسمية
كارأينا ؛ وبتاريخ ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٧ هـ ، ١٩ أكتوبر سنة ١٨٨٠ م
كتب مقالاته الأولى بعنوان (حكومتنا والجمعيات الخيرية) ، ثم بعنوان
(احترام قوانين الحكومة وأوامرها من سادة الأمة) . ثم بعنوان (حب الفقر
وسفه الفلاح) وهكذا حتى المقالة السابعة عشرة ، وكان عنوانها (خطأ العقلاء)
ثم قامت الثورة العراقية فتحول الشيخ من المقالات الاجتماعية إلى المقالات
السياسية ، وكتب مقالاته الثانية والثلاثين بعنوان (الحياة السياسية) والثالثة

والثلاثين بعنوان (الشورى) ثم قبض عليه فيمن قبض عليهم من زعماء الثورة .

وقارىء هذه المقالات ملاحظات على الأسلوب ، وأخرى على الموضوع . فأما من حيث الأسلوب فقد عدل الشيخ عدولا ظاهرا في هذه المرحلة عن السجع ، ولكن إلى ما يسميه النقاد (بالازدواج) أو (الترادف الصوتي) وهو نوع من السجع لا يلتزم فيه القافية ، كما عدل الشيخ عن الألفاظ الغريبة التي كان يأتي بها أحيانا في مقاله من قبيل المبالاة ، إلى الألفاظ السهلة التي لا يجسد القارىء العادى في فهمها أدنى صعوبة ، كما توخى البساطة أيضا فيما أتى به من تشبيهات ، وفي مقاله (حب الفقر وسفه الفلاح) شبه المصرف بمن يصب ماء في حوض قمت في قاعه بالوعة كثيرة لا تبقى شيئا بما يصب في الحوض^(١) إذ يقول : ومثلنا في ذلك كتل الدجاجة رأت أن الأوزة تبيض بيضا كبيرا فطلبت أن تبيض مثلها فأجهدت نفسها في أن يكون ذلك ، غير عارفة أن ذلك لا يكون إلا باستعداد — أى بأن تكون أوزة — لحبست نفسها واستمطعت قوتها الدافعة حتى انفق منها ما انفق وتخرق منها ما تخرق الخ^(٢) وهكذا حاول الكاتب تبسيط أفكاره وتبسيط أسلوبه وألفاظه وتشبيهاته إلى درجة كبيرة ليفهمه جميع الناس .

وكان الشيخ في أثناء ذلك لا ينسى إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآيات الشعرية في غضون كلامه — غير أنه كان مقتصدا كل الاقتصاد في هذه الناحية .

وأما من حيث الموضوع فقد وقف الشيخ في هذه المرحلة من حياته الكتابية موقف الملم بالشعب المصرى ، واتخذ من الوقائع المصرية منبرا يظن الناس من أهله وبرشدهم ، ويوقظ فيهم شعورا بضرورة الإصلاح . ومن ثم جاءت جميع مقالاته في هذه المرحلة دروسا اجتهادية ودينية لا أكثر . ولا أقل ؛ فدرس في

(١) س ٦٠ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام الطبعة الثانية .

(٢) س ١٢٦ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام الطبعة الثانية .

تعليم الناس القانون ، ودرس في حقوق الوطن ، ودرس في كيف يستفيد الناس من المنشآت العامة . وكيف ينفقون أوقاتهم فيها ؟ ودرس في حاجة الإنسان إلى الزواج ، وفي حكمة الشريعة في تصد الزوجات ، ودرس في محاربة البدع السيئة كبذعة الأزحام في المساجد أيام المحضرات ، وبذعة (الدعة) وهي أن ينطح الناس على الأرض متلاعبين ، ثم يمر أحد المفاتيح على ظهورهم بمصان يدوسهم جميعاً ، ثم درس في الحذر من المبشرين الذين يديرون طائفة من المدارس يأوى إليها نفر من أبناء الشعب في مصر ، ودرس في وخامة الرشوة ، ودرس في الفوضى والقانون ، وهكذا .

ولا بأس من أن نسوق القاريء نموذجاً واحداً فقط من مقالات الشيخ في هذه المرحلة ، وليكن المقال السابع عشر ، بعنوان :

خطأ العقلاء (١)

إن كثيراً من ذوى الفرائح الجديدة ، إذا كثروا من دراسة الفنون الأدبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالهم الحاضرة ، تولد في عقولهم أفكار جلية ، وتنبه في قلوبهم همم رفيعة ، تندفع إلى قول الحق ، وطلب النفاة التي ينبغي أن يكون العالم عليها . ولكونهم اكتسبوا هذه الأفكار وحصلوا تلك المهم من الكتب والأخبار ، ومعاشرة أرباب المصارف ، ونحو ذلك ، تراهم يظنون أن وصول غيرهم إلى الحد الذي وصلوا إليه ، وسير العالم بأسره . أو الأمة التي هم فيها بتمامها على مفتحي ما علوه ، هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم ، وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم ، والألفاظ من أسماهم . فيطلبون من الناس طلباً حائفاً أن يكونوا على مشاربهم . ويرغبون أن يكون نظام الأمة وناموسها العام على طبق أفكارهم وإن كانت الأمة عدة ملايين . وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين . ويظنون أن أفكارهم العالية إذا برزت من عقولهم

(١) هذا المقال ينقل عن عقلية الشيخ الإمام . وعلى أنها عقلية تطورية لاثورية عقلية أستاذة السيد جمال الدين الأفغاني .

إلى حيز الكتب والدفاتر . ووضعت أصولاً وقواعد لسير الأمة بتأهاها . ينقلب بها حال الأمة من أسفل درك في الفقاء إلى أعلى درج في السيادة . وتبديل العادات وتحويل الأخلاق . وليس بين غاية النقص والكمال إلا أن ينادى على الناس باتباع آرائهم .

تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات . وإنهم وإن كانوا أسابوا طرفاً من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة وانبعاث الفيرة ، لكنهم أعطوا خطأ عظيماً حيث إنهم لم يقدروا بين ما حصلوه وبين طبيعة الأمة التي يريدون إرشادها ولم يعتبروا قابلية الأذهان . واستمدادات الطوائف للاقتياد إلى نصائهم واقتفاء آثارها ، ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ، ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي تتضمنها حالة وجوده ؛ بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في الكتب ؛ وتبينوا كيفية انتقال الأمم من بداياتها إلى نهاياتها ؛ لعلوا أن الأمم في أحوالها العمومية كالاشخاص في أحوالها الخصوصية ؛ بل إن الأحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الأحوال الخصوصية . وليست الأمة مثلاً إلا مجموعة أفرادها . وليس حال الهيئة المركبة من تلك الأفراد إلا مجموع أحوال هاته الأفراد .

فعل من يريد كال أمة بتأهاها أن يفهم ذلك بكمال كل فرد منها ، ويسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد . هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع أن يودع في عقل الطفل الرضيع ، أو الصبي قبل رشده وقبل أن يتعلم شيئاً من مبادئ العلوم تلك الأفكار العالية ، التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات ؟ كلا ؛ بل لو أراد أن يحصل شخصاً من الأشخاص على مثل فكره احتاج إلى أن يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ، ثم مبادئ الفنون السهلة التحصيل ، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بعد سنين عديدة إلى بعض مطلوبه ؛ ثم هو خلال ذلك محتاج إلى أن يحصر أعماله ويقيدها بقيود من الترغيب والترهيب ؛ وأن يراقب حركاته في أعماله خوفاً من اختلاط الفاسدى

الأخلاق والآفكار، أو المائلين إلى الكسالة والبطالة أو ورود موارد الشهوات ونحو ذلك من الملاحظات التي لابد منها . فإن اختلف شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الأصعب على الأسهل مثلا ، أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله ، اختلفت التربية ، وزهقت الآداب سدى . واستحال صيرورة حال ذلك الشخص مماثلة لحالة مرشده .

ولو أنه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرجولية هل يمكنه أن يبدلها بنهرها بمجرد إلقاء القول عليه ؟ كلا ؟ إن الذي تمكن في العقل أزمانا لا ينفارقه إلا في أزمان ، فلا بد لصاحب الفكر أن يجتهد أولا في إزالة الغيبه التي تمسك بها ذلك الشخص في اعتقاداته ؟ وذلك لا يكون في آن واحد ، ولا بعبارة واحدة ؟ ولكن بعبارة مختلفة في التقريب ، بعضها سهل المأخذ قريب المثال ، والبعض أرق منه ؛ وبعضها خاطئ ، والآخر برهاني ، وماشابه ذلك . فإن لم يتخذ تلك الوسائل في إرشاده ، امتنع عليه مقصوده ، بل ربما جره نصحه إلى الضرر بنفسه . تلك هي الحالة المشهورة التي لا ينكرها أحد ، ثم إن نجاحه في تغيير فكر واحد مع كل هذا الاجتهاد ، موقوف على أن صاحب ذلك الفكر الفاسد ، لا يباشر ولا يخالط في خلا تلمذه إلا مرشده صاحب الفكر السليم ، فإن كان يخالط غيره ممن يؤيد فكره الأول طال الزمن ؛ وربما لم ينصح فيه الإرشاد ، وأظن أن هذا يعترف به كل من مارس الأخلاق والمبادئ .

إن كان هذا حال شخص واحد إذا أردنا إصلاح شأنه في صفه أو كبره . مع أنه سهل ضبط أعماله وأحواله ، والوقوف على كنه أوصافه ودرجات تقدمه في المقصود وتأخره فيه ؛ فما ظنك بحال أمة من الأمم تختلف عناصرها ، وتباين شعوبها ؟ فمن الخطأ بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالمسير على ما لا تعرف له حقيقة ، أو يطلب منها ما هو بعيد من مداركها بالسكينة ، كما أنه لا يليق أن يطلب من الشخص الواحد ما لا يقبله ، أو ما لا يجد إليه سبيلا .

ولما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها السكينة المقررة في قلوب أفرادها ثم يطلب بعض تحسينات فيها لا تبعد منها بالمره . فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو

أرق بالتدريج ، حتى لا يمضي زمن طويل إلا وقد انغلغوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحلة إلى ما هو أرق وأعلى من حيث لا يشعرون . أما إذا وضع لهم من الحدود ما لم يصلوا إلى كنهه ، وكلفوا من العمل ما لم يسهوه ، أو غولوا من السلطة ما لم يمودعه ، رأيتهم يتعبطون في السهر لحفاء المقصود منهم ، وخلال الزأى فيما لم يكن يمر على خواطرم ، فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى لكن إلى ما هو أنس منها بحكم الاستعداد الفاضل عليهم بذلك .

مثلا : إتنا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا ، واعتدال أحكامها ، والحرية التامة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهورياتها ، وأعضاء نوابها وبجالسها ، وماشا كل ذلك ، ونعرف مقدار السعادة التي نالها الأهالي من تلك الحالة ، ونعلم أن هذه السعادة إنما أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم ، لأنهم أرباب الانتخابات ، وإنما رؤساء الجمهوريات وأعضاء المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي راوها لأنفسهم ، وتنفوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجليطة — لكننا لانستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها — لأنفانستان مثلا — حال كونها على ما نعهد من الحسنة فإنه لو فوض أمر المصالح إلى رأى الأهالي ، لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لا يرى سواها ، فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحبا له أو نسيا أو فريا ، فربما ينتخبون آلافا مؤلفة ، ثم لا ياتى الانتخاب إلى المرشوب أصلا ، لو قوف كل واحد عند انتخابه الأول . ولو وكل إليهم انتخاب رئيس الحكومة لانتخب كل قبيلة رئيسا منها ، ثم يقع المرحج بين الرؤساء ، وهكذا حال الأمم التي تعودت على أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها العامة ولا تفدت . فإذا أردنا إبلاغ الأفغان مثلا إلى درجة أمريكا ، فلا بد من قرون تبت فيها العلوم ، وتهذب العقول ، وتذلل الشهوات الخصوصية ، وتوسع الأفكار الكلية ، حتى ينشأ في البلاد ما يسمى بالرأى العموى . فنند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمريكا . ويأجبا أهل الشخص الذي توارث العوائد عن آباءه وأجداده ، ومن عليها من

مهده إلى كهوك ، وتعود تفويض مصلحته إلى إرادة غيره يصح أن يطلب منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ، ويلقى إليه زمام مصلحته ، وهو في جميع عمره لم يفكر فيها ؟ إن هذا الخطأ ظاهر .

ولكون أرباب الأفكار منا يرومون أن تكون بلادنا ، وهي هي كبلاد أوروبا وهي هي ، لا ينحون في مقاصد ، ويضرون أنفسهم بنهاب أنماهم أدرج الرياح ، ويضرون البلاد بحمل المشروعات فيها على غير أساس صحيح ، فلا يمر زمن قريب إلا وقد بطل المشروع ، ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان ، فيفوت الزمان وهم على حلهم القديم وكان لهم إمكان أن يكونوا على أحسن منه . فنريد خير البلاد فلا يسى إلا في إحقاق الحرية ، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه إن كان طالباً حقاً بدون أنساب فكر ، ولا إجهاد نفس . وفي الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا البند .

وراضح من قراءة هذا المقال أن الفكرة فيه هي الالامعة ، وأن الأسلوب فيها أني لخدمة هذه الفكرة ، وأنه ساقها سوا حسنا ، وتدرج في إلهامها للقارئ . كما يتدرج المدوس الماهر في إلهام التلاميذ درساً جديداً عليهم ، غريباً على أذهانهم . هذا من حيث الأسلوب ، أما من حيث منهج التفكير فلا نعرف أن مقالا أدل على عقل صاحبه وعلى إنبائه التدرج في الإصلاح من هذا المقال .

المرحلة الثالثة

نتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة من مراحل الكتابة الصحفية للأستاذ الإمام الشيخ محمدصده ، وهي المرحلة التي كان فيها الإمام يمارس إلى جانب أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني .

وهناك فكر الرجلان في الطرق المؤدية لإصلاح الشرق الإسلامي ، فكان من رأى الإمام أن يكون ذلك بإنشاء ما سماه (مدونة الوعاء) ، يتخرج فيها مصلحون عظماء ، يلبثون في أعماق هذا الشرق ويلدانه ، ويبشرون بهد الإصلاح الجديد في الدين وفي المجتمع ، ولكن هذا الرأي لم يرق في نظر السيد جمال الدين ، وهو رجل يلهب حماسة وغيرة على مصالح الشرق والشرقيين ، ولا يسرف للإبطاء

سبيلا من سبل الإصلاح ، بخلاف محمد عبده وقد رأينا في مقاله (خطأ المغلاة) يؤمن بالتدريج ولا يطمئن كثيراً إلى التطرف والطفرة ، وتغلب الأستاذ على تلبينه في النهاية ، واتفقا معاً على إنقضاء (جريدة العروة الوثقى) واشتركا في تحريرها يومئذ ، وأشركا معهما كذلك (ميرزا حسن باقر) ، فكان يقوم بعمل المترجم عن الصحف الأجنبية لكل ما يهتم به العالم الشرقى وكان من وراء هذه المجلة جمجمة سرية تليق في جميع أقطار العالم الإسلامى ، ونظم إليها قراء من المسلمين المثقفين المعروفين بالهجرة والتحمس الشديد للدين ، ويقسم كل واحد منهم قسم أن يبذل ما في وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية وإزالتها منزلة البنية والآبوة الصيحتين ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا يؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا يسمى قنما واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين ، جزئياً كان أو كلياً ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلاً وقدرة ، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامى من كل نواحيه بقدر ما يستطيع^(١) . وأنشئت الجمعية فروع في البلدان المختلفة ، يجتمع كل فرع منها للذاكرة ، وفي آخر كل اجتماع يتبرع الأعضاء بشيء من المال في صندوق صغير له ثقب ضيق ، فيه كل ما تيسر خفية ، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها . فقد كانت ترسل أكثر أعدادها مجاناً .

برنامج العروة الوثقى :

وأما برنامج الجريدة فقد أوضحناه في ختام المقالة الأولى حيث قال ما معناه أنه يتلخص في الأمور الآتية :

أولاً : إلهام الشرقين واجبايتهم التي كان التفريط فيها موجباً لسقوطهم ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فاتهم .

ثانياً : إلهامهم كذلك أن الأمل في النجاح قريب ، إذ لا حاجه في الوصول

(١) زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين ص ١٨٠ .

إلى تقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة . تصورها يوجب قنوط الممهم ، وانعطاط المزائم .

ثالثاً : دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالاصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، فلا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، والمثل الأعلى للمسلمين في نظر الجريدة هنا هو ما كان عليه الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين قبل أن يدخل عليهم الفساد من أبواب شرحتها الجريدة شرحاً وافياً في المقالات التي تيسر لها أن تنشرها .

رابعاً : إبطال الزعم بأن المسلمين لا يتقدمون في مضمار المدنية الحاضرة ماداموا متمسكين بدينهم ، لأن دينهم في نظر من لا يفهمونه من الأوروبيين يدعو إلى التواكل .

خامساً : تقوية الروابط والصلات بين الأمم الشرقية وتمكين الألفة بين أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينهم .

سادساً : وصل الشرقيين بما يهمهم من الأخبار العامة والأخبار الخاصة ، وبسياسة الدول الأجنبية تجاه البلاد الشرقية ونحو ذلك .

غير أن الجريدة لم تصدر أكثر من ثمانية أعداد فقط ، من مارس سنة ١٨٨٤ إلى أكتوبر من تلك السنة .

وفي أثناء ذلك انتقل الشيخ محمد عبده من دائرة ضيقة كان يعمل فيها لإصلاح مصر من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، إلى دائرة أوسع وأكبر هي الدائرة التي أصبح فيها مع السيد جمال الدين يعمل لصالح السكافة من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

ثم هكذا استبدل الشيخ بطابع الهندو الذي غلب على نفسه وخلق طابع الثورة التي انتقلت إليه بالمدى من أستاذه ، وقد رأينا أن أستاذه كان لا يمله حتى يشكر بالطريقة التي تعودها ، لكن كان يدفعه بقوة لا تعرف الابطاء لمحاربة الأدواء التي نخرت بسببها عظام الإسلام إذ ذاك .

ولئن فلامر الشيخ من مسيرة هذا الجهاد الجامع يبدو بعدوه وركن

بركته ويوصل بصهيله ويثب برؤوسه ، لا يلوى على شيء ، وهاهو ذا الشيخ في باريس يقوم بدور المعلم المصلح العالم الإسلامى كله ، بعد أن كان في مصر معلما للمصريين وحدهم . ومن ثم أخذت مقالاته في العروة الوثقى طابع الدعوة الحارة إلى جانب الطابع الأول ، وهو طابع الدرس الخالص الهادى . ومضى يكتب نحرًا من اثنتين وعشرين مقالة بهذا الروح ، كان السيد فيها فضل الفكرة في أكثرها ، وكان للشيخ فيها فضل الأسلوب في أكثره .

والقارى . لهذه المقالات كلها يرى كيف كان هذان الرجلان يدركان أن إصلاح الشرق لا يكون إلا عن طريق الدين . فالدين في رأيهما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة معاً . وعندهما أنه لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، وأن الجامعة الإسلامية ، يجب أن تقوم مقام الروابط الأخرى ، بل ينبغي أن تكون مقدمة عليها . وفي رأيهما أن الدين الإسلامى يدعو إلى القوة ، ويدعو إلى العلم ، والطمح في ذاته طريق من طرق القوة . ولذا يتعجب الرجلان أشد العجب من الأمم المسيحية في العصر الحاضر سبقت الأمم الإسلامية في ميدان القوة التى بنى الدين الإسلامى عليها .

ويرى الإمامان العظيمان أنه من طريق الدين يمكن أن يسود بنفوس المسلمين إلى المجد ، وأن يحدد فيهم الأمل ؛ لأن الدين الإسلامى لا يأمر بالجبن ولا باليأس ، ولكن يدعو إلى الأقدام ويحدد طريق القوة ، ويكره القنوط (ولا يقطع من روح الله إلا القوم الكافرون) .

وفي رأيهما أنه لا بد من إصلاح الأفكار الخاطئة التى تسود الشرق وتسيطر على أذهان أهله وهى أخطار جسيمة يمكن أن يكون لها عنوان واحد هو (الوهم) ، فعلى المسلمين أن يتجردوا لمحاربتها حتى تتخلص الأمم الشرقية مما استولى عليها من الضعف وتسترد حريتها المسلوبة ويجدها القديم ، وتتغلب على عدرها الذى استغل فيها هذا المرض وهو الوهم ، كما استغل فيها سوء فهمها لمقيدة القضاء والقدر . ومتى فهم المسلمون دينهم على الوجه الصحيح استطاعوا أن يصلوا إلى المرتبة اللائقة بهم بين الأمم . وعلى المسلمين في هذه الحالة أن يسهجوا العلوم الحديثة

التي توصل بها الاوربيون إلى الكشف عن آلات القتال ، فقد قال تعالى : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» ، وعليهم أن يحاربوا الاحتلال الاجنبى أينما كان .

ذلك هى الأفكار التي اشتملت عليها مقالات الشيخ في جريدة العروة الوثقى . أما الأسلوب الذي كتبت به هذه الأفكار فقد ارتفع في درجة جودته وبلاغته ، كما ارتفع في درجة حرارته وتدفقه عما كان عليه في الوقائع المصرية الرسمية . والفضل في ذلك أولا لوجود الشيخ إلى جانب السيد - وهو مصدر إشعاع حرارى لا يقدر مداره كالأيتان .

ثم إن الشيخ محمد عبدة كان في مصر يروض قلمه على التعبير حتى مر من هذا القلم ، وأكسبه هذا المران قوة وسهولة وجالا وتدفقا في وقت معاً . فإذا أضيف إلى ذلك أنه كان يصدر عن عاطفة قوية منفسحة تسع العالم الإسلامى كله أدركنا إلى أى حد ارتفع أسلوب الشيخ في ذلك الحين ، أما السجع فقد استمر الشيخ في صوره عنه ، ولكنه كان ينفلت منه انقلابا . وذلك حين تعلو في مقاله درجة الحرارة ، أو التدفق ، فيضطر الشيخ في هذه الحالة إلى السجع ، ويأتى سجه إذذاك بجرم إحداث متوافق بين نفسه وبين قلمه ، أو بين اهتزازاته الصورية واهتزازاته اللفظية إن صح هذا التعبير .

على أننا نلاحظ أيضا أن أسلوب الشيخ في هذه المقالات كان لايمرى بجرى الحديث المادى كما كان يفعل في المرحلة الأولى من مراحل في الكتابة ، ولكن يجرى بجرى الخطاب ، وفيه كثير من خصائصها كتكرار الكلام بقصد التأكيد ، وكثرة النداء في غضون المقال ، وكثرة الإشارة والاستفهام الإنسكاوى ونحو ذلك .

ومن السهل على قارئ هذه المقالات أن يدرك أن العناية بالفكرة توشك أن تغلب فيها العناية بالأسلوب ، وهذا ما يفسر لنا غلو العبارة أحيانا من الالفاظ الفصحى الجزلة ، ومن الجرى وراء المحسنات وما إليها من أدوات الزينة اللفظية التي يستمتع عنها الشيخ بصدق المواطف المنبثة في ثنايا المقال ، وبدرجة الحرارة التي وصل إليها

من أجل هذا حملت مقالات العروة الوثقى - كما قلنا - طابع الدروس الدينية أو السياسية ، حتى كأن بعض هذه المقالات إنما كتبت لتفسير القرآن تفسيراً يتفق وأغراض الجريدة .

ومع هذا وذاك فإننا نلاحظ في هذه الفصول الأدبية الصحفية أن ذوق كاتبها قد ارتفع إلى درجة كان يأتي فيها بالصور البيانية الرائعة ، ومنها على سبيل المثال :

« ومن الفضائل الحسنة التي يدعو إليها الدين النظر إلى أفراد الأمة الواحدة كأعضاء الجسد الواحد ، وإلى أن أصغر فرد في الأمة بمنزلة مسبار صغير في آلة كبيرة لومسقط منها تطلعت الآلة بسقوطه (١) » .

وقوله « إن الإنجليز صاروا كالنردة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البلية (٢) » .

وقوله « أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطة مقام المجلس فتلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لأبيه إلا استغناء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت ، أو جرفه السيل ، أو أدركته الزلازل (٣) » .

وقوله « والفضائل في المجتمع الإنساني كقوة الحياة المستمرة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند وظيفته . كاليد بها البلش والتناول وليس من خصائصها الإبصار ، والعين من وظائفها الإبصار . . . الخ (٤) » .

ثم بالرغم من سهولة الألفاظ التي تتألف منها المقالات فقد يصطدم القارئ في حالات قليلة وليست شائعة ، بكلمة غريبة ، ولفظ قليل الاستعمال عند الكاتب .

(١) ص ١٣٦ مجلة العروة الوثقى ط . المكتبة الأهلية في بيروت .

(٢) ص ١٥٩ .

(٣) ص ١٩٠ .

(٤) ص ١٣٣ .

ومن أمثلة ذلك :

(وإذا أراد الله بشعب أن يلقى بوائبه إلى أجل مسمى أودع في ضئاضئه
هذين الوصفين الجليلين يريد الليل إلى الوحدة ، والكلف بالسيادة (١) .
(قوله ألقى بوائبه معناه أقام وئب ، وقوله ضئاضئه معناه أصوله) .

ومثل : نفع جماعة من متردق هذه لأوقات في بيان مفسد التعصب
الديني (٢) .

(قوله نفع معناه غلط في الكلام)

ومثل قوله في فصل عن التعصب الديني : لفظ شغل مناطق الناس حتى
صار تكةة للمتكلمين ، يلجأ إليه الصبي في تهنته ، والدلقاني في تفيقه (٣)
(قالدلقاني : سريع الكلام ، والتفقيق : التطلع) .

ليس شك في أن الكاتب يلجأ أحياناً للألفاظ الغريبة ليحقق غاية بلاغية
في نفسه ، ولكن الخطر في ذلك يأتي من أن القارئ إما أن يشغل ويجهل
ذاكرته حتى يصر معنى الكلمة ، وإما أن يحاول البحث عنها في معاجم اللغة ،
وهذه الحركة أو تلك كاذبة لأن توضيح عليه المعنى وتفوت على الكاتب قصده
من الإغراب .

هل أن قارئ العروة الوثقى لا يسهل إلا الأصراف لكتابها بحسن اختيار
الألفاظ ذات الإيحاء الخاص . وهي صفة لا تليق لنهر الموهوبين في الكتابة ،
أو المثقفين بالتقافة الإسلامية العميقة .

ثم إن الأمثلة التي توخى الإمامان طريها في جملة العروة الوثقى ، كان
معظمها مشتقاً من السياسة الإنجليزية في الهند والافغان ومصر ، وقائماً على التشديد
بهذه السياسة والفض منها ، وكشف اللثام عنها للعالم الإسلامي . وبهذا
العنصر الأخير - وهو السخرية - استخفت مقالات العروة الوثقى اسم

(١) العروة الوثقى ط . للمكتبة الأهلية بيروت ص ١٥٨ .

(٢) ص ١٩٦ .

(٣) ص ١٧٢ .

الكتابة الصحفية الصحيحة . قد سبق أن قلنا مراراً أن شرط النجاح في كتابة المقالة هو أن يكون الكاتب الصحفي ناقداً على شيء معين ، وأن يبرر عن هذه النقمة إما بطريق النضرب — على مذهب الشرقيين إلى عصرنا هذا — أو بطريق الفكاهة أو السخرية على مذهب الأوروبيين إلى اليوم .

لم يبق إلا أن نعرض على القارئ نموذجاً واحداً من كتابة الشيخ في هذه المرحلة الهامة من مراحل حياته . غير أننا لا نستطيع أن ننقل إلى القارئ مقالاً كاملاً من مقالات الشيخ في هذه الجريدة ، لأنها طويلة ومسرقة في الطول إلى الحد الذي لا يمكن نشره في جريدة من جرائد الوقت الحاضر .

ولذلك نحن مضطرون إلى الاكتفاء بجزء فقط من إحدى المقالات ، ليكون نموذجاً لأسلوبه في تلك الفترة .

ولتكن مقاله المشهورة بعنوان :

القضاء والقدر

قال بعد مقدمة طويلة استغرقت أربعة وعشرين سطراً (١) :

« من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحقة ، كثر فيها لفظ المغفلين من الإفراج وظنوا بها الظنون . وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحسكت فيهم الضمير والضمرة ، ودموا المسلمين بصفات ، ونسبوا إليهم أطواراً ثم حصروا حلتها في الاعتقاد بالقدر ، فقالوا . إن المسلمين في فقر وفاقدة وتأخر في القوة الحربية والسياسية عن سائر الأمم . وقد فسح فيهم فساد الأخلاق ، فكثرت الكذب والتفاد والحياة والتخاذل والتباغض ، وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبل ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بمسيرة يأكلون فيها ويشربون وينامون ، ثم لا يناقشون غيرهم في قضية ، ولكن متى أمكن لأحدهم

أن يضرب أعماه لا يقصر في إلحاق الضرر به ، لجلوا بأسمهم بينهم . والامم من ورائهم يتلهم لقمة بعد أخرى .

ثم قال بعد اثنين وثلاثين سطراً :

« واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وبين الاعتقاد بذهب الجبرية ، القائلين بأن الإنسان مجبور ^(١) محض في جميع أفعاله . وتوهموا أن المسلمين بمقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء ، تقلبها الريح كيفما تهب ، ومتى رشح في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل . ولا حركة ولا سكون . وإنما جميع ذلك بقوة جارية ، وقدره قاسرة ، فلا ريب تتمطل قوام ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتعي من غواطم داعية السوء والمكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم المدم . »

ثم قال بعد ثلاثة عشر سطراً :

« نعم كل بين المسلمين طائفة تسمى الجبرية ، ذهبت إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطراباً لا يشوبه اختيار ، ودعت ألا فرق بين أن يترك الشخص فكاً للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقففة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة يمدد المحلون من منازع السفسطة الفاسدة . وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ، ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون . »

ثم قال بعد خمسة وثلاثين سطراً :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تهرد عن شناعة الجبر تقيم صفة الجراءة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويحث على اقتحام المهالك التي تجف لها قلوب الأسود ، وتلفق منها مراثي الفؤاد . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المسكاره . ومقارعة الأهوال ، ويحلبها بحمل الجود والسناء ؛ ويدعوها

(١) كذا وردت هذه الكلمة بالأصل ؛ وستم أجبر .

إلى الخروج من كل ما يزعجها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخل عن نعمة الحياة . كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

والذي يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يهرب الموت في الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته وملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف ينشئ الفقراء ينفق من ماله في تقرير الحق وتشييد المجد ، على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية ؟

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيله في قوله الحق : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشروا فإِماماً فإِيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الزكيل فاقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

إلى الآن كان الشيخ في مقاله عادياً أو كالمهادي ، أو قل إن درجة الحرارة كانت ترتفع في مقاله شيئاً فشيئاً ، وما زالت كذلك حتى وصلت إلى درجة تشبه النيران في العبارة الآتية :

« اندفع المسلمون في أوائل نفائهم إلى الممالك والأقطار فتحتوها وبسطوا عليها ، فأدعوا العقول وحبروا الأبواب بما دوخوا الدول وقهروا الأمم ، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينى (يريد البرانس) الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين ، مع قلة عددهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطباع الأفكار المتنوعة . أرغوا الملوك وأذلوا القياصرة والأكابر ، في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . إن هذا ليعد من خوارق العادات ، وعظائم المعجزات ! » .

وانظر إلى الشيخ ينفلت منه السجع والازدواج ليوائم ما في نفسه — من اعتزازات شعورية كما قلنا .

« دمروا بلاداً . ودكدكروا أطواداً ! ودفنوا فوق الأرض أرحاماً ثانية من القسطل ، وطبقة أخرى من النقع ، وسحقوا رؤس الجبال تحت حوافر جيادهم ،

وأقاموا بلما جبالا وتلالا من رؤوس النابذين لسلطانهم ، فأرجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريضة ، وما كان قائدهم وسامتهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

بهذا الاعتقاد لمست سيولهم بالشرق ، وانقضت شهبا على الحيداري في هبات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذي حملهم على تلك أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سيليل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقرا ، ولا يخافون قافة .

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد أن كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ، ويبدد أفلاذ الأكباد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب ويقذف به في قلوب أعدائهم ، فيهرمون بجيش الرجة قبل أن يسميوا بروق سيولهم ، ولعلنا أستمهم ، بل قبل أن تصل إلى نفوسهم أطراف جماعهم .

أرايت إلى الشيخ كيف بدأ كتابا هادى الطبع ، ثم تحول إلى خطيب ملكك عليه الثورة كل جوانبه ، وما هو ذا في نهاية المقال يتحول إلى شاعر بتخيل المسلمين يتصورون على أعدائهم قبل اللقاء بهم في ميادين القتال .

وانظر إلى الشيخ يستسلم لمفاهيمه فلا يدري القارىء بعد ذلك أقرأ شعرا يمتاز بمحبة العاطفة أم يستمع لخطيب صجر عن كبح عواطفه :

« بكائي على السابقين ونحبي على السابقين ، أين أنتم يا عصابة الرحمة وأولياء الشفقة ؟ أين أنتم يا أعلام المروءة ، وشوامخ القوة ؟ أين أنتم يا آل النجدة ، وغوث العظيم يوم القعدة ؟ أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس ، تأسرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الأجداد الأنجاد القوامون باقسط ، الأخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة المؤسسون لبناء الأمة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن يتحل تحلتكم ؟ انصرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقكم ، فخذلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياعا ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تدوب لها القلوب أسفا ، وتمترق الأكباد حزنا . أضحوا فريسة للأمم الأجنبية ، لا يستطيعون ذودا عن حوزتهم ، ولادفاعا عن حوزتهم ، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم

يذبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدي الضال إلى سواء السبيل ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون » .

إن هنا يشر القارىء بأن الكاتب قد عبر عن فكره بما فيه الكفاية ، وختمها ختاماً قوياً كذلك ، ولكن القارىء يجب مع هذا كيف أن الكاتب استأنف كلامه في نفس هذا الموضوع ، كأنما نفسه لم تزل تمتلئ بكلام كثير يريد أن يتخفف منه ، فقال :

« أقول وربما لا أخشى وأما بنازعى فيما أقول إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشرى إلى اليوم ما وجد قاتح عظيم ولا عارب شهير ثبت في أواصل الطبقات ، ثم رقى بهمة إلى أعلى الدرجات ، فذلك (١) له الصواب ، وخضعت له الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب ، ويحث الفكر لطلب السبب إلا كان مستقداً بالتعاضد والتقدير » .

ثم مضى الكاتب في عبارته التي سرود بها بعد كل ذلك أكثر من ثمانين سطراً .

المرحلة الرابعة

سمح للأستاذ الإمام بعد ذلك أن يسافر إلى بيروت ، وهناك اتصل به العلماء والأدباء ، وقسمت له بعض الصحف صدورها ، واستكثبته جريدة (ثمرات الفنون) ، وكان في أثناء ذلك على اتصال دائم بالصحف المصرية ، وبالأهرام بنوع خاص ، فكان يعرف منها أخبار بلاده وحركات أهلها .

واستغلنا أن تقف له على سبع مقالات في جريدة « ثمرات الفنون » دافع في إحداها عن المصريين ضد من اتهمهم بمصيان الحديرو ، ورد في أخرى منها على سؤال وجه إليه في كتب المنارى ، ولخص في الثالثة خطبته التي ألقاها بالمدرسة السلطانية ببيروت ، وكتب الرابعة في الرد على « رسالة لصمويل بيكر في السودان ومصر وإنجلترا » ، وذهب في هذه الأخيرة إلى أن المصريون عثمانيون ، وبذلك أرضى النولة العلية في مقاله هذا ، لأنه كان يومئذ نزول قطر من أقطارها

(١) لها : فذلك .

ودافع عن الجيش المصرى الذى نصح صمويل بيكر حكومته بالعمل على إنفائه واستبدال جيش عماني به ، وكشف الأستاذ الإمام عن دسائس الإنجليز الذين حاولوا استغلال قوة ائمة العثمانية لصالحهم في تذليل السودان لهم ليتفرغوا هم المسألة الأفغانية . وذلك جرياً على سياستهم المعروفة ، وهى ضرب الأمم بعضها ببعض ، والاستفادة من ذلك .

والمقال الخامس في موضوع « المحاكم الأهلية » ، وفيه دفاع عن الوحدة بين المسامين والأقباط ، وهو دفاع مؤيد بالحجج التاريخية والأحداث النبوية والدلائل المنطقية .

والسادس في القصة الرسمية في المحاكم الأهلية بمصر ، والسابع عنوانه « الانتقاد » .

أما أسلوب الإمام في هذه المقالات السبع ، فأسلوب بسيط هادئ ، ولم لا يكون كذلك وقد ابتدأ الشيخ عن أستاذه الحاد الطبع ، وخلا إلى نفسه ، فصار إلى طبيعته الأولى . فلا يحس القارى ارتفاعاً بسيطاً في درجة الحرارة إلا حين يتصل الكلام بموضوع الدين من قريب أو من بعيد ، كافي مقاله عن كتب السير والمغازي .

وهالك نموذجاً صغيراً من كتابته في تلك الآونة ، قال في تلخيصه لمخطبة ألقاها ، موضوعها :

العلم الأهم للامة

« إن حرصنا معاشر العثمانيين على انتشار المعارف منشؤه أمر في قلوبنا ، فإننا إذا خالطنا سكان الأقطار الشرقية على اختلاف مواقعها نجد في كل واحد منهم إحساساً يفقد شيء كل شيء له ، فهو أسف على فوائده ، وفيه ميل لطلبه وغبية الوصول إليه ، غير أن النفوس في حيرة من هذا المفقود المطلوب كأنها لا تهدي إليه . ويزيدنا أسفاً وشوقاً غالطتنا لأقوام يدعون أننا في المنزلة المتأخرة عنهم . وسواء أصابوا في دعواهم أم أخطأوا فإن الجمهور مناقذ صدقهم . ولم تزل

الحيرة آخذة بالمقول حتى قامت الثورة العلمية بصوت خليفتها الأعظم تنادى على الأمة : إن مطلوبكم المحبوب هو العلم . كن العلم فيكم وكن الحق معه كل مفقود يفقد بفقد العلم ، وكل موجود يوجد بوجود العلم ثم أنشأت المدارس ، وأقامت بناء المسكن ، وحملت رعاياها من كل طبقة من الدراسة ، وطالبهم باقتناء العلوم . فاستجاب لها أقوام منحتهم القطرة فوق الإستعداد ، وسيتبهم غيرهم إن شاء الله .

أما العلم الذي نخص بمحاجاتنا إليه فيظن قوم أنه علم الصناعة . وما به إصلاح مادة العمل في الزراعة والتجارة مثلا ، وهذا ظن باطل ، فلنا لو رجعنا إلى ما يفكره كل منا نجد أمراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها . إن الصناعة لو وجدت بأيدينا نجد فيها صجراً عن حفظها . وإن المنفعة قد تنهت لنا ثم تنفكت منها شيء . فنحن نفكر ضعف المهم ، ونغافل الأيدي وتفرق الأهواء ، والمنفعة عن المصلحة الثابتة ، وعلوم الصناعات لا تقيدها دفلاً لما نفتكيه .

فلطوبنا عم وراء هذه العلوم ، ألا وهو العلم الذي يحبس النفس ، وهو علم الحياة البشرية .

إذا نفخت الحياة في جسم نبته بجميع ضروراته ، وهدهدته لحاجاته واستحفظته ما يصل إليه ، وصرفته في سبيل الحصول عليه . والعلم المحي للنفوس هو علم أدب النفس ، وكل أدب لما فهو الدين . فاقترانه هو التجهر في آداب الدين ، وما تحص من أنفسنا طلبه هو التفقه في الدين .

ولا أريد أن نطلب علماً محفوظاً ، ولكننا نطلب علماً مرجحاً ملحوظاً . وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والكمالات الروحية لم يختلف في صمته أحد من البشر ، حتى من يظن نفسه غير آخذ بالدين .

فإذا استكملت النفس آدابها عرفت مقامها من الوجود ، وأدركت منزلة الحق في صلاح العالم ، فاتصبت لنصره ، وأبقت بمحاجتها إلى مشاركتها في الوطن

والمة ، فأخذت بالفضيلة الجامعة للفضائل ، وهى ما يعبر عنها بحسب الوطن والدولة والملة .

ولا نريد من الحب ميلا خيالياً ، ولكننا نريد ميلا يبعث على العمل ، كما يرشدنا إليه الدين والأدب . ففى تحلت النفوس بهذه الفضيلة أبصرت مواقع حاجاتها ، فاندفعت إلى طلبها وطرفت لها كل باب ، ولا ترجع حتى تظفر أو يدركها الأجل . الخ .

وهكذا كان الشيخ فى بيروت يخدم العقيدة الإسلامية ويهتف بالدولة العثمانية ، ويلهج بالثناء عليها ، ويوضح للناس طريق الإصلاح الصحيح فى رأيه ، ويكتب فصوله الأدبية فى لغة توشك أن تكون عادية ، ويرسلها مرتبة ترتيباً منطقياً ، ولا يحتاج إلى الصور اليبانية إلا نادراً ، كما يصف من يكرهون النقد ، ويحفظون صوابه :

« مثلم كمثل بعض الطيور إذا رأى الصائد غمس رأسه فى الماء ، ظناً منه أنه متى أغمس عن طلبه أغمس الطالب عنه ، فيكون بذلك قد أسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده » (١) .

* * *

وعاد الشيخ بعد ذلك إلى مصر ، واشتغل بأمور كثيرة ، لا يعيننا منها فى هذه المرحلة إلا اشتغاله بالرد على (هانوتو) فإذا ذاك سنحت للشيخ أئمن فرصة فى حياته . وطلق يكتب المقالات الصافية فى الرد على الوزير الفرنسى ، الذى فهم الشيخ أنه يتقدم الإسلام من حيث إن له طبيعة مخالفة لغيره من الأديان ، وذلك لأنه دين سامى ، ولأنه يقول بالقضاء والقدر ، فى حين أن الديانات الجسمانية تترك بالأفراد فى سلم الفضائل ، طمعاً فى نيل مرتبة الألوهية ، بخلاف الإسلام الذى لا يرضى للناس إلا بمرتبة واحدة ، هى مرتبة العبودية .

فانبرى الأستاذ الإمام لرد على هذه التهم ، وذلك فى ست مقالات ، انفردت

(١) ص ٣٧٣ ج ٢ من تاريخ الأستاذ الإمام .

كل واحدة منها بتهمة من تلك التهم الساجدة ، وعنييت بدحض الفكرة التي بنيت عليها .

واتهمز الإمام هذه الفرصة في رده على (هانوتو) ليوضح المسلمين ضرورة فهم دينهم فهماً صحيحاً ، وتقنيته من البدع والخرافة .

وليس شك في أن الإمام بلغ من كل ذلك ما أراد ، وجاء رده منحنياً المصير (هانوتو) لدرجة يظهر أنها أزعجته ، فراح يزعم أن مقاله أسمى فهمه ، وأسديت ترجمته ، ووسمعه صاحب الأهرام في رد اختياره إليه ، كما يقول رجال القانون وقلم صاحب الأهرام قيا ما حسنا بهذه المهمة .

ولا ينبغي هذا الرد من حيث قيمته المعنوية ، وليس عندنا منسح للقول في هذه الناحية ، ولكن ينبغي أسلوب الشيخ في هذه المقالات ، فقد بلغ أسلوبه فيها الدودة ... سهولة قول ، وسلامة عبارة ، وقوة حجة ، واستقامة منطق ، وإبداع تصوير ، ووصول بالكلام إلى درجة عظيمة من هذه المزايا الثلاث للأسلوب ، وهي الحق والوضوح والجمال .

فن عباراته الجليسة ، وما أكثرها ، قوله :

د ألم يحضر بياله تلك العظام التي اتفتخ بها بطن التاريخ ، وما كانت عليه أوروبا الآرية من الحمجية ، وأن العلم والمدنية لم يلبعا من معينها ، وإنما جاءها بمعالجة الأمم السامية (١) .

وقوله :

د إن أول شرارة الحبث نفوس الغربيين فطارت بها المدنية الحاضرة ، كانت من تلك الفعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد الأندلس (٢) .

وقوله :

إن الناظر في التاريخ تصمر عيناه من مناظر الدماء المتجسده على جليد الأزمان ذلك بما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ، ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية (٣) .

ولم يخل رد الإمام على الوزير (هانوتو) من قسوة ومرارة وإسفاف في اللفظ أحيانا ، وذلك حيث يقول :

« وأنى أقرر لهذا الوزير المحقير بدنيته يسرفها صبيان المكاتب ، وهى أن دين التوحيد ليس ديناً سامياً ، بل هو دين عبرانى ، فقد عرف به إبراهيم عليه السلام وبنيه ، ومنهم عيسى من جهة أمه ، إلى أن قال :

« وإن صغرت شأن (هانوتو) في معارفه التاريخية ، فذلك لأنه صغير فيها حقيقة . وكثير من قومه يعرف ذلك منه الخ (١) » .

وعنى الإمام أثناء كل ذلك بحوسيقية العبارة بل إن هذه العناية جاءت صدى لمواقفه التى جاشت بها نفسه في ذلك الوقت .

وانظر هنا إلى قوله (٢) :

« ثم لم يكن من أصوله (أى من أصول الإسلام) أن يدع ما يقبصر ليقبصر ، بل كان من شأنه أن يحاسب ليقبصر على ماله : ويأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا : نهى ضالا ، وألان قاسياً ، وهذب خفناً ، وعلم جاهلا ، ونبه غاملا ، وأثار إلى العمل كسلا ، وأقندر عليه وكلا ، وأصلح من الخلق قاسداً ، وروج من الفيضة كاسداً ، ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدما ، وأصلح غتلا ، وعما ظلما ، وأظلم عدلا ، وجدد شرما . . . فكان الدين بذلك ضد أهله كدلا للخص ، وألفة في البيت ؛ ونظاما للملك ، وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شئونهم الخ .

ما أظن القارئ بعد ذلك بحاجة إلى أن أسوق له نموذجاً كاملاً من مقالات الإمام في رده على هانوتو . فهى قريبة إليه في مصدرها ، ولا أقول فيها أكثر من هذا الحد (٣) .

* * *

(١) ص ٤٢٠ .

(٢) (٢) ٤٥٤ .

(٣) ارجع إلى هذه المقالات فى كتابه تاريخ الإمام الجزء الثانى للاستاذ رشيد رضا ،

الرسائل الإخوانية

بقيت صورة أخرى من صور الأسلوب الذي جرى عليه الشيخ ، لا تتم الصحافة ولكن تتم الأدب وحده . ولم نجد بأساً من أن نبحث بها الحديث عن هذا العلم ، لا شيء إلا ليظهر للقارئ الفرق بين أسلوبه في المقالات الصحفية ، وأسلوبه في الرسائل الأدبية .

هذه الصورة هي أسلوب الشيخ في رسائله الإخوانية . والمطلع على طائفة من هذه الرسائل يجد الإمام فيها كثيره من أفضاز الأدب في زمامة ، يميل ميلاً قوياً إلى السجع والاقتراس والاستشهاد بالأشعار إلى درجة يتم فيها - كما اتهم كثيرون غيره من أدباء عصره - بالتكلف والتصنع . ولم تكن رسالة له تخلو من ذلك عدا هذه الرسالة التي كتبها وهو في سجن القاهرة متنبهاً بالاشتراك في حوادث الثورة العربية . وذلك في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢ م ، الموافق ٩ المحرم سنة ١٣٢٠ هـ ، حيث قال (١) .

عزيزي :

تقلدنني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كلف منهزم
هذه سائقي . اشتد ظلام الفن حتى تجسم بل تصجر ، فأخذت صخوره من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ، وامتدت إلى القطبين فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس إذ تنلبت طيعتها على المواد الحيوانية والإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالأحجار أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين .

انتشرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشوش والآبار ، وتضيت الثوابت النيرة ، وفر كل معنى منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيرانها إلى عوالم غير عالمنا هذا . فقول معها آلهة (٢) الخير أجمعين ، وتخصضت السلطة لآلهة الشر ، قتلوا الطباع ، وبدلوا الخلق . وغيروا خلق الله . وكانوا على ذلك قادرين .

(١) ص ٩٧ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام .

(٢) العجب من هذا الشيخ كيف يسطع في كتابة لفظ (الآلهة) بصيغة الجمع هكذا على طريقة الأوربيين أو اليونان الأقدمين (المؤلف)

رأيت نفسي اليوم في مهمة لا يأتي البصر على أطرافه . في ليلة داجية . غُطى فيها وجه الصبا بهمام سود ، فتكاثف ركلاً وركماً ؛ لا أرى إنساناً ، ولا أسمع ناطقاً ، ولا أروم جيباً .

أسمع ذئباً تموى ، وسباعاً تزأر ، وكلاباً تاجح ، كلها يطلب فريسة واحدة هي ذات الكائب . والتف على دجلى تلتينان عظيمان ؛ وقد خويت بطون السكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله فهو لا ريب من المالكين .

قطع جبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجا ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالأصفياء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء . وحث على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء . والناس أجمعين .

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، ومزقت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وضيظ يحتم ، وخسوفه تغد ، تلك سنة القدر ، والله لا يهدى كيد الخائنين الخ . وهكذا جاءت هذه الرسالة ضرباً من الهياج العصبي ، الذي ركب الشيخ منذ دخوله السجن ، وهي رسالة طويلة نكتفي منها بهذا القدر .

وتتلخص ملاحظتنا عليها فيما يلي :

أولاً : مراعاة الكائب لهذا الترادف الموسيقى للمبارة ، وهو ترادف كان يسائر اضطراب الكائب في مشاعره ، وتأثره باقتضالاته .

والكائب في الجزء الذي نقلناه من الرسالة شاعراً أكثر منه كاتباً ، وهو مستسلم لمواقفه ، حريص على التمييز عنها تعبيراً يلائم قوتها في نفسه ، وقدرتها على إرعاد جسمه وقلمه .

ثانياً : وما يلاحظ على هذه الرسالة تلك التناغية التونية التي ألزمها الكائب في نهاية كل فقرة من فقرات الرسالة ، وهي ظاهرة تذكر بالفن القرائي . ولعلها أثر من آثاره في نفس الكائب والعجيب أن الشيخ ألزم ذلك في الرسالة من أولها إلى آخرها ، على طولها وامتداد القول فيها إلى درجة تلفت النظر .

ثالثاً : وبلاحظ على الرسالة أيضاً أن الكاتب حتى فيها بجانب التصوير
عناية كبيرة . فقد صور نفسه في هذه المحنة التي مرت به كأنه في صحراء مترامية
الأطراف ، في ليل شديدة الظلام ، ليس فيها إنسان ، ولكن فيها آساداً تزار ،
وذبابة تموى ، وكلاباً تتبع ، وثيماً يلتف حوله ، وكلها تطلب طعاماً ، وهو
وحده في هذا المكان المظلم الذي يملؤه الوحشة هدف لكل هذه السباع الجائعة
ومن كانت هذه حاله فهو لا شك من الهالكين .

فإذا أضفنا إلى كل ذلك أنه بدأ رسالته مستشهداً ببيت من الشعر ، عرفنا
إلى أي حد كان كلف الشيخ بالصناعة اللفظية ، التي لم تفسد مع ذلك المعنى ،
ولأخمنت من حرارة العاطفة .

ولو ترك الشيخ وشأنه لكان من كتاب الصنعة ، لأنه لم يكن يتركها إلى
الترسل الحالى منها إلا في ظرف واحد ، هو الكتابة في الصحف .

• • •

والشيخ بعد هذا كله مشاركة قوية في لوائح الإصلاح والتعليم الدينى في أشهر
أقطار العالم الإسلامى ، وأهمها ثلاث :

الأولى : لإصلاح التعليم في تركيا ، كتبها وهو في منفاه ببيروت ، ووقع عليها
مع بعض وجهاء المسلمين ، وأرسلها إلى شيخ الإسلام بالاستانة في ٦ جمادى
الثانية سنة ١٣٠٤ هـ .

والثانية : في إصلاح القطر السورى ، قدمها إلى وإلى بيروت بعد تقديم
اللائحة السابقة إلى شيخ الإسلام . كتبها بروح الرجل المسلم المعيدة ، العثمانى
المشرب ، الذى لا يحد — على حد قوله — في فرائض الله بعد الإيمان بشرعه ،
والعمل على أصوله ، فرحاً أعظم من احترام مقام الخلافة ، وشهد المهمة لثمرته
بالفكر والقول والعمل .

• • •
فإنما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان ، تلخاها محادثة رسول الله ،
ومن حاد الله ورسوله فأولئك هم الظالمون .

والثالثة : فى إصلاح التعلیم فى مصر ، كان قد فرغ من إعدادها ، ولكن يظهر أنه لم يقدمها بالفعل لأولى الأمر . بدأها بمقدمة جليلة فى طبيعة مصر والمصريين ، ووصف فيها أخلاقهم ونفسياتهم وتدينهم واستعدادهم للإصلاح ، ثم رسم طريق هذا الإصلاح فى المدارس الحكومية والمدارس الأجنبية ، فى الجامع الأزهر وفى مدرسة دار العلوم .

والاستاذ الإمام فى هذه الواثق الثلاث يقتصر همه على إصلاح التعلیم الدينى فى العالم الإسلامى عامة ، وفى مصر خاصة ، وكان يعنى نفسه بمنصب مدير لدار العلوم بعد عودته من المنفى .

ووضع لنفسه والمدرسة هذه الخطة الحكيمة ، ولكن ولادة الأمور - كما رأينا - كانوا يخطون عودة الشيخ إلى الاتصال بالعياب المصرى . لحيل بينه وبينهم وفرغ الشيخ منذ يومئذ لإصلاح المحاكم ، وإصلاح القودى ، وإصلاح الأزهر ، ومات على هذا الأخير .

أما لغته فى هذه الواثق فهى هى لغته فى مقالاته الصحفية السابقة ، قوة فى الرضى ، ودراسة الموضوع لها حظ من العمق ، ومعرفة جيدة بطوائف الأمم ، وعلم دقيق وبصر بأمور التربية والتعلیم ، ولغته عظيم بالسياسة ، ثم سهولة ووضوح فى تأدية المعنى ، وعدول تام فى هذه الواثق كلها عن الزينة اللفظية أياً كان نوصها .

ولا أظن القارىء بحاجة هنا كذلك إلى أن نعرض له نموذجاً من هذه الواثق ما دامت كلها لا تنسج للنقد الأدبى إلى أبعد من هذا الحد .

تلك حياة الأستاذ الإمام ، حافلة بالجهاد فى سبيل الوطن والدين والعمل الدائب لما فيه خير المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

وتلك صورة من أسلوبه فى الكتابة والتحرير ، حاولنا أن نجمع خطوطها ، وأن ننعم النظر فى أصباغها وألوانها ، وأن ندرس الإطار الذى عرضت فيه من جميع نواحيه ، ونحن نحشى مع هذا أن نكون قد أسأنا إلى الشيخ من غير قصد ،

أوشوفا من جمال أسلوبه في أثناء العرض . فإن رأى القارئ شيئاً من ذلك فها إليه قصدنا ، وما التوفيق إلا من عند الله .

والحق أنه لولا أن وسمت مقالات الشيخ بالطول من ناحية ، وبطابع الدرس من ناحية ثانية ، لقلنا إنه بلغ الغاية من المقال الصحفي من حيث موضوعه ، ومن حيث أسلوبه في وقت مما .

ومع ذلك سنمود إلى هذه المسألة مرتين : أولاً عند الموازنة بين الإمام وبين الكاتبين الآخرين الذين اشتمل عليهما هذا الكتاب . ومما أديب إسحاق وعبد الله النديم والثانية عند الكلام في الطابع العام للنقال الصحفي لتلاميذ المدرسة الثانية . وذلك في الفصل الذي ينتهي به هذا البحث .

الفصل السادس

حياة السيد عبد الله النديم

١٨٤٥ - ١٨٩٦

من الناس من يعرف العظمة بأنها نوع من الشذوذ البشري ، وكثير منهم لا يستطيعون - وإذا غيروا لا يريدون - أن يدفحوا ثمن هذا الشذوذ الذي هو أشبه شيء بقتوة ظاهر في جسم جبل أملس ، أو طريق واضح معبد .

غير أن الطبيعة نفسها ولما بذلك ، لأن هذا الشذوذ الذي هو نوع من المخالفة للمعتاد مصدر من مصادر الجمال على كل حال . ولا فحل تكون الطبيعة جميلة إذا كانت لا تقيت إلا أشجاراً متساوية في اللفظ أو الطول ، وهل كانت الحياة البشرية تتحمل لو أنها كانت تتألف من رجال فقط ، أو من نساء فقط ، أو من طوال فقط ، أو من قصار فقط ؟ أظن لا .

هذا رجل نجار أو نجار يعيش على الكفاف ، واسمه (مصباح) ، وقيل إن نسبه ينتهي إلى إدريس الأكبر ، من أسباط الحسن بن علي بن أبي طالب . ولد له ابن سماه (عبد الله) . وكان ذلك بالإسكندرية سنة ١٢٦١ هـ - ١٨٤٥ م . فلما كبر أرسله إلى الكتاب ، وهناك أمم الولد حفظ القرآن قبل أن يبلغ التاسعة من العمر ، ثم أخذ هذا الولد يختلف مع الصبية من أمثاله إلى جامع يقال له (جامع إبراهيم باشا) ، حيث درس الفقه والأصول والمنطق ، ثم لم يصبر الصبي على الدرس ففر من الجامع ، ولكن إلى أين ؟ إلى التسكع في الطرقات ، وحشر نفسه حشراً بين الجماعات ، فإذا وجد جماعة من الناس يتناشدون الرجل أو الشعر ، أو يقادون الملح والنوادر ، أو يتاجنون بما أرادوا من ألوان الجون ، انفس الصبي بينهم . واستمع بكل أذنيه لهم ، وأودع ذلك كله خزانة تعرف كيف تحفظ كل شيء يستقر بها ، وهذه الخزانة هي حافظته القوية ،



عبد الله النديم

١٢٦١ - ١٣١٤ هـ

١٨٤٥ - ١٨٩٦ م

وذاكرته العجيبة ، التي كانت إذ ذاك كل ما يملكه من أسباب التفوق على أقرانه ، ثم أصبحت فيما بعد - أعنى في وقت الشباب والكهولة - كل ما يملكه من أسباب الشهرة الشعبية التي وصف بها .

أليس عجيباً أن قضي هذا شأنه ، وتلك أسبابه ، لم يكلف نفسه ضحاً إلى المدرسة أو الجامعة ، ولا أخذ نفسه في أول الأمر بشئ من جد الحياة في وقت الطلب ، يصبح في زمن ليس بالطويل إماماً من أئمة الأدب في عصره ورائداً من رواد النهضة في أمته ؟ .

الحق أن القارىء لحياة هذا الرجل ليؤمن إيماناً لا ريب فيه بأن ملازمة الحياة نفسها . ومخالطة الناس على اختلاف طبقاتهم ، ربما كانت أقوى تأثيراً في النفس ، وتكويناً للخلق ، من الجلوس أو المدرسة .

ولا غرابة في ذلك فالحياة الرائعة نفسها كانت أهم مصدر لثقافة رجل كبير من رجالات الأدب العربي (هو الجاحظ) ، وجاءت كل تصانيفه أكبر شاهد على ما تقول .

تفيل ممي هذا الفتى الصغير وهو يحول في أنحاء الإسكندرية ، أو في أرجاء طنطا أو المنصورة أو القاهرة ، يستمع إلى السوق وهم يتحدثون ، أو إلى الحفلة وهم يتحاورون ، ويفشى الموالد العامة حيناً ، ويرج بنفسه هناك في غمار هذه العلافنة التي عرفت باسم (الأدبانية) ، ليلتقط ما يقولون ، ويقدم فيما يفعلون ، لا تقوته حركة من حركاتهم ، ولا من حركات الناس جميعاً في ضحاهم ولرباهم ، ولا تمنيع منه حسنة من همساتهم ، وكان ذهنه آلة تصور تنبأت لالتقاط كل هذه الأشياء المتحدة . « والنفس الحساسة تحتون حتى حفيف أوراق العجر ، وهففة الأنصان ، وديب الغال ، وحلاوة البسملة ، وأدق مجال الجلال والقبح ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك في قها حتى أن أوانه »^(١) .

ولندع هذه المقدمات ، ولندكر طرفاً من حياة هذا الرجل على سبيل

(١) انظر زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ٢٠٦ .

الإيجاز ، وفي اعتقاد الكثيرين أن حياته تصلح أن تكون رواية تمثيلية من الطراز الأول .

فند ترك عبد الله النديم جامع لإبراهيم باشا اتجه إلى تعلم فن الإشارات البرقية ، وإذا تم له ذلك التحق بمكتب تليفراف بمدينة بنها . ثم انقسم له الحظ ، فشغل مثل هذا العمل بمكتب (القصر العالي) ، وقد أتاح له هذا العمل الجديد نوعاً من الرف والفراخ . فكان ينشئ بنفسه في أوقات الراحة مجالس الأدب بالقاهرة ، وعادة يجلس محمود سائى البارودى ، حيث التقى بالصفوة الممتازة ، من أمثال على أبى النصر ، وعبد الله فكرى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، والشيخ أحمد الزرقانى ، وعبد سميد ، وجعفر مظهر ، وعبد العزيز حافظ .

وقد أثنى النديم عليهم جميعاً في مقال له نشر (بالسلافة) .

وفي القاهرة أيضاً كان النديم يختلف أحياناً إلى الجامع الأزهر حيث تعرف هناك بصدقه العالم الكبير الشيخ حمزة فتح الله . وبقي النديم في (القصر العالي) حتى غضب عليه (خليل أغا) فطردهائماً من القصر ، وسدت أمامه أبواب الرزق ، وانتهى به الأمر إلى أن اشتغل مدرساً لأولاد أحد الممدى بمديرية الدقهلية ثم تخافهم هو والمدة ، وانظر النديم إلى تركه ، ولكن بعد أن هجاء أفلح هجاء ، في قصيدة له شحنت لسانه شحناً جيداً ، وواضحة فنه الشعرى رباحة جيدة .

ثم اتصل أمر النديم بأحد أعيان المنصورة ففتح له دكاناً يبيع فيه المعائب والمناويل ، فاحتض النديم من دكانه هذا متجراً ويجتمعاً في الوقت نفسه لرجال الأدب ، وذلك على عادة المثقفين من تجار الريف المصرى إلى يومنا هذا . فعلى هذا النحو كان حسن عبد الباسط الهجاء المشهور صاحب دكان عطارة . وعلى هذا النحو كان الشيخ أحمد وهبى الشاعر الأديب صاحب دكان طرايشى ، وهكذا .

ثم أفلس النديم وأغلق دكانه ، وأخذ يرحل من بلد إلى بلد ، حتى وصل إلى طنطا ، وفيها بيت رجل من وجوه التوم ، واسمه (شاهين باشا كنج) كان

له كلف بالأدب ، فاقبل به النديم . واسمع إليه يقص عليك قصته مع شاهين باشا ، فيقول :

د كنت بمولد السيد البدوي ، ومعى السيد على أبو النصر والسيد حلاوة ، وجلسنا على قهوة الصباح تفرج على أديب وقف يتأطر آخر ، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما ، استأففت أعاء إلينا ، وخصانا بالكلام .

فأخذنا بعدحاننا واحداً فواحداً ، إلى أن جاء دورهما إلى ، فقال أحدهما يتألمنى :

أنعم بقرشك يا جندى ولا كنا ائمال يا أندى
إلا أنا وحياتك عندي بقى لى شهرين طول جهان
فقلت على سليل المراح :

د أما الفلوس أنا مدبشى وأنت تقول ما امشيش
يطلع على تحشيش أقوم أملكك الاودان

قد بلغ شاهين باشا ذلك ، وأنى غلبت الأدبانية ، طلب شيخهم ، ووصده إن ظهروني يبطيهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين سوطاً ، واجتمع لذلك حشد من الناس كبير ، (١) ثم أخذوا يقولون والنديم يرد عليهم واحداً بعد واحد ، واستمرت هذه المساجلة طويلاً حتى ألغهم .

ومنذ يومئذ أصبح النديم أثيراً عند الباشا ، بل أصبح الباشا لا يجد له غنى عن مجالسته . وحضر النديم اجتماعاً حافلاً في منزل الباشا ، وتعامل عليه كل القوم ، حتى اقترح بعضهم عليه إنشاء قصيدة يمارض بها دالية المثالي المشهورة التي مطلعها :
أقل فعلى به أكثره مجد (١)

وكانوا يقصدون بذلك تمجيره ، فنضب النديم ، وأمسك القلم ، وأنشأ قصيدة أولها

سيوف اثنتا تصدا ومقولى النمد ومن سار في نصري تكفله الحد

(١) انظر تراجم أعيان القرن الثالث وأوائل القرن الرابع عشر لأحمد تيمور باشا ، وانظر مجموع مجلة الأستاذ من ٩٨٦ بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٩٣ ،

ومنها .

ومن صعب الأيام شهم آخر حجا يمارضه عمر ويفحبه وغد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدماء لتحفظ أعراض تكفلها الجدد (١)

وفي هذه الأسماء القليلة من الفسحة والجولة ما يفيء بمجوعة هذا الرجل ،
ويبشر بمستقبل له عظيم في عالم الأدب .

والآن الآن كان التديم غارفا في لحو الحياة ، منغمساً في هذا الحب اللفظي ،
الذي كسب به بعض الأصدااء ، وقرب بسببه إلى بعض الكبراء . ولعله كان
يحسب أن الحياة نفسها لم تكن تمد ذلك الوضع ، ولا تسكاد تعرف غير هذا
اللون . غير أنه سرعان ما عاد إلى الإسكندرية - مسقط رأسه - وهناك ولد
هذا الفتى ميلاداً جديداً ، وأعيد خلقه على غرار جديد . فقد رأى الناس في هذه
المدينة لا يشتغلون بما كانوا يشتغلون به أمس من الأسفار المسلية ، والفكاهات
المضحكة ، والأحاديث الفارغة ، يقضون بها أوقات فراغهم ، وما أطول الأوقات ،
ويصلون بها سواد ليهم ببياض نهارهم ، وما أكثر ما نالت عليهم الأيام . بل
هاله أن رأى مدينة الإسكندرية وطلها طابع الجدد . فهي يومئذ تحدث في
أمور كثيرة ، كصندوق الدين وتدخل الدول الأجنبية والشورى ، والظلم
والاستبداد ، والاستقلال والحرية ، والجهل والعمود ونحو ذلك . وكلها أمور
طبع على حياة الناس يوم ذاك عبوساً وتقليباً حل فيها محل البشر والإنسان .

فإذا يفعل التديم ؟ أيحى في صبه التديم ؟ أم يدخل فيما دخل فيه الناس
من هذا الجديد ؟ إن طبيعة التديم تدعوه دائماً أن يكون قطعة من الوسط الذي
يحل فيه ، أو البيئة التي يعيش فيها . فما أسرع ما ترك اللهو والعبث ، وبدأ
حياة الجدد والكفاح ، وكتب لنفسه هذه الفقرة التي تتحدث عنها ، والمظنة
التي سلت له ، فكان أول ما صنعه التديم وهو بالإسكندرية أن اشترك
مع أديب إسحاق وسليم النقاش في صحيفة (المحروسة) و (العصر

الجديد) (١) الذين صرح بهما لسليم النقاش عقب إلغاء جريدتي (مصر) و(التجارة).

ولم يكتف النديم بذلك حتى التحق بجمعية سرية ، هي جمعية مصر الفتاة ، كانت تهدف إلى نشر التعليم ، وكانت تخوض في سياسة إسماعيل ، ومازال عمله الجمعية حتى أخرجها من السر إلى العلن ، وجمع له بنفسه من أعيان الثغر مالا نمشها به من جديد ، وأطلق عليها اسم (الجمعية الخيرية الإسلامية) ، وهي غير الجمعية المعروفة الآن بمصر بهذا الاسم . وأعلن النديم وزملائه يومئذ أغراض هذه الجمعية ، ومنها إنشاء مدرسة لتعليم الفقراء مجاناً ، ومنها بث الروح القومية في البلاد .

وسرعان ما تم إنشاء هذه المدرسة ، وعين النديم مديراً لها . وكان ذلك في أواخر عهد إسماعيل ، وشارك النديم مشاركة قوية في وضع مناهجها ، بل قام هو بتدريس مادتي الأدب والإنشاء فيها ، ولم يأل جهداً في تمرين التلاميذ على الخطابة ، التي كانت سمة من سماته وخلقه فيه .

ثم حين عزل إسماعيل ، وتولى مكانه توفيق توسل إليه النديم أن يحضر امتحان المدرسة ، فحضر بنفسه وسر من إجابات التلاميذ ، ثم سأله النديم أن يعهد إلى ولي عهده (الأمير عباس) برئاسة المدرسة ، ففتح الخديو المدرسة هذا الشرف ، وأتى لزيارة المدرسة ومعه ولي العهد في يوم حافل أعد له النديم ثمانين وعشرين خطبة ! ثم أكثر النديم في إقامة الحفلات ، وكان التلاميذ يقومون فيها بتتمثيل روايات ناجحة كان يؤلفها لهم النديم ، ويشارك معهم في تمثيلها بنفسه ؛ ومن هذه الروايات رواية بعنوان « الوطن » و « طالع توفيق » ، وأخرى بعنوان « العرب » .

(١) كانت مصف سليم النقاش وغيره من السوريين في مصر تأخذ جانب الحكام . وثقفاً كانت تأخذ جانب الشعب المصري ، ولذلك أصبحت المحروسة يوماً ما لسان حال شريف باشا رئيس الظفار ، ثم أصبحت لسان حال عمر لطفي باشا محافظ الإسكندرية وذلك في الأسابيع التي سبقت الاضطرابات التي حدثت في مدينة الإسكندرية وكانت تمريراً بالقوة الرأية وضرب الإنجليز مدينة الإسكندرية .

وبقي النديم على هذا العمل يشتغل فيه بعقله وقلبه وأعصابه ودمه ، حتى كاد له إخواته بالجمية الخيرية ، ولفقوا له تهماً فصل بسببها من الجمعية ومن المدرسة في وقت معاً .

لذا ذاك فكر النديم في أن يجعل الصحافة حرفة له يكسب منها عيشه ، ويبت فيها فكره ، وينفذ بها إلى قلب الشعب الذي تأدب بأدبه ومهر في دراسة نفسيته بطريقة عملية بحثة ، هي طريقة الاندماج في هذا الشعب بكل جوارحه كما رأينا .

وكانت أولى صحف النديم التي ظهرت باسمه صحيفة يقال لها (التنكيك والتبكيك) ستحدث عنها عندما نقيض في أساوبه وبيان الخصائص التي يشتر بها هذا الأسلوب .

ثم ظهرت بوادر الثورة العرابية ، وكانت شدة النديم قد سرت في الشعب المصري على اختلاف طبقاته وزادها سرياناً ما طبع عليه النديم من ميل - كما قلنا - للخطابة ، واستعداد لها إلى درجة ربما لم تتيبر لشخص غيره في مصر ، منذ القرن الماضي إلى اليوم .

فقد كان النديم يظهر في كل مجتمع ، ويقف في كل حفل ، ويخطب في كل ناد ، ويرتجل الكلام ارتجالاً ، ويتدفق فيه تدفقاً ، تسفه فيه بديهية لم نسمع بمثلاً في تاريخ الأدب المصري الحديث ؟

وإذا ذك فكر رجال الثورة منذ بداية الأمر في أن يكسبوا لأنفسهم رجالاً ذرب اللسان ، سريع الخاطر كعبد الله النديم ؛ وما أسرع ما انضم هذا الرجل إليهم ، ووجد في ثورتهم مجالاً لإشباع همه في الخطابة من جهة ، وشغفه بالصحافة من جهة ثانية .

والحق أن العرابيين رحبوا كثيراً بأفضيل النديم إلى صفوفهم ، وبقبوه فيما بعد بمضطرب الثورة . ثم منذ إعلان الدستور في فبراير سنة ١٨٨٢ أى في أوائل عهد توفيق ، انتهر النديم وأمثاله من قادة الشعب هذه الفرسة ليفهموا الناس طائفة من المعاني الجديدة عليهم كل المدة ، وهي معاني الدستور ، وما قيمته

وكيف تحصل الشعوب عليه ^(١) ؟ وكثيراً ما كانت تقام الحفلات العامة لهذه الأغراض ، وكثيراً ما كان التديم يقوم فيها مقام الخطيب الأول ، حتى إذا خطب الحاضرين كأديب إسحق أو قتي زغلول أو إبراهيم القاني أو مصطفى ماهر أو غيرهم في معنى ما ، قام التديم بعد كل واحد من هؤلاء يعقب على حديثه ، ويشرح هذا الحديث ، ويستمع الناس إلى هذا التعقيب دون أن يشعر أحدهم بشيء من السأم أو الملل . وكان العامة في مصر بحاجة إلى من يشرح لهم هذه المعاني الجديدة عليهم كل الجديدة ، إذ قبض الله للخاصة أمثال السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده ليفهمهم تلك المعاني . واشتعلت نار الثورة بالفعل ، وزادت طيباً ، فكان كلام التديم وقودها الذي زادت به ضراماً ، وزيتها الذي أصبح به نوراً وهاجاً ؛ وحيثما كان مجتمع من الناس في مولد أو فرح ، ثم وجه التديم ، وثم صوته يملجلج في الحاضرين ويقتدر الناس بذلك ، حتى كان إذا سئل محمد عبده المعنى أين تنفى البلية ؟ قال : في الفرحة الفلانة مع عبد الله التديم ، والتديم في كل موقف لا يتروح من التهويل على العامة والتهريج أمامهم ، فيقول مثلاً في بعض خطبه : إن طوابي الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها بلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الآستانة إذا أطلقت بلغت هذه الجزيرة من الجانب الآخر . فكيفما جالت الأساطيل الإنجليزية فهي تحت رحمة مدافعنا . فيصفق الناس لهذا التهريج ، ويسكرون بهذا الحديث ، والمخ أن هذا التهريج الذي اشتغل به التديم كان سلاحاً ذا حدين ، فهو من ناحية يقوى الروح المعنوي في الشعب وفي الجند ، وهو من ناحية أخرى يملأ قواد الجيش المصري غروراً ، ويريدهم تكسلا وقوداً عن التهيؤ له . وهذا ما قد حدث بالفعل ، فقد جازف

(١) ومن المعاني الجديدة التي خطب فيها التديم فكرة الجمهورية التي احتفظ بها الوثنيون حتى يصبح الوقت مناسباً لإعلانها ، وقد كان هذا أسس طينتهم منذ البداية . ولكنهم بصروا في الوائب ، ورأوا أن يسبوا سباً وثيداً في هذا الموضوع . راجع التاريخ السرى لاحلال الإنجليز مصر مؤلفه المسمر ثلاث ص ٢٥٧ .

عرايى بميئته في الموقعة ، ولم يكلف نفسه قط درس الظروف المحيطة بها ، ولا كانت هناك سياسة رشيدة ، ولا صحافة مستنيرة ، ولا مستشارون أمناء صادقون ، يساعدونه على درسها ووضع الخطط المحككة على أساس هذا الدرس (١)

ولما انتقل النديم بمخطابته إلى الميدان يمرض الجنود على القتال ، فقد انتقل إليه بصحيفته بنفس هذه الغاية ، وذلك يوم استبدل باسم جريدته الأولى (التسيكيت والتبكيت) اسماً جديداً آخر ، هو (الطائف) ، وهو اسم اقترحه عليه عرايى متيناً بطائف الحجاز ، وتفاؤلاً بأنها ستطوف بالارض كلها ، وتطبق شهرتها العالم كله .

وانتهت الثورة بالمروية المروقة ، ووقعت البلاد بأسرها في محنة عظيمة ، وقبض على الزعماء ، واختفى النديم يؤمئذ من الأنظار . وجباً حاولت الحكومة العثور عليه والفرصه ولكن أنى لما ذلك وهو ضريت من الجن ، ثم بدا له بعد ذلك أن يكتب صفحة من حياته تصلح حقيقته أن تكون رواية (بوليسية) من أروع ما كتب الناس في هذا الفن .

وقد صار النديم يتنكر بشق الطرق ، وتسمى فعلاً بقسمة أسماء لقنارة يسمى بالشيخ يوسف المدني ، وتارة الشيخ محمد الفيوى وثالثة بالحاج على المغربي ، ورابعة بفلان العنبي ، وعامسة بفلان الزنجى . وهكذا .

وكان يلبس لكل حالة لبوسها حتى ليخيل إليك أن تقرأ عن شخصية من شخصيات المقامات في الأدب العربي . وأمن النديم في التنكر حتى أشاع عن نفسه أنه سافر إلى خارج القطر ، ونشرت هذا الخبر جريدة فرنسية تقرأ في مصر فصدق ولادة الأمور ذلك ، مع أن الحقيقة أن النديم كان يومئذ في قرية نائية ،

(١) يضاف إلى ذلك أسباب أخرى كثيرة من أهمها الحياة التي فيها عرايى من البؤس ومن ضباط الجيش المصري من أغرام توليق على الحياة بالمال وتمام بالومود . وكان المراسكة في الجيش متصرفاً عاماً في المزرعة . . . راجع للمصدر للتقدم في الفصل الذى عنوانه « موقعة الخيل الكبير » .

ليس معه إلا زوجته التي ضربته على فم حتى سقطت ثناياه ، وعادته الذي بدأ عليه الفزع والملع ، حتى هدد سيده بأنه سيفضح أمره ، ويدل عليه الطالبين ، فاحتال النديم على خادمه يوماً بأن أخذ يقرأ المجردة الرسمية ، ثم تصنع الفزع ، وضرب كفاً على كف ، وقال على مسمع من عادته : « لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ، فسأله الخادم عن ذلك ، فقال النديم :

وإن الحكومة قد جعلت لمن يرشد عن ألف جنيه وإن يأتينا برأسك خمسة آلاف ، غاف الخادم ، وأخذ يبالغ في التشنك . وكافاه النديم على ذلك بأن طبع القراءة والكتابة ، وحفظه جل من سور القرآن . وأقرأه مبادئ الفقه والتوحيد ، ثم روجه واتخذ صاحباً ، وبدأ النديم في هذه المرة أو الخشياً أن يكتب ويقرأ ، وهل كان في استطاعته أن يفعل غير ذلك ؟ وبعت إلى صديق له إذا ذاك برسالة يقول فيها : « إن سألت عن فأننا بغير وطافية ، وحالة راحة سافية . . لا أشغل فكري بما يأتي به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أعجب ذهني بتوال الخطوب والأكدار ، ولا أتألم من طول المدة ، ووقع القصة . لا اعتدأ أن لكل شدة حدة . متى انتهت جفت الأحوال ، وحسنت الحال ، قرأت فكري كليمي ، وقلبي نديجي . تارة أشتغل بكتابة فصول ، في علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم به الله المنة ، وحيناً أشتغل بنظم فرائد ، في سورة قصائد ووقتها أكتب رسائل مؤلفة ، في فنون مختلفة ، وآوة أكتب في التعرف والسلوك ، وسير الأخيار والملوك ، وأصنف الكثير في العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكران . على سفينة تاريخ الزمان ، ويوماً أشتغل بشرح أنواع البديع ، في مدح الشفيح . وقد تم لي الآن مشرون مؤلفاً بين صغير وكبير ، فانظر إلى آثار رحمة الله العليخ الحبيب ، كيف جعل أيام المنة وسيلة للنمحة والمنة ، أتراني كنت أكتب هذه العلوم ، وفي ذلك الوقت العلوم وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين في حجرها نالك وعلى كتفها رابع ، وأصعب من مربي عشرة وليس له تابع . أشتغل بعض النهار بتحرير الجورنال ، وأهني

ليل في دراسة الأحوال . مشتغلا بمجالس الجمعية الخيرية ، ومدارسها التعليمية ،
وزيارة الإخوان ، ومراقبة أبناء الزمان . وقد نسيت الأهل والعيلة ، وربما
نسيت الطعام يوماً وليلة ، فكنت كألة يحركها البخار ، لا سكن لها ما دام الماء
والنار ، فتي كنت أظن للخطفات ، وأكتب هذه المؤلفات ؟

ولو أن ناد مصيقي في الغدير أصلاء الوفير
لكنها في ساحة من فوقها جو مطير
هو صدق إيماني وصبري لقتضاء بلا تكبر
وقوف جيش عديقي في باب مولانا البصير

والسجيب أن النديم كان يعيش هو وأسرته وأسرة خادمه على ما يجود به
الموسرون من أهل البر ، بمن كانوا يعرفونه بشخصه . ومع هذا يساعدونه على
إخفاء أمره .

حدث أن كان النديم غتفياً مرة ببلدة يقال لها (العتوة) من بلاد الغربية ،
ومضى على إقامته بها أكثر من سنة . حتى قضى رب البيت نحبه . فجاءت زوجته
بأكبر أولادها وهو شاب لم يجاوز الخامسة عشرة من عمره . فقالت هذا عبد الله
النديم ، الذي جعلت الحكومة لمن هذا ما إليه ألف جنيه ، أقرئ أن تؤويه
وتكرم مثواه كما فعل أبوك ، أم ترغب في حطام الدنيا ، فأكون بريئة منك إلى
يوم الدين ؟ فقال حاش لله أن أغفر ذنابي ، فسترين أني أحافظ عليه محافظتي
على عرضي ، ولن يصل إليه بسوء ما دمت حياً . فقالت له والدته الكريمة :
بارك الله عليك من نعم حازم فكنت في جوارهم نحواً من أربع سنين ضيقاً كريماً
ثم وشى به بعض أقرباؤه الرجل لضعفائ بينهما ، فضى هو ليلاً وصار يضرب في
بلاد مديرية الغربية ، وكلما ألقي عصا التسياد في مكان أكرمه أهله ، وأزله
على الرحب والسعة ، وشددوا أزره بتزويجه منهم (١) .

وأكثر من ذلك وأشد إمعاناً في الكرم ، أن النديم صادقه في طريقه إلى
هذه البلدة . وهي العتوة ، أحد مأموري المراكز ، وكان حركياً ، ومعه قوة

صغيرة من الجند ، فأمرها أن تسبته قليلا ، ثم لوى صنان فرسه إلى التديم فقال
لا ضرورة للتسكرك قد عرفتك وأنت التديم . فلم يكن له يد من الاعتراف بحيلة
أمره . فقال له الأمور : لا بأس عليك ، انصب في دعة الله وحفظه ولا تخف ؛
واعلم أنى وإن كنت جركسى الأصل فإنى عربى الكرم ، ولهذا وهبتك حياتك ،
وتنازلت عن الجمل الذى جعلته الحكومة لمن دل عليك ، مع احتياجى لقليل ،
كما تنازلت عن كل ما عسى أن أنا له بواسطة القبض عليك من الرتب والمناصب ،
لتعلم أن فى بقية الكرام . ولكن إياك وهذا الطريق المملوك ، فرمما صادق
من يقبض عليك فيه . فصرج عنه إلى جهة اليمن ثم مد يده إلى جيبه ، وأخرج
ثلاثة جنيها ودفعها إليه ، وقال . والله هذا هو كل ما أملك الساعة ، فخذ وأستعن
به على أمرك .

وأخيراً قبض على التديم فى نوفمبر سنة ١٨٩١ هجرى . به إلى طنطا ، وحبس
أياماً بها حتى عفا عنه الخديو توفيق على ألا يمكث بالأراضي المصرية . فاختار
التديم (باقا) فاسفر إليها ، وكان فى استقباله العلماء والأدباء والأعيان ، وبقى
فى ضيافتهم أياماً . ثم اتخذ لنفسه داراً أقيم بها سبعة أشهر . وكانت هذه الدار
منتدى الصفوة المهذبة فى تلك المدينة . وانتهى التديم فرصة وجوده بفلسطين
فأخذ يطوف بأنحاءها ، ويرى وزاراتها . ويملا ناظره بحال الطبيعة بها .

ثم حدث أن ولى أمر الديار المصرية أمير فى ريمان الشياح ، هو الخديو
عباس الثانى ، وكان رجلاً حراً فى آرائه ، وكان الشعب المصرى الذى تفتج فيه
الوعى القومى بعض الشيء يبادل الأمير حباً بحب . وكان من مآثر هذا الأمير أن
عفا عن التديم ، وأذن له بالرجوع إلى القاهرة ، وذلك فى عام ١٨٩٢ م .

وفكر التديم أول ما فكر بعد رجوعه إلى أرض الوطن فى إنشاء جريدة
له جديدة باسم (الأستاذ) وعاد أمر التديم إلى الظهور ، وبلغت شهرته مسامع
الباب العالي ، غاف السلطان عبد الحميد شراً هذا الداهية الأريب ، وفكر فى أن
يسكت به الطريقة التى أسكت بها السيد جمال الدين الأفغانى ، وهى أن يسكته
تصراً من قصوره بالأستاذة ويجعل فيه الخدم والحشم ، ويعين منهم الأرماد

والزقبا. ودعى النديم إلى السفر إلى الآستانة وهناك عينه السلطان مفتقراً
للمطبوعات ، راتب شهرى قدره خمسة وأربعون جنيهاً ، يضاف إليها خمسة
وعشرون جنيهاً من الحكومة المصرية .

وفى الآستانة سعد النديم بصحبة السيد جمال الدين الأفغانى ، ولكنه اصطدم
فيها بشخصية عجيبة هى شخصية (أبى الهدى الصيادى) وهو رجل سورى من
حلب ملا قلب السلطان عبد الحميد . إذ كلف يفسر له أحلامه ويكلمه كلاماً
على هواه ، وما زال أمره بالآستانة فى ازدياد حتى سعى (مستشار الملك) ،
(وحامى المغانين) ، و (سيد العرب) ومع ذلك لم يخش النديم التعرض لهذا
الرجل ، ولا تهيب منازلته وهو فى جبروته وعظم صيته ، فكشف كتاباً فى هجائه
سماه (المسامير) وما زال به فى الكتاب يفسره ويطلوه ، ويأتى بكل جديد فيه ،
حتى آله وأرجفه ، وأصاب منه مقتلاً .

ثم لم تطل حياة النديم بالآستانة ، فقد أصيب فيها بالسكر ، ومات فى الرابعة
والخسين من عمره ، وكما يقول أحمد سمير (متعتلاً) .

خرجوا به ولكل باك حوله صفقات موسى يوم ذك الطور
هذا وقد وصفه المرحوم أحمد باشا تيمور فقال .

وكان شمسى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجد ،
تقيته مرة فى آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلاً فى ذكاء وإياس ، وفصاحة سحبان ،
وقبح الملاحظ ، أما شعره فأقل من ثمره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية
التقصوى فى حصرنا هذا (١) :

ففى سبيل الصحافة والوطن ما تعمل النديم من أذى ، وما قاسى من أهوال ،
وما ذاق من تشريد واغتراب دونه كل عذاب فى هذه الدنيا .

هكذا كان النديم أديباً جريئاً ذائع الصيت ، وكانت له من المواهب ما ليس
لغيره من رجال مصر كأرائنا . قوة فى الخطابة وقوة فى الكتابة وجراءة على
الحكام ، وقوة فى البرهان . وقوة فى البديهة .

(١) آميان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر .

ولكننا إذا أردنا أن نحاسبه على أنه زعيم أو عظيم قلنا إنه كان دجلاً لا يسيطر على الحوادث المحيطة به ، ولا يدرس الظروف التي حوله ، ولا يفكر كثيراً في المستقبل . والعظيم لا تسلم له عظيّمته بالمعنى الصّحيح إلا إذا كان ذا حظ من هذه الصفات .

ثم كان للتدعيم فضل آخر لاسيّل إلى إنكاره ، هو الجهد الذي بذله في الإصلاح الاجتماعي ، فقد نبه الناس بقوة في صحفه - كما سنرى ذلك - إلى الصوب المتفشية في المجتمع ، وكان لا يترك طريقة إلا سلكها في سبيل هذه الغاية . وأما الإصلاح السياسي فلم تكن له فيه خطة واضحة كل الوضوح ، يدلنا على ذلك أنه لم يتخذ لنفسه منذ أول الأمر رأياً في الثورة العرابية ، فقد وجدنا الثوار يأخذونه قسراً ويضعونه إلى صفوفهم قهراً ، وهو لا يستطيع لهم ودّاً ، بل كان يكتفي بأن يتألف صراً من وقوعه في هذه الورطة ، فإذا خلا بأحد من أخصائه أظهر له حقيقة ما يضره . وفي ذلك يقول أحمد سمير وهو يترجم له في كتاب (سلاطة التدعيم) :

سمعت مرة في غفلة نومه حيث لا نألك بينما يقول ما معناه : إن البلاد قد ضاعت بتهور رؤساء الجند الذين خدعونا في مبدأ الحادثة ، وأوهمونا أن لا خوف من العاقبة ولا فزع ، فإنما هي أقوال تحرب بأقوال ، وقد اعتاد الأجانب أن يلفوا منا ما أرادوا بالتهديد والإيهام ، فنحن إنما نقابلهم بالمثل ، وإلا فهم أعقل بكثير من أن يقصدوا محاربتنا فعلاً . ولكن وجدنا الآن يحدثني بفساد هذه المرام ، فقد تفاقم الخطب ، واشتدت النازلة ، وظنى أن الحرب واقعة ولا بد . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إنه ليس لنا اليوم إلا أن نبقي مسيرين لاغيرين ، فقد ملئت الكأس ولا بد من شربها ، ولم يحض أكثر من أسبوعين على هذه الحادثة حتى زلزلت الأرض زلزالها ، وهاجت القاهرة وماجت ، وحمل البرق إلينا من الإسكندرية أخبار ضرب الإنجليز لها في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وانتشار الحرب بينهم وبين صرايى .

ليس معنى ذلك أن التدعيم كان مذهباً في مذهبه السياسي ، أو أنه يعد هذا الحزب السياسي بما يعد به الحزب الآخر ، لا . فقد كان التدعيم من هذه الناحية (م ٩ - أدب المقالة ج ٢)

بطلا في جميع المحن التي مرت على مصر في حياته ، وقد صمد وحده في الميدان في الوقت الذي فر فيه من هذا الميدان كثير ، ولكن التاريخ يؤخذ الناس كلا على قدر منزلته وموهبته . وقد خسر الله التديم بلائحة من هذه المواهب كان يستطيع بها أن يقيم من أود الثورة ، وأن يطفئ من حدة الثوار ، وأن يقود السفينة إلى بر الأمان . ولكنه لم يرد ولو أراد لتولى لسانه مهمة الإقناع .

أجل : لست أنكر على كثيرين من زعماء المصريين في ذلك الحين أن الثورة جرفتهم ، وسلبتهم إرادتهم . ولكننا نأخذ على الزعماء — هذا الموقف ، لأنهم الراشدون في هذه الأمة ، وعليهم يقع عبء توجيهها ورد الطائش منها إلى شيء من الحكمة والروية والتدبر ، وعبد الله التديم واحد من أولئك الزعماء ، بل هو أخطرهم وأقربهم إلى نفوس الشعب إذ ذاك .

وفي رأي أن أعظم ما في التديم إنما هو شعبيته وقوة حيويته وميله الشديد إلى الاجتماع بالناس ، فهو رجل غاطت الشعب في جميع الطبقات ، فرة يكون مع السفلة وأخرى يكون مع العلية ، وثالثة يكون مع التجار ، ورابعة يكون مع الأدباء والعلماء ، وخامسة مع الوزراء والأمرء ، وهذه كلها خصال تنفع النفع كله في تكوين الأدب الاجتماعي — أو عبارة أخرى — في تكوين الصحافي . ولكن الصحافي فوق حاجته إلى كل هذه الأمور ، فإنه بحاجة كذلك إلى دراسة الهدف الذي يرمى إليه ، ودراسة الوسائل التي توصله إلى هذا الهدف . حتى إذا فرغ من هذه الدراسة بدأ جهاده ، فلأن وفق فيها فذاك ، وإلا فقد أدى واجبه نحو أمته بقدر ما استطاع .

مهما يكن من أمر فقد كان التديم بوقاً عظيماً للشعب ، وبوقاً عظيماً للجنود ، وبوقاً عظيماً للثورة ، ثم بوقاً عظيماً في أخريات حياته للتدبير عباس الثاني ، وقد فلنا أن الحديوي كان شاكراً حراً جريئاً وكانت له توجهات حكيمة وآراء سديدة اتخذ من التديم معروفاً مصفياً له على نشرها ، والترويج لها ، وكانت التديم صفة شعبية محبة إلى النفس ، هي صفة الإخلاص المبدأ أو الرجل أو العمل الذي يختاره لنفسه ويؤثره بحبه ، وهي صفة قل أن تجد لها في غيره ممن شاركوا في الثورة الرابية أو عاشوا بعدها .

كما سبق تتضح لنا أخلاق السيد عبد الله التديم، ويتضح لنا جانب من جوانب شخصيته . وهي شخصية غربية كل الغرابة في كل طور من أطوار حياته التي وصفناها بإيجاز شديد ، لأنه لا سبيل إلى التفصيل فيها على نحو ما تستحق من هذا التفصيل .

ولعل القارىء راحه في أخلاق هذا الكاتب خلق الصبر إلى الحد الذي لا نعرف له نظيراً إلا في الأساطير ، ثم خلق الثيرة على مصلحة الدين ومصلحة الأمة ، ومصلحة اللغة ، بما لا يدع مجالاً للشك في صدقه وإخلاصه وتفانيه في خدمة الوطن . ثم خلق الجرأة إلى الحد الذي يرهب به الجبايرة من الملوك والسلاطين ، ولا يرهب هو من أولئك الجبايرة أو الملوك والسلاطين . ويحسن بنا أن نأتي ببعض أبيات قليلة مما نظم التديم نفسه في ذلك ومنه قوله :

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| إذا ما البحر صافانا مرحنا | وإن عدنا إلى خطب تُشغينا |
| صلينا يا هموم قد عرقنا | بأتنا الصلب مُصلنا أم صلينا |
| لنا جلد على جلد يقينا | فإن زادوا البلا زدنا يقينا |

ومنه قوله في الاستهانة بالخطوب :

| | |
|------------------|-----------------|
| لأن قوماً تبحسوا | ويقتلن نحمدهوا |
| لا أبالي بهمهم | كل جمع مؤنث ! ! |

الحق أن التديم منظر من مناظر الحياة المصرية لن تكتب له العودة إلى هذه الحياة مرة أخرى ، وقطعة من قطع هذه الحياة لن يجد البحر بثلاثها مرة ثانية ، ولون من ألوانها كذلك لن تراه مصر في المستقبل .

أما للتديم من حيث مواهبه الكثيرة التي فتح الله عليه بها فكان كنزاً عظيماً من كنوز مصر لولا أن هذا الكنز كان موزعاً على نواح كثيرة . ولو أنه تفرغ لناحية منها لطورها وبلغ بها الناحية المرجوة منها ، ومن أهم هذه النواحي التي نشير إليها ناحية القصة ، وناحية القصيدة وناحية المقال .

الفصل السابع

الأسلوب الأدبي للنديم

من حياة النديم نعلم أنه بدأ حياته الصحفية بالكتابة بالإسكندرية في صحف أدب إسحق وسليم نقاش . ثم عزم على أن تكون له صحفه الخاصة به بعد ذلك فكان له من تلك الصحف ثلاث :

١ - صحيفة التشكيك والتبكيك في ٦ يونيو ١٨٨١

٢ - صحيفة الطائف في سنة ١٨٨٢

٣ - صحيفة الأستاذ في ٢٣ أغسطس ١٨٩٢

كان في أولها معنياً بالإصلاح الخلقى والاجتماعى . وفي الثانية معنياً بالثورة العربية ، وفي الثالثة عاد إلى الإصلاح الاجتماعى مرة أخرى ، واهتم إلى جانب ذلك بالإصلاح السياسى .

ويجمل بنا قبل الوقوف عند كل جريدة من هذه الجرائد الثلاث أن نصف نوع العلوم التى اتصل بها ، ونشرح نوع الثقافة التى أعانتها على مهمته ، وإن كانت هذه الثقافة كما قلنا ليست ثمرة مدرسة أو جامعة ، ولكن ثمرة الحياة التى كان يحياها هذا المغامر النادر المثال .

حدثنا أحمد سمير في ترجمة حياة النديم قال :

« وله - أى للنديم - من المؤلفات الكبيرة والصغيرة ما يعد بالمئات ، منها ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت - نظمها وشبابه باسم الشمر طلق الميها - وديوان آخر في ثلاثة آلاف بيت - وروايتا « الوطن » و « العرب » - ووسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدى جامعى السلافة منها إلا إلى أربع عشرة رسالة بعد السعى الكثير ، ومكابدة الصناء الجزيل (وكان ويكون) (وهو الذى طبع بعضه في الأستاذ) - وواحد وعشرون كتاباً في فنون مختلفة ، قطع لأجلها أيام

حرب الاختفاء وغاب الفراغ بسيف الأقسام . منها ديوان شعر يحتوى على ما يقارب عشرة آلاف بيت ، وهو الآن محجور عليه في القسطنطينية مع باقي تلك الكتب التي ينادى لسان حال كل واحد منها وقها ، النحة في الرعدة - الاختفاء في الاختفاء - والشرك في المشترك - وكتاب في المترادفات - وآخر في اللغة سماه : موحد الفصول ، وجامع الأصول - والمرائد في الصفائد واللاله والدرر في فوائخ السور - والبديع في مدح الخفيف - وأمثال العرب ، الخ .

ثم قال أحمد سمير :

ولضيق أغلب مؤلفاته بواضت شق ، منها أنه كان إذا سود شيئاً جاء إليه من يستعيره منه ، ثم لا يردده عليه ، وقد فعل ذلك معه جماعة من أهل القاهرة والإسكندرية والمنصورة . ومنها أنه كان مقياً في بلدة من أعمال الدقهلية يقال لها بدوى ، فبلغه أن فريقاً من أهل البلدة يأتهمون به ليقبضوه ، فانتخذ الليل حلاً ، ومضى إلى حيث يأمن ، فلما جاء المؤتمرون ولم يجدوه أحرقوا البيت حقناً ، فاحترقت كتبه فيه . ومنها أنه زمن مقامه بالمنصورة للاجبار ، غافله غادمه وسرق بعض متاع البيت ، ومنه الكتب ، وهرب . ومنها أن والده رحمه الله هاجر من الإسكندرية إلى القاهرة فيمن هاجر يوم الحرب الأخيرة ، فأحضر معه كتبه جميعها (وكان لي أنا أيضاً فيها كتب قيمة) وملاها وبياق أمتعته حربة قتل من حركات السكة الحديدية ، فلما وصل القطار إلى كفر الزيات ازدحم المسافرون من المهاجرين وغيرهم ازدحاما هائلاً ، فلم يسع رجال المحطة إلا أن رموا جميع ما يملك العرب في النيل ليركب الناس فيها .

ونحن وإن لم نطلع على هذه الكتب التي ألفها النديم فإننا نستطيع أن نقول إن موضوعها شعر ، والتمثيل ، والأدب ، واللغة ، والفقه ، والتصوف ، والبديع . والظاهر أنها لم تكن تعدو ذلك ، ثقافته إذن ثقافة لغوية أدبية دليمة في أكثرها مع أنه لو تمتعت ثقافة هذا الرجل واتسعت إلى ميادين شتى ، لكان لمصر منه رجل لا يقل في شأنه عن الماحظ ، لأن له قلباً كقلبه ، وخلقاً كخلقه ، واستعداداً كاستعداده ، وقلماً مسهباً كقلبه ، ونفساً طويلاً في الكتابة والحفاطة كنفسه ،

وحباً في الظهور كحبه . وحرصاً على تسجيل كل ما يمر به كحرصه . ولكن أنى التديم أن يبلغ ما يبلغ الجاحظ ، ولهذا الأخير علم لا يدانيه علم ، وإطلاع لا يتماثل به إطلاع . والفرق بين المعصرين الذين أظلام مذين الرجلين كبير إلى درجة لا تسمح بالموازاة بينهما .

أجل حبذا لو كان التديم متعلماً على الطريقة المنظمة عارفاً بلغات كثيرة ، قارئاً لنماذج من الآداب العالمية في عصره ، إذن لكان لنا منه أديب وعظيم نفاخر به الدنيا كلها والأمم بأكملها .

على أنى أحب أن أسوق لقارئ مثلاً واحداً من أمثلة دراسة التديم البديع ، بعد أن درسه بنفسه وبدون إرشاد من الأساتذة ، لجاءت دراسته مع كل هذا دقيقة مستفيضة ، يدلنا عليها أنه تعرض يوماً لأنواع البديع المختلفة في سورة الفاتحة ، فمجينا كيف استطاع التديم أن يصل إلى خمسة وسبعين نوعاً من أنواع البديع في هذه السورة التي لا يزيد عدد كلماتها على خمس وعشرين كلمة^(١) .

ومارس التديم الكتابة قبل ممارسة الصحافة فكان يميل ميلاً ظاهراً إلى البديع ويتأفقت تهاقاً قوياً على السجع ، وتفق في ذلك حتى على التذمأ أنفسهم . ومن أمثلة ذلك ما كتبه بعنوان :

لله القرو وعار القرو :

وهي رسالة عجيبه كتبها التديم بنظام غريب ، فكان يأتي بسجعة - بعدها آية قرآنية واستمر على هذا النمط من بداية الرسالة تحريماً إلى نهايتها ، مع تمكن شديد من الدخول على الآية في غير تكلف ظاهر .

لقد كسب إلى صديقه عبد العزيز بك حافظ حينما رآه يجتمع ببعض المغاربة ، ويشتمل معهم بمخارقات باطلة . يقول^(٢) :

لا حول ولا قوة إلا بالله . اشتبه المراقب باللاء ، واستبدل الحلو بالمر ،

(١) انظر الجزء الأول من سلافة التديم فصلاً بعنوان حسن الإبداع .

(٢) سلافة التديم الجزء الأول ص ٣٤

وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف ، والمخز بالخسف ، وأظهر كل لئيم كبره ، إن في ذلك لعبرة ، مما سما ، فالوشاة إن سموا لا يعقلوا ، ويعيون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار في صفة المنبر ، وقد بدت البضياء من أفواهم وما تخفى صدورهم أ كبر ، وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزجر ، ولقد جاءهم من الأنبا ما فيه مودجر ، عجبت لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، فقابلوهم بنبال الطرد في الاعتناق ، حتى إذا أمتتهم قدسوا الوثاق ، أبدخلون بما لا ينفع ، في يوت أذن الله أن ترفع ، سيعلون مقام المهيوط والعروج . يوم يسمون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ، ويقولون إذا لم يحدوا ملاذاً ، يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ، فإنهم عزموا على الإقامة مدة ، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، وأنت يا عزيز العلياء وحيد الدنيا قد يئيب لك فعلهم ، فبأرحمة من الله كنت لهم ، ولكنهم طعموا في عيم طولك ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانقضوا من حوك ، أترام يعقلون كلامك أو يفهمون ، لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ، لهم قلوب لا يدرون بها الحسد قراراً ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم قراراً ، ولاني قد شيدت لك بقلبي حصناً صعباً ، فاستطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له تقياً ، نسيت بالعاذل جميل الصوت وأنكره ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، رميت أيها العاذل بسيف الغدر في تحرك ، أجمتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ، فإن لم ترجع عن السحر وفعله ، فلنأتينك بسحر مثله ، كيف يسمى العاذل بين التديم وألفه ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ، فبإساذق دعوتي من المعجب والمطرب ، ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، واجعلوا سيف ثباتكم العذال مسلولاً ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مستوً ، فإنهم إن قالوا كذب التديم أو بطر ، سيعلون غداً من الكذاب الأشر ، وما قد صار أمر الحويين عندك جلياً ، أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ، أظن عهد العاذل عند غضبك لا ينكث ، مثله كمثل السكب إن تحمل عليه يلهث ، على أنه لكم عدو كبير ، ففروا إلى الله إني لكم

منه نذير ، فإنه جمع لقتالك الأولاد والأحفاد ، وآخرين مقرنين في الأسفاد ، تركوا أمر الله واشتغلوا بما يرضونه ، فأعقبتهم نقابا في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، وظنوا أن وصل إليك كتابي أنهم يطردون ويردعون ، وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ، أيعجبك إذا مشى هذا اللاه ، ثاقى عاطفه ليعزل عن سبيل الله ، وإنك إن فرحت بعلم ما يجهلون ، قد نعلم أنه ليحرقك الذي يقولون ، فإن قلت إن اجتماعي بهم لأجل الصدقة أو شيء من هذا القليل ، إنما الصدقات للفقراء . ١١ الك . السالمين عليها والمؤلفة قلوبهم والمؤمنين وفي سبيل الله وابن السبيل ، إذ شاء بنعيم ، وطباعهم كما تعلم منسكرة مستغفرة قسوة . وقد قال وفاقى خاطب عزيك هذه

المرّة وإن لم يعمل فيك فكرا ، وما يدريك لعله يركى أو يذكر فتشفعه الذكرى ، فقال لسانك إن الود هو الرسول المأمون ، فأرسله معي رداً أصدقني إلى أعاف أن يكذبون ، فقلت سيروا مع المحبة ذات الفتوة ، ولا تكتولوا كاتلي تقتض غزوها من بعد قوة وقولوا له عند الناية ، قد جئتكم بآية ، ولا تهاجروا جيش الأعداء . ولن كبر ، ستموم الجمع ويولون الدبر ، ولا تظفروا من ظاهر الأمر حول البلوى ، إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، بل قاتلوهم قتال المستشهدين ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين ، وإذا اشتبك القتال فليذب كل منكم عن مولاه ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، فسيروا ودعوا الأولاد والجنّة ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ، ولا تسألوا عن الميرة من أصله . وإن خفتهم حيلة فسوف يغنيكم الله من فضلّه ، فإن الله قد أثاركم لقتال العدال الماتين ، يقطع طرقا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، واحملوا عليهم فلأنهم متى طعنوا في جنوبهم رضوا بأن يكونوا مع الخولاف وطبع الله على قلوبهم ، ولا تدبروا إذا أرىتموه إقدامكم ، إن تنصروا الله تنصركم ويثبت أقدامكم ، وإن أخذتم أسرى قاتلوا أنصارها . فلما منّا بعد ولما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، فإن أظلمت فستم وأصلح الله بالكم ، وإن تولوا يستبدل قوماً غيبركم ثم لا يكونوا أمثالكم ، وسأتلوا في خطبتكم عند قدومكم سالمين ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

تكفيننا هذه الرسالة دليلا على أن التديم كان في المرحلة الأولى من تاريخه الأدبي مفتونا بالسجع وبغيره من ألوان البديع ، وقد بدأ التديم يكتب على هذه الطريقة منذ السادسة عشرة من العمر ، فقد أمدت الذين أرخوا حياته بطائفة من الرسائل الأدبية المنسقة التي كتبها في صباه تقاربت العشرين رسالة . أولاها رسالته التي عنوانها .

أول النص في أدباء مصر :

قيل أنه كتبها منذ دخوله القاهرة ، أو منذ عمله بالنصر العالي . واجتماعه في أوقات فراغه بجماعة من الشعراء والمثقفين . وذلك عن طريق صديقه الشيخ أحمد وهبي . ولذا ذلك تصرف التديم بستان الشعراء . ثم سرعان ما كتب - وهو في هذه السن المبكرة - رسالة في تراجمهم بدأها بقوله :

« . . . وبعد فهذه نتيجة بهيجة عن ناقل الأكياس من الناس ، روى عن فكره عن لبه عن نظره عن قلبه . حديثاً الصدق منه ، والحق عنه ، وافقه إليه والقة عليه ، إنه وكب أفراسه ، وثار واستصحب الفراسة ، وسار بصوب الأنظار اختباراً ، ويترك الأوطار اختياراً ، ويقرأ الجرائد اكتشافاً ، وينظر الخرائد استطلاعاً ، في شرف نفس عن الناس ، على طرف أنس بلاكس ، لانه المتعصب عن أمه ، ولا تلهيه الملاعب عن عمله ، حتى ملا أوعيته حكا ، وطاد أنديته حكا ، وقابل أحباره ببضاعته ، وقص أخباره على جماعته ، فخطوا رده وسهم وناموا ثم قطبوا وجوههم وقاموا ، سكوتاً لا يتكلمون من ألم ، ومرضى يتألمون من الندم ، فتملق بالأذيال وصاح ، وتحقق الوبال ففاح ، ونادى بأعلى صوت أيها الكرام . .

على هذا النقط الذي يذكر القارئ بأسلوب المقامة في الأدب العربي سار التديم في رسالته حتى هيا لنفسه الطريق إلى مدح أولئك الأدباء الذين عرفهم

واتصل بهم ، وأشبع في نفسه رغبة جامعة وشهوة عارمة ، هي شهوة الاجتماع بالناس ، والتحدث إليهم والانتفاع بأفكارهم وآدابهم .

وفي هذه الرسالة استطاع هذا الفنى اليافع أن يهدى بالله من الزهر إلى أدباء العصر وهم بحسب ورود أسمائهم في هذه الرسالة ، السيد أحمد وهبى ، وعبد الميز بك حافظ ، والسيد على أبو النصر ، ومحمود أئندى صفوت الشهير بالساعاتى . ومحمود بك سائى البارودى (محمود باشا فيما بعد) والشيخ أحمد الوراقى ، ومحمد بك سعيد نجل جعفر باشا مظهر ، وعبد الله فكرى (عبد الله باشا فيما بعد) .

ما كان أشد كلف القديم منذ صباه بالسجع ، لقد كان يأبى إلا أن يكون عنوان رسائله مسجوعا ، ومن رسائله المسجوعة حتى في عناونها : التنوير المسحور في المغامرة بين السفينة والواجر ، وطالع الكرامة بحسن السلامة ، ودور النخلة وغرر الرحلة ، حفظ الودائع لدرر البدائع ، تنبيه اللييب وتسلية الحبيب ، الساقى على الساقى في مكابدة العشاق ، رياض الرسائل وحياض الوسائل ، حوض الخمر وحوض البحر .

وكانت هذه الرسائل كلها ترويضاً للفنى على الكتابة ، وتدريباً له على التتميم في التحرير ، ولم يكن في هذه المرحلة إلا مقلداً لروح العصر ، ومحاكياً لطريقة أعلامه في النشر .

غير أن القديم في هذه الرسائل كان يبدو متأثراً كما قلنا — إلى حد بعيد بأسلوب المقامة . بل يظهر أن المقامة كانت ألح شيء في أدبنا المصرى في القرن الثامن عشر حتى تأثر بها وساكها كل أدب من أدبائنا في القرن الذى تلاه ، على تفاوت بينهم في هذه المحاكاة .

ولم يشتمل هذا الفنى بالصحافة بعد ذلك لبق يكتب بهذه الطريقة حينها طول حياته ، فقد كانت له قدرة بالغة منذ نشأته على الإتيان بهذه الأسجاح ، إلى درجة أنه لم يكتف بالقوافى الخارجية للجمال حتى جعل لها قوافى داخلية أيضاً كما في قوله من ضمن رسائله السابقة « فمرأى الناس يتهادون بالمواهب مع اختلاف المذاهب

في المعاملة ، وكل يتأذى على بضاعته ويفتخر بصناعته حتى يكدر آمله ، فلا يرجع
منها غير السكاسد ولا ينجع منهم إلا الخاسد البليد الخار تراه في المشدقة ، كأنه
في مشقة يحاول الفرار ، يعارض أستاذه ، ويقتل أفلأذه بما يديه ، إذا دخل
على أمير ، لا يفارق السرير حتى يسديه ، وإن فارق صوبه ، جر ثوبه مهرولا في
مشيته ، يسلّم بالبنان وينكر بالجتان ويبعث في لحيته

ولا شك أن هذه وأمثالها لا تعدو كونها محاولات أولى يتفق بها الفتي
طريقه إلى الإنشاء . والحق أنها أفادته وهبأته للجهد الصحفي الضخم الذي بذله
ليأ بعد .

ولقد كانت با كورة هذا الجهد الصحفي المجهد مقالات كتبها في مجلتي المحروسة
والعصر الجديد لصاحبها أديب إسحق وسليم نقاش ، غير أنه لم يدم على ذلك
طويلا حتى حصل من الحكومة على إذن له بإصدار :

الفصل الثامن

جريدة التنكيك والتبكيك

في ٦ يونيو سنة ١٨٨١ أصدر النديم أول عدد من أعداد هذه الجريدة
وكتب افتتاحيتها بعنوان (أيها الناطق بالعداد) قال فيه :

أقدم بين يديك بخدمة وطنية ، دعائي إليها حبى فيك ، وخوفي عليك ،
وما هي بالخطبة فتشكر . ولا بالبلغه فتمدح ، وإنما هي صحيفة أدبية تهذيبية ،
تتلو عليك حكماً وآداباً ومواعظ وقوائد ومضحكات ، بمبارة سهلة ، لا يحتقرها
العالم ، ولا يحتاج منها الجاهل إلى تفسير ، تصورك الوقائع والحوادث في صور
ترتاح إليها النفوس وتميل ، ويغبرك ظاهرها المستهجن بأن باطنها له معان مألوفة ،
ويليك قفاها الخلق بأن تحته جمالا يصدق ، وحسناً تلعب الأرواح في طلبه ،
هجوها تنكيك ، ومدحها تبكيك . ليست منمقة بمجاز واستعارات ، ولا مخرقة
بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بركة قلم محررها ، وغمامة لفظه وبلاغة عباراته ،
ولا معرية عن غرارة علمه وتوقد ذكائه ، ولكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولغة
ألفنا الممارسة بها . . فهي في مجلسك كصاحب يكلّمك بما تعلم ، وفي بيتك
كنادم يطلب منك ما تحذر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتوى . فاجعل لها
نصيباً من عرك الجليل . ومتعباً بنظرة تجلّو مرآتها ، وتبصر غباياها . ولا تفوق
سهام الرد قبل أن تدخل المضمار ، ولا تشكر عليها ما تحدثك به قبل أن تطيقه
على أحوالنا ، ولا تظن مضحكاتها هزواً بنا ، ولا ستغريه بأعمالنا ، فما هي إلا
فتات صدور ، وذرات يصعدا مقابلة لحضرتنا بماضينا ، فإن صدقت في
الخدمة فأعجزى منك المساعدة ، وإن قصرت فقد بلغت جهدي ، وحزمت ما في
إمكانتي فإن شئت عذرت ، وإن شئت أطلقت عنان ألسنك في ميدان يكبو
فيه جوادى .

ولسنا بدار الحرب أو أرض قتلة ولكن لنا في العالمين نظير

ثم معنى التديم في هذه المقدمة البليغة يوضح للقراء كيف تخدم القرب وتأخر الشرق ، أو كيف تنبه الأوربي ونام المصري ، وكان أسلوبه في أداء هذا المعنى موسيقياً بما كان يوفر له من السجع أو الوداج ، وجزلاً بما كان يؤثر إذ ذاك من لمحة الألفاظ . وذلك حتى ختم حديثه بقوله :

« وسأتحفك بنرائب قومك ، ومنافب أصلك أقدمها إليك شذوراً مردقة بما نحن فيه من التنكيت ، نلحذر المهتمين ، وترحم المسكين ، وتكون من الذين أعادوا بجمدم ، وأحبوا أوطانهم فأصبحوا ببقاء ذكرهم في الوجود من الخالدين » .

ثم جاء هذا العدد عامراً بمقالات كثيرة ، بعضها باللغة العربية الفصيحة ، لأن الحديث فيها موجه للخاصة ، وبعضها الآخر باللغة العامة غير النصيحة لأن الحديث فيها موجه إلى العامة ، والتديم يقيم من نفسه أستاذاً لهؤلاء . هؤلاء ، كما كان يفعل الأستاذ الإمام سواء بسواء ، مع ملاحظة فرق واحد بينهما ، هو أن الإمام لم يحاول قط أن يصطنع في الصحف لغة الشعب ، وإن كانت لغته قريبة كل القرب من هذه اللغة كما رأينا ، على حين أن التديم كان لشعبيته التي أشرنا إليها يلذ له أن يجعل للشعب من صحافته نصيباً موفوراً فن الموضوعات التي قصصها التديم إلى الخاصة موضوع كتب في هذا العدد الأول من أعداد جريدة التنكيت والتبكيك بعنوان .

يجلس طبي على مصاب بالافرنجى^(١) :

دخل به في صميم المسألة المصرية التي كانت تشغل الإنعام في وقته وكفى

(١) الأفرنجي كلمة كان يطلقها المصريون في القرن الماضي على مرض الزمري والسكراب

يستعملها استعمالاً مجازياً كما يدل عليه سياق الحديث . والقال مأخوذ من كتاب سلافة التديم -

الجزء الأول صفحة ٧٩ .

بلفظ « مصاب بالأفرنجى عن الخراب الذى أصاب البلاد وكان نتيجة لإسراف
إسماعيل ، ووقوعه فى الديون ، ثم تدخل الأجانب فى مصر وفرضهم الرقابة
الثانية عليها ، إلى آخر تلك المصائب التى حلت بالبلاد ، وتآلم لها أهلها جيلاً
بعد آخر .

وانظر إلى التديم يقول فى هذه القصة التى رمز بها إلى جميع تلك الأمور :

كان هذا المصاب صحيح البنية ، قوى الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف
الشكل ، مراءً فارخ القلب إلا "صعباً ، ولا سمع بذكره بعيد إلا طاراً إليه شوقاً ،
نفأً فى العالم وروحة ، ودار به أهله يحفظونه من الأعداء ، ويدفعون عنه الوشاة
والرقباء . وقد مات فى حبه جملة من العشاق الذين خاطروا فى وصاله بالأرواح
والأموال ، وكما وصل إليه واحد سحره بركة ألفاظه وعذوبة كلامه ، وسلب عقله
بهجة بحار الطرف فيها وعزة لا يشاركه فيها مشارك . وهو هو غزال فى الخفة ،
وغصن فى العين ، وبدر فى البهجة ، وجنة فى المنظر . تمر عليه الدهور فزبد
حسناً ، وتترأى عليه العشاق فتزداد هيأماً . وأهله فرحون بهذا البديع الفريد ،
والطالع السعيد ، يشقون الموت فى حياته ، وقد اتفقوا على توحيد كلمتهم فى
حفظه ، وجمع شتاتهم فى رعايته ، وصرف حياتهم الطيبة فى بقائه فى الوجود معزراً
بأهله ، مؤيداً بمشائره ، حتى لا يجد إليه يد عدو ، ولا يوجه إليه فكر محتال ،
ولا يقرب منه مختال .

وبينا هو يقيه بحسنه ، ويدل بهجائه ، صحبه أحد المضلين ، واستماله بنفاق
تجميل إلى النفوس ، وتلقى ينجمل ، فظن أنه أن هذا المضل من الأتقياء الذين
لا يهرقون اللغو ، ولا يميلون إلى المفاصد ، وسلوه جنة حياتهم ، وروضة ثروتهم ؛
فدار به فى الأسواق والطرقات ، وعرضه للعشاق تقبله جهاراً ، وتسابه حلى أصابعه ،
وزينة صدره ، وقد علموا أن الجمال يأسر الجليل فأحضره من القوافى من تعارض
الشمس بحسبها ، وتكشف اليد بثورها ، فذرن فى سبيل بيته يغازل أهله بنهات
تحرك الجبان ، ومؤانسة تستميل الشجعان ، حتى سلبن العقول ، وحوّلن الطباع ،
وبعضن المحبوب لإلهم ، وألهين كل شئ لب عن أفكاره ، وأنسين كل مدير

ما كان يتصوره من نوايا الحكم ، وغريب الأمثال ، وجمال الجان مينولا
بلاقيمة والوصال منحواً بلا مقدمات . وذلك صاحب مكب على هواه ، مغرم
بجمع الغرائب ، واستدعاء الأعداء ، ومصاحبة الأشقياء ، ومسامرة الأغبياء ،
ينام وعجوبه قلق ، وبضحك ومشوقه كئيب ، إلا أن هذا الغزال الطاهر
المرض لما رأى أهله أهدروه وأحملوه واشتغلوا بالنوائى ، وولعوا بخدمة
الاجانب ، وانكبوا على الملاهي يتبعون آثارها ، استسلم القضاء ، وترك التفار
والتحمس ، ومال مع أغراض هذا صاحب وسار منه في طريق لا يرى فيه أحداً
من أهله .

فأهى إلا وشقة كأس حتى اسفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت
بهجته ، فلم يحسمه الشريف إلى الفراش يتملح عليه ، ففطن له واحد من أهله ،
وزاره في خربة لم يجد فيها غير شيخ يعلل نفسه بالأمانى ، ويصعد الزورات . وقد
رذت عظام وجهه ، وغابت عيناه ، وتشره وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبايح تنفر
منها الطباع ، فبكى وانتحب وقال :

أى حيانى ، أى جتنى ، أى نزهتى ، أى مطلع عزى ، ما الذى أصابك ؟
أين جمالك البديع ؟ أين محياك الوامى ؟ أين حسنك الذى أفنى الكثير من
المشاق ؟ أين صحتك التى أشابت الدهور وهى فى صفوان الصباب ؟ أين قوتك
التي أسرت بها الأشباح ؟ أين وقتك التى جذبت بها الأرواح ؟ أين ما كان عليك
من الحلى والزينة ؟ أين تاجك الذى ما لبسه إنسان إلا اقتخر على الوجود ؟ ...

فتنفس المصاب تنفس الضعيف ، ورمقه بين لا يكاد يتحرك جفنها ، وقال
بصوت خفى : لا يمز عليك جسم أمرضه أهله ، فإنكم تركتموني لصاحي يدور
في أيما دار ، فمرضني لمن لم أعرف طبعه ولا عادته ولا لفته ، واكل في من
يفرنى ويسلك في سبيل الغواية فلم أجد بداً من الموافقة ، وحدث في أما كن اللهو
حتى أصبت (بالداء الأفرنجي) فلم أعبأ به في أول الأمر ، وتركته تقسى ،
وكنتمت خبري ، فإني لم أجد أحداً من أهل حولى . ولم أعلم أن الداء سرى في

دى وعروق ، وتمكن من عظامى وأعصابى ، حتى ولم يترك عضواً من أعضائى إلا أنشعب فيه .

فلما ضعفت قواى ، وتسلطت حواسى سقطت فى هذه الخربة^(١) ، ألقب جسمى على الأحجار ، وأرقم بعبئى آثار أهلك ، وقصودهم المتهدمة ولعكن لا أستطيع حراكا ، حتى كدت أغالب هذا (الأقربى) وأصل لى مكرى ومنشأ عزى ، فأعالج نفسى بمشائى تربي ، وعقاقير أرضى من يد أطباء بلادى ، وصيادلة ديارى^(٢) فإن قويت على 'فاحلى' ، وإن تأذيت من صديدى فأجمع لى قوى ، جفت ، ويسى فى نجاحى ،

، أسفاً ، وبعض أأمله غيظاً . وأسرع

أيتها القبور الصامتة ، انشقى وانقرجى ، وابشى من فيك من الأموات ، فقد أئت الطامة الكبرى ، وانكسرت نجوم النجوم وبأيتها الأرواح الخامدة — حملى إلى أجسامك البالية ، فأقيمىها من موتها ، وابشيتها فى الوجود لتتظر هذا الذى تشقى بعدهم وتحاسب عليه ، فلم يكن إلا كلمح البصر حتى ملء الفضاء بأناس لا عدد لهم ، يقدمهم طيب بارح ، قد استصحب معه جملة من الأطباء ؛ وساروا إلى تلك الجيفة ، واحتاطوا بها بقلوبها عن العين وعن الشمال ، وقرعوا صدورهم وبمسون نبضها ، حتى وقفوا على ذاتها ، وعلموا أصل مصابها لحكوا على صاحبها^(٣) باتراحه عنها ، وعدم قره منها ، وفوضوا أمر هذا المصاب إلى الطبيب البارح يتولى علاجه ، ويداوى جراحه . فطلب من بقية الأطباء أن يرافقه فى هذه المعالجة ليقوى بأفكارهم على ما يصلح به هذا الجسد الشريف ..

وبعد تبادل الأفكار بينهم قرر^١ الرأى على أنهم يركبون له دواء يوقف سريران

(١) الخربة هنا كناية عن الخراب الذى حل بالبلاد بسبب إصراف إسماعيل .

(٢) أراد بالأطباء بلاده وصيادلة دياره الغلاء من أمته وهم وحدهم القادرين على إغاثة البلاد من هذا الخراب .

(٣) صاحبها . كناية عن إسماعيل ،

الفاء الآن ، حيث تحكم وتمكن وبعد ذلك يتداولون فيما يزيل المرض ويبذل الصحة ، قتلهم هم أهلهم يسألونهم الإسراع في معالجته ، والاجتهاد في دفع مصابه . فترضهم الأطباء وسألهم الهدوء والسكون ، ومساعدتهم في خدمته ، وتطهير عمله ، وتطهير أعضائه وحفظه بحيث لا يتركوا الفرباء يتولون خدمته ، ولا يمكنون الأجانب من الوصول إليه . خوفاً من إفساد العلاج ، وسميهم في إنفاقه أكثر مما صنعوه به ١ .

فكثر صياح أهلهم ، وعلت أصواتهم بالويل ، ووضعوا أيديهم على أكبادهم وتصبروا وابتدأوا يعملون بمشورة الأطباء ، ويذلون الجهد في رعايته وصيافته من كل من كان من جنس مصيئته .

قال الراوى : وبينما أنا أبكى وأنوح مع هؤلاء المساكين ، وإذا بالمؤذن ينادى على الفلاح قممت لأقضى الغرض ، وأعود لمباشرة الخدمة مع إخواني ، إذ لم أر قبل هذا اجتماع مجلس طبي على مصاب بالآفرنجى . ١ هـ

هكذا بين النديم العناية من أهل مصر خطورة هذا الفاء ، الذى مرى في البلاد وهو ذاء الإسراف ، كما بين لهم أن الشفاء منه ميسور بإسناد الأمر إلى عقلاء الأمة وحكاتها ، وإلى المخلصين من أبنائها على أن يشكاثوا في مهمتهم ، ويضعوا لأنفسهم خطة تقوم على علاج سريع مؤقت وطول آخر بطيء ولكنه يشفى تماماً من المرض .

* * *

بهذه الطريقة وأمثالها أخذ النديم يعاطب الخاصة ، أما العامة فغالبهم بأكثر من مقال في العدد الأول من الصحيفة ، ومنها مقال بعنوان « حربى فريخ » ، وآخر بعنوان « سهرة الانقطاع » ، وثالث بعنوان « تحريفة الجنون فنون » ، ورابع بعنوان « محتاج جاهل في يد محتال طامع » ، كل ذلك بينا خص الطبقة المثقفة بمشال « مجلس طبي على مصاب بالآفرنجى » ، ومقال أو قصة بعنوان « غفلة التقليد » .

وفى هذا المقال الأخير - نخر النديم من بعض المومنين من سحام (حمير الأموال) وقد بنى لنفسه بيتاً عظيماً وملاؤه بالفراش الوئيدة ، والأدوات الثمينة (١٠٢ - أسبب القالة ٢٥)

ثم مجرد التقليد أتى لنفسه بخزاة كتب ملأها بكتب الأشعار والتاريخ وبقية العلوم ، وهو بعد لا يعرف القراءة والكتابة ، فعل ذلك لا شيء . كما قال على لسان رب الدار - إلا لأنه دخل بيت الشيخ فلان ، والسيد فلان ، والحاج فلان ، والمعلم فلان ، والأمير فلان ، فرأى في مضيفة كل منهم خزاة بها كتب وعلما ستارة خضراء ، وبجانبها منشفة من الريش ، والحصادم كل يوم ينفضها ويمسح الزجاج والخزاة ، فلم أن هذا طرز جديد في بناء البيوت ، فرتب مضيفته مثلهم ليكون في صف المتدنين ألح .

ولا نستطيع أن نترك الجانب العامي من هذا العدد الأول من أعداد مجلة التسيكيت والتبكيك حتى نسوق فيه نموذجاً للقارى . يوضح له طريقة هذا الصحفي في مخاطبة القلم في صحيفته . ولتخذ تلك الحكاية التي عنوانها :

محتاج جاهل في بر مختال طامع :

احتاج أحد الزوار لاستدانة مائة جنيه ، تقصد بعض التجار ، وطلب منه المبلغ ، جرت بينهما هذه الحكاية بحضور بعض النباه .

الزارع : طاوز ميت جنيه بالفرط^(١) يا سيدى .

التاجر : فرط اليه عشرين كل سنة .

الزارع : اعمل الى عمله .

التاجر : شيل عشرين من اليه . يبقى كلم ؟

الزارع : لحو أنا كاتب شوف يفضل كلم ؟

التاجر : يبقى سجين .

الزارع : يدوب كده .

التاجر : دلوقت صار لى مية جنيه ، ضم عليهم عشرين واكتب السكياة

الزارع . اكتب وشد الختم أهو .

وفى وسط السنة قدم له الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة أرادب سمسم

(١) يريه بالريخ أو الربا .

وعشرين من الفصح ، وثلاثين من القول ، وأربعين من الشمير وجا . يحاسبه فكانت الحسابة هكذا .

الوارع : طلع لي ورقة الحساب يا سيدي .

التاجر : انت جيت قطن بعشرين جنيه . ولحق بعشرين جنيه وشمير بعشرة جنيه ، يبقى كلم ؟

الوارع : ما قلت لك من ديك المرة ما بعرفش الحساب .

التاجر : يبقى أربعين جنيه شيلهم من مية وعشرين ويكون الباقي كلم ؟

الوارع : مين يعرف شيء بعده (١)

التاجر : الباقي تسعين جنيه ، وفرطهم عليهم عشرين ، يبقى مية وخمس عشر طالب انت كان ثلاثين . يبقى مائة وستين ، ضم عليهم أربعين فرط . يبقى السكينة بماتين وعشرة ونصف .

الوارع : هو إيه - من الأصل سبع عشرات وعشرين ، وجاهم ثلاثين وثلاثين ، شلت منهم من التوتعات التي جبتهم ، يبقى لك دلوقة مائة وعشرة بس ! والنص جبتو منين ؟

التاجر : النص أجرة كتابتي لا من الأرباح .

الوارع : آي دلوقة صحت الحسبة ، والسنة دي أبيع لك خمسين فدان في عشرة جنيه ، يبقى لك إيه بعد كده ؟ يا جنينين يا ثلاثة ، خذك بهم جاموسة ، ويبقى على رأي المثل شيل ده من ده ، يستريح ده من ده .

فقال النبي للتاجر : أما تنق الله في هذا المسكين ، أخذت محسره ، وصار دائماً لك ، فلفقت له حصة لا أصل لها وجعلك مدبون ، مع أن حسبتك مئة هكذا .

٧٠ بفائدة ٢٠ ٪ فالملسوب ٨٤

وهو أورد لك هذا القدر .

١٥ قنطار قطن سعر القنطار ٢ جنيه فالمجموع ٣٠

(١) عريدي شيء كثير .

١٠ أوردب سمسر الأردب ٢٠٥ جنيه فالجموع ٢٠

٢٠ أوردب قح سمسر الأردب ١ جنيه د ٢٠

٣٠ أوردب فول سمسر الأردب ١ جنيه د ٣٠

٤٠ أوردب شعير سمسر الأردب $\frac{1}{4}$ جنيه د ٢٠

والجموع السكلى ١٢٥ جنيه.

يكون له عندك ٤١ جنيه ، فكيف جعلته مديناً بمائتين وعشرة ونصف بعد ذلك ، إن هذا هو السلب بلا خوف .

التاجر ، يا حبيبي الوارىء حمار ، وأنا إذا كن مش يعمل كده مش لازم يبعى تاجر بتكبر بعد خمسة سنة .

قال : قد تغيرت ميثتنا وقبعت حكومتنا ، فهى تسمى فى عمل نظام يحفظ الحقوق ؛ ويجمع تمدى ملك على هذا المسكين حتى لا يقع بعد ذلك جاهل محتاج فى يد محال طامع .

أى سخرية بالجهل إلى هذا الحد ؟ أرايت موعظة الشعب أبلغ من هذه الموعظة ؟ أرايت تنبيهاً لاولى الأمر أقوى من هذا التنبيه ؟ لا شك أن هذه الحكايات وأمثالها على بساطتها وسذاجتها ، وعناء الكاتب فى عملها أثرت فى نفس الشعب المصرى وحكومته أبلغ تأثير ، ودفعتهم إلى نقض الجهل عن أنفسهم بعزيمة دونها كل عزيمة .

أما فى حكاية الجنون فنون ، ففيه عرض الكاتب لقراءه فنظر قهوة بلدى يستمع فيها العوام إلى رجل محتال هو (الشاعر) المعروف فى تلك المواطن وهو يفس عليهم قصة عنتره ، ولهذه القصة بطلان على عنتره وعمارة ، والعوام ينقسمون قسمين بتشجيع كل قسم منهما لواحد من هذين البطلين ، قال الشاعر :
« وبيننا هم فى قتال ونزال ، وقد انكشف الفيار عن أمر عنتره ، وسنخلصه فى الليلة القابعة » .

فقال له أحد الحاضرين (التديم بسمهم المجانين) لابد أن تخلصه الآن ونخذ عشرة جنيهات ! فأبى المحتال وسكت عن الكلام ، فشمه الجنون ، وعلت

أصواتهما بالقبايح وآل الأمر إلى الضرب والإمالة .

سيرة الانطاع :

وفي حكاية سيرة الانطاع ، ففيها عرض النديم لقراءته كذلك صورة قوم جلسوا في دارهم ، وعلامهم الهم والتفكير بادية عليهم ، فدخل عليهم من سألهم على تلك الهموم ، وأخيراً وبعد بحث طويل عرف الذي أهمهم هو دغاة الكيف ، الذي شغلهم عن كل شيء . عداه في حياتهم الاجتماعية ، ولم يجعل لهم حظاً من النفاط ، إلا رغبة في معرفة أخبار الوطن سينة كانت أم حسنة الخ . وما لهم ولهذا كله .

« فهذا شيء . يوجب وجع الدماغ ، ويشقت الفكر ، ولا يشتغل به إلا من ليس له شغل » .

عربي تفرنج :

ثم في حكاية (عربي تفرنج) بتخيل الكاتب أنه ولد لأحد الفلاحين واسمه ولد معيط وسماه (زعيط) تركه بحيا حياة الفلاحين في العزبة ، ثم أرسله الناس إلى ضرورة لإرسال ولده إلى المدرسة فأطاعهم في ذلك ، فلما أتم علومه أرسلته الحكومة إلى أوروبا . وعاد إلى بلاده بعد أربع سنوات ، وأتى أبوه لاستقباله في رصيف الإسكندرية ، واندفع الأب محتضن ولده وقبله ، فابتدره ابنه قائلاً .
سبحان الله عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دى قبيحة جداً .

معيط : آمال يا بني نسلم على بعض إزاي ؟

زعيط : قول . بون أريني (Bon Arrivé) وحط إيدك في إيدي مرة واحدة وخلاص .

معيط : لهو يا بني أنا بأقول منيش ديني .

زعيط : موش ديني يا شيخ ، أتم يا أبناء العرب ذى البهائم !

معيط : الله يسترك يا زعيط ، والله جا خيرك ! الخ .

وهكذا احتوى العدد الأول من مجلة (التنكيت والتبكيت) ست مقالات ،

لإثبات منها الخاصة وأربع العامة ، وغاطب النديم كل طبقة بما يلائمها ، وذلك من حيث اللفظ والفكرة في وقت مما .

ثم في العدد الثاني من هذه المجلة ، رأينا النديم يطرق موضوعاً آخر ، وهو موضوع المحافظة على اللغة القومية للبلاد ، وهو موضوع ذوبال ، وقد أثار به جدلاً كثيراً ، واتخذ هذا الجدل شكل مناظرات قيل أن النديم نفسه ، كان حكا في بعضها .

جاء في هذا المقال الذي نشره إليه قول النديم تحت عنوان ،

إضاعة اللغات تسليم للزمن :

أما الناطق بالضاد ، بم تستبدل لفتك وما لها من مثل ، وإلى من تركها وأنت لما كفيل ؟ وما الذي استحسنته في غيرها واستبجحت مقابله فيها ؟ وأى شيء طلبته فيها ولم تجد له لسيا ؟

ليبك أيها الأخ العقيق - وإن لم تعمل في بطن واحدة - اللغة من الحياة ، والحد الفارق بين الإنسان والبهيم ، بها يترجم اللسان خواطر القلب ، ويحول بها بنات الأفكار ، وبها يمشق المرء - وإن كان دميم المنظر - . وهي التي بها جذبت قلب أمك ، واستطفت جانب أبيك وتملكت فكر أخيك ؛ واستطعت صاحبك وألفت جارك ، وتعارفت مع مواطنك ، وقابلت بها نزيلك ، فهي أنت إن كنت لا تدري من أنت ، وهي وطنك إن لم تعرف ما الوطن . أما كونها أنت فقد قدمت لك من عرفتهم بها ، وأنت إذ قددتهم صرت وحيداً غريباً في الوجود ، لا ترى من يقول لك من أنت ؟ وأما كونها وطنك ، فإنه إنما يعبر ويسمى وطناً رجال يتعاونون على إحيائه وإظهاره في الوجود عملاً للسكن ، وداراً للإقامة ، وقد علمت أنك بمفردك لا تهتدي لشيء ، ولا تقوى على أي أمر كان ، ومن قد المواطن قد الوطن .

أسميك تقول : إذا قددت لفتي اعتضت عنها بأخرى .

أجل - إنك اعتضت عنها ، ولكن بما أضاع منك الوطن ، والمعتقدات الدينية ، فإنك لا تخاطب بها إلا أجنبياً من البلاد . مغايراً في الجنسية ، وأنت

تعلم أن المعاني الألفاظ تصوراً لا يقوم به مقابلها في غيرها ، فإنك لو سمعت قولي :
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما لتتخفظ أعراض تكفلها المحد

وأردت أن تلقيه بلفظ أخرى لفقد قوة الحاسة ، ووقع الألفاظ . وربما
حدث عنه بما لا يؤدي معنى ... وبدأ قد قدتك إلى الحق ، وميتني بالاضلال
فإن لم أحرم عليك غير لنتك لضرورة تقتضيها ، ونائلة تدفها ، ومشكل تحله ،
وإنما أردت تذكيرك بأن لنتك كان منطوقاً بها من غير تعلم ، محظوظة في غير كتاب
ومخالعة الدخيل قد بعضها ، وخيف عليها الضياع ، فدوت في بطون الأوراق
ولقيت نوتها في اللفظ والكتابة .. إلى أن قال :

« هون عليك فالأمر سهل ، فإننا لا نحتاج لحفظ لغتنا أكثر من إحداث
درس في جميع المدارس يلقي فيه الطفل لنته العربية الشريفة ، بطريقة تهذيبية
لا يصعب الأخذ بها ، ولا تمل النفس من ملازمتها ، مع اجتماع الأمة على تكثير
المدارس بالجميعيات ، وصرف ثلث وقت الطفل في تعلم اللغة الوطنية وتهذيب
الأخلاق . وإذا تمت هذه المبادئ . رأيت لبلادك نفاة جديدة ، وخلقاً بديعاً ،
وطلت بما نراه من جمع الكلمة ، وسر وحدة التعليم ، وانتظام الهيئة الاجتماعية
أن إضاعة اللغة تسلم للذات .

على أن هذا الموضوع الذي بدأه النديم ، هو المحافظة على اللغة العربية ،
وجذاه قد تركه بعد ذلك ، ولم يعد إليه إلا حين أصدر آخر صحيفة له ، وهي
صحيفة (الأستاذ) على النحو الذي سطره بعد ، وكتب النديم في العدد الثاني
من أعداد مجلته كذلك مقالاً انتقد فيه المجتمع المصري . في « عادة التبذير
والإسراف » ، وجعل عنوانها يدل عليها . وبلغت النظر إليها . وهو قوله :

هف طلع الشهاب :

كما كتب مقالاً آخر بعنوان « كم في الروايا من خبايا » ، يتهم فيه بلغة رجال
الإدارة وجهلهم وسوء تصرفهم فن ذلك أن أحد المأمورين ارتكب خطأ في
عمله ، فأرسل له رئيسه كتاباً يوجه فيه ، ويسأله الإجابة . فطلب المأمور رئيس
كتابته ، فكتب له جواباً سخيفاً في لغته ، وسخيفاً في فكره ، فلم يسترح

المأمور إلى ذلك ، وأخيراً دله بعض جلسائه إلى شاب عنده في الديوان ، لا يتجاوز راتبه ثلاثة جنيحات ، ولكن يحترف الكتابة ، فكتب الإجابة بلغة صحيحة ومفهومة ، فلما قرأها على المأمور كاد يطير فرحاً بنجاة الشاب .

وقال ، كيف يكون هذا بثلاثة قرش ورئيسه بألف قرش ؟

فقال له الوكيل : هذا من أولاد الفقراء ، وليس له محسوبة على أحد الأمراء ، ولا يعرف التفاق ، ولا يفعل أعمال المختالين التي تقدمه إلى ذوي العنايات .

ثم طلق التنديم على هذا بقوله :

(التبكيت) أعظم مصيبة من رئيس كتاب لا يعرف الإنشاء ، وجود مأمور لا يحسن كتابة جواب من شأنه أن يكون من أسرار الخفية !

ثم في نفس هذا البلد من أعداد مجلة التبكيت والتبكيت أجاب التنديم عن سؤال تغيل أنه ورد عليه ، وهو بأى سبب ماتت صنائع الشرق ، وانتشر أهلها ؟ وبأية وسيلة تمحيا وتعود ثروة أهلها ؟

فأجاب عن ذلك بأن الصنائع قد ماتت بتحارب أهلها وبتباغضهم الذين أوردواهم الفقر وقد الأمن والثقة بهم ، واحتج رأيه هذا بمقال طويل وأدلة قوية . أما العامة فكان نصيبهم في هذا العدد أحاديث ، منها حديث له بعنوان :

« تحريفه خرم من عهد الله وانكسر على الله »

قال فيه :

سافر لأحد الأضيياء ولد ، فلما طالت مدة غيبته توجه إلى بعض الرمالين ، وقال له : خط لي الرمل ، وشوف نجسى ازبه .

خط الرمل وقال له : ما شاء الله ، أنت طالعك سعود ، وأيامك سعود ، شوف النجم يغير بأنك بتاكل وتشرب ، وتقوم وتقم ، وتفرح وتزعل ، وتركب وتمشي ، وتنام وتيقظ ، وتكسب وتخسر . وفوقك سما ، وتحتك أرض ، وفي فكرك كلام ، وطالب حاجة ، وبذلك تبقى غنى .

فغمر النبي رقيقه ، وقال له : شفت . أنا ما قتلكتش يعرف كل شيء ، مين قال له على اللى عمله دالكه ، النجم بين كل ساعة .

ثم التفت إلى الرمال وقال له :

شوف أبو الزلقى ابنى ماله غلب كده .

فقال الرمال : دلوقت حصل سحب كثير ، والنجم ما يصحش في السحاب

فقال النبي : أظن نجم الواد ساقط !

فقال الرمال : الظاهر كده .

ففتش النبي نفسه بممامته وفادى .

آه يا ابنى — يا أعز الرجال يا أبو الزلقى ،

فسمعت أمه غرجت صارخة مولوة قاتلة إيه جبرى لابنى ؟

فقال لها أبوه : النجم خبر عنه أنه مات !

فصاحت وصوت واجتمع إليها النساء من كل فج ، وأحضرن الفف وابتدأن بالتدب والمويل ، حتى قامت الناس على ساق ، وجلس أبوه يقبل المزاء ، ودموعه تسيل على خلوده .

ويبيناهم في شياط وشياط ، وإذا بالولد داخل عليهم حاملاً زكية الزوادة ، فابتدوه والداه واحتضناه ، وقالت أمه لآبيه :

شفت الرمال بتاعك الكذاب ده !

فقال لها : دواقه يا وليه الراجل ما لودعوه ، الراجل قال لى السحاب كثير ما سمعش منه . والابردة كلامه حق .

ولمعه الحكاية بقية أتى بها التديم على وفق خياله ، ثم خلق على ذلك بقوله :

(التبيسكيت) — انظر إلى الغفلة واستحكامها في العقول السقيمة ، وكيف رأى هذا النبي أن الرمال كذب فيما يفتره ، وحضر ولده من سفره ، ولم يرض (١) أن يكذبه ، وحمل عدم صدقه على وجود السحاب .

(١) يرى أنه كان على الكاتب هو أن يأتي بفعل (يرضى) ظاهراً لاشيئاً مستتراً وإن كان سياق الحديث يفهم منه أنه الضمير فى (يرضى) هو دمل الأب .

وتأمل قوله أنه يعرف كل شيء . بعد كونه يخبر عن أشياء . من ضروريات
الهيمة ، فضلا عن الإنسان .

وفي جريدة التبكيك والتسكيك ، وجه النديم عنايته كذلك إلى قصير كبير
يرتكبه المصريون ، وهو صنعتهم في الخطابة وبخاصة الدينية .

ودعا ذلك إلى بحث كبير في الخطابة وأصولها وقيمتها ، وتاريخها وأنواعها ،
واقتهى من ذلك إلى قوله .

وأود وجود نفر من أعيان بلادنا يتبرعون بمبلغ يقوم بشر خطاب أدبية
وسياسية . وأنا أقوم بإنشاء خطبة في كل أسبوع ، تناسب أحوال الزمان . ثم
تطبع هذه الخطبة وتنتشر في سائر أنحاء القطر ، لتنبه الأفكار وتعرف الأمة
قدرها ، وما تحفظ به نظامها بين الأمم . ولا يتم هذا الأمر إلا إذا اجتمع
هؤلاء الأعيان ، وعرضوا ذلك لدبوان الأوقاف ، ليتمكنوا من العمل بالخطبة
وما أظن أن أحدا يأبى هذا السعى الجليل ، مع تمتعنا برعاية ملك تقى يسره وقاية
الدين من سقطات الجهلاء ، وحفظ الملكية بأفكار رجالة وأفراد رعيته (١) .

ونرى النديم بالفعل قد أخذ يكتب نماذج للخطبة المنبرية المصرية في جريدته
هذه ، لكي يحتديها الناس ، وينسجوا على منوالها .

ونريد أن نلخص ما عرض لنا من ملاحظات على هذه الجريدة حتى الآن
فنقول .

أولا : إن وجه تسمية الجريدة (بالتسكيك والتبكيك) هو أن النديم كان
يقسم مقاله الخاص في الصحيفة قسمين : قسم يسخر فيه من عادة من عادات المصريين
أو خلق من أخلاقهم ، ويأتي بقصة يشرح فيها كيف ينقاد المصريون لهذه العادة
وكيف يأثمهم الضرر من قبلها ، وقسم يوبخ فيه المصريون على اتخاذ هذه العادة ،
أو التمسك بهذا الخلق ، ويأتي قوبيخه على هيئة تقييد من الجريدة على هذه
الحكاية التي أوردها ، والقسم الأول من هذين القسمين هو (التسكيك) بالنون
والقسم الثاني هو (التبكيك) بالباء . ومن ثم كان محقق في هذه التسمية .

ثانياً . إن المقالات التي كان يكتبها التديم باللغة العربية الفصحى ، كانت على هيئة أحاديث متنازة ، أو قل في صورة خطبة . والتديم خطيب بطلمه وخطبته كما رأينا . وهو لهذا يجد سهولة كبيرة في التحدث إلى الناس على هذا الوجه ، بل يجد لذة عظيمة في ذلك . ومن هنا كانت عناية التديم بالبحوث الخطابية في صحيفة مقابلة لعناية إسحق بالبحوث الكتابية في صحيفته ، أو من ناحية أخرى كان التديم يؤمن بالإصلاح عن طريق الخطبة ، في حين أن الأستاذ الإمام كان يؤمن بالإصلاح عن طريق النفسية .

ومن ثم كان الإمام عالماً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وكان التديم خطيباً شعبياً ، والخطبة الشعبية لا غنى لها عن التهريج كوسيلة لإقناع الجمهور .

ثالثاً ، إن الموضوعات التي طرقتها التديم في صحيفة التنكيك والتبكيك ، كان أكثرها يتصل بالمجتمع ، وأقلها يتصل بالسياسة ، وقد كان التديم من أوائل من أدركوا في مصر أن لغة الصحافة اللبقة ينبغي أن تكون غير لغة الأدب البحت ولذلك ترك السجع ، وعُدل عن الزخرف ، وآثر طليهما طريقة الرمز ونسج الألفاظ الصغرى ، التي يقرؤها العامة والخاصة ، وترك في نفوسهم تأثيراً واحداً على السواء .

أما الكلام عن بقية الخصائص التي لأسلوب عبد الله التديم ، فله موضع آخر عندما نلخص القول في هذه الخصائص ، وذلك بعد الفراغ من البحث عن بقية الصحف التي كتبت فيها هذا الرجل .

* * *

نشبت الثورة العراقية ، واتصل بها التديم راضياً أو كارهها . أو طلب إليه أن يخدم الثورة بصحيفته ، وسعى رجال الثورة أنفسهم حتى تقلوا التديم وصحيفته إلى ميدان القتال . وأطلق هو على صحيفته الجديدة اسم الطائفة .

الفصل التاسع

الطائف

وفي هذه الجريدة كتب النديم مقالات سياسية ذات طابع ثورى واضح ،
ومنها مقالات في تاريخ إسماعيل وفي التقمة عليه ، أهمها مقاله الذى جعل عنوانه :

سلب الأموك مع الملوك :

كتبه في ٦ مايو سنة ١٨٨٢ وملا بها فراغ صفحتين من صفحات الجريدة
الأربع ، ومرض في أثناء ذلك فأتم المقال ، وأرسل يستدر ، عن تحرير الجريدة
إلا ما كان من تاريخ حجرة إسماعيل باشا ، لاقى أكلف بكتابتها ، لأن نشره
من ضمن علاج ما في ١١

ونفس النديم في نقد إسماعيل والتقمة عليه في أمور كثيرة : منها أنه أرمق
المصريين بالخرائب الكثيرة ، وأنه سلب أموالهم ، ونهب عقارهم ؛ وحرصهم
أرضهم ، وظلمهم واستبد بهم ، ولم ينج منه حتى أصدقائه وأقربائه من أعضاء
الأسرة الحاكمة . وذهب النديم في تجميع إسماعيل مذهباً بنيداً ، إلى حد أنه
راح يبنى عنه كل سعى له في ترقية مصر ، واتقاعها بالمضارة الأوربية الحديثة ،
واقتراده في ذلك بمحمد علي . لهذا أتى بالأوربيين الثابنين ، وهذا (يريد
إسماعيل) استحضر من الأوربيين من اقتح التيارات والمراقص ، ومن بقى له
السرايات أتى أنفق عليها أحوالاً من الذهب ، ومن قسح له البنوك لمساعدته على
شهواته البدنية ، ولذاته الخصوصية^(١) .

ثم انتقل النديم من نقد إسماعيل إلى نقد توفيق ، إلى أن اضطرت الحكومة
إلى تعطيل جريدته ، وذلك في ١٧ مايو سنة ١٨٨٢ ، ثم عادت للظهور بعد ذلك
الحادث الخطير ، وهو ضرب الإنجليز مدينة الإسكندرية بالمدافع ، واحتلالها .

وهكذا بعد أن كان التديم في صحيفة (التسكيك والتبكيك) يكتب بلغة قوم على الكتابة والرمز ، وتتم عن الحياء والحذر ، أصبح في جريدة الطائف يكتب بلغة سافرة ، لا يخفى فيها سلطانا ، ولا يابه بملك أو أمير ، وهو في هذا الدور الأخير إنما يساير الثائرين في حركاتهم ، ويترجم عن أفكارهم وآرائهم ، ويصدر عن هذا الرجل الذي غلا في صدورهم ، حتى أوفى في كل ذلك على الغاية .

ثم إن التديم فضلا عن تلك المقالات العنيفة التي كتبها في نقد إسماعيل وتسمير توفيق بأهتاهم بالدول الأجنبية ، طفق يكتب مقالات أشد ثورة ، وشرح فيها حالة الفلاحين ، وما اتبوا إليه من يؤس وعوز ، ودعا الحكومة إلى العناية بهم من جميع النواحي الممكنة .

أما الإصلاح النيابي في مصر فقد استأثر بجانب عظيم من جهود التديم في صحيفة الطائف ، وكان يرى أن الإصلاح السياسي في مصر لا يقوم إلا على الإصلاح النيابي (١) .

وحين وقعت الواقعة ، وأذنت البلاد بثورة جليلة ، وأعلن مرابي ورفاقه عصيانهم للخدو انتقل التديم بجريده هذه إلى الميدان كاقفنا ، وأخذ يكتب المقالات التي هيجت الخواطر ، وأثارت الفتن . وكان التديم يقب (مرابي) في أثناء ذلك (بحامي حى الديار المصرية) .

وحين قامت الحرب قملابن مرابي والإنجليز أرادوا التديم أن يروج للحرب ، ويشيد بالهمم التي يبذلها رجال الجيش ، طفق هذا الكاتب الخطيب يول في وصف الماركات التي دارت بين مرابي والإنجليز ، ويشيد بذكر المتاد الحربى الذى يملكه الجيش المصرى ، ويريد في وصف الهزائم التي أوقعها المصريون بالإنجليز ،

(١) وقد أرسل التديم خطابا إلى مجلس النواب بتاريخ ٤ مارس سنة ١٨٨٢ يطلب فيه امتيازاً بغير محاضر المجلس في هذه الجريدة . ووافق المجلس على أنه بتاريخ ٥ مارس سنة ١٨٨٢ ، ولكن يبدو أن جريدة الطائف لم تحظ بغيرها هذه المحاضر لأن المجلس انعقد في ٢٦ مارس فلم يحضر التديم في هذه المرة البسطة التي لم يعبأوز تسعة عشر يوما أن يفسر شيئا من هذه المحاضر التي سمى حق قال للواقعة عليها .

ويركب متن الشطوط في وصف شجاعة العربان الذين ألحقوا أنفسهم بالعرايين ،
ولم يلتزم التديم جانب الصدق في شيء من ذلك .

وما التديم والصدق في هذه الحالة ؟

أليس يريد تقوية الروح المعنوية في الجيش ؟

أليس يد أن مذود عن الشعب كل شعور بالقلق أو الحزن ؟

ومن هنا كانت المجردة الثانية من جرائد الثورة — ونعني بها جريدة
(المفيد) محررها حسن الشمسي — أدنى من الطائف إلى العمل الصحفي ، فبينما
كان التديم يمحرق على هذا النحو ، إذا بحسن الشمسي يسلك طريقاً آخر . هو
إثارة المداواة والبغضاء في قلوب المصريين ضد الإنجليز ، ويحسم الخطر الذي
يهدد المصريين من دخول الإنجليز ، حتى لقد أبكت (المفيد) في هذه الناحية
بلا لا بأس به ، وجاء أسلوب محررها حسن الشمسي أقوى نوطاً من أسلوب
التديم ، الذي راح يكتب نشراته الحزبية كتابة قليلة الحظ من الآناة ، بل من
المجردة الفنية .

فم أن التديم كان يصدر مع الطائف ملحقاً به ، وكان يبيح لنفسه في هذا
الملحق من حرية النقد ، والمبالغة في التجريح واللم ، فوق ما يلبني لصحفي شرقي
أو غربي في الظروف المعتادة .

ولكنها الثورة انتهوا أمثال عبد الله التديم ، ويتجاوزون فيها الحدود ،
ويخرجون فيها على القوانين .

ومن ذلك أن التديم تعرض للصحفيين السوريين ، وكتب في ملحق من ملاحق
الكتاب مقالا بعنوان (سليم وبشاره قلا وتوفيق باشا) ملاء سباباً وإغاثاً ،
وأمنن إذ ذاك في تجريح أولئك السوريين تهمياً تناول ذواتهم ومباعرهم وأخلاقهم
وطعن في ذمهم وأنسابهم وأعراضهم . وكان ذلك من الأمور التي أسكنت صحف
أولئك السوريين ، واحطرتهم إلى الرحيل عن الديار المصرية ، حتى تنجو البلاد
من خطر الثورة العراقية .

وأرى بعد هذا التجهيد أن أكتفي هنا بأن أنقل للقارىء مقالا أو نشرة من النشرات الحربية مكتوبة بأسلوب التديم . وهو في ميدان القتال بالقرب من الإسكندرية ، ثم أتبع ذلك بمقال لحسن الشامي كتبه في هذه الظروف - خارج الميدان - في قلب القاهرة . وغرضنا من ذلك أن يوازن القارىء بين الرجلين، وبين المنهجين، وبين الأسلوبين موازنة سريعة موجزة بقدر المستطاع . كتب التديم في العدد الرابع والستين من جريدته الطائف ، في ٨ شوال سنة ٩٩ بعنوان .

المعمعة الثانية

إن جندنا لم الغالبون

أى بنى مصر ، خذوا حديثاً يرويه البیان عن المشاهدة ، ويخبر به الصديق عن الحقيقة . جعل الإنجليز مقام المصريين ، فاعتدوا وأجلبوا عليهم بالخييل والرجل ، يريدون ليطغشوا نوراقه بأفواههم ، وانه متى نوره ولو كره توفيق باشا ومن معه . وقال الإنجليز العذاب ألوانا من يد المصريين في ٥ رمضان سنة ٩٩ فأبى جهنم إلا أن يساق إليها جانب عظيم منهم يزداد به وقودها ، فجمعوا وأقاموا خمسة عشر يوما يجهزون ويرتبون ، حتى إذا جاء أجلهم ساقنهم المنية في يوم السبت ذمراً تحت رياسة الدوق (دوكنوت) رابع أنجال ملكة الإنجليز؛ وقيادة السير (أرشبالد أليزون) أشهر قواد الإنجليز ، تخرجوا في الساعة التاسعة بقوة مركبة من عشرة آلاف عسكري ، ما بين بيادة وسوارى وطوبجية . وكان خروجهم على هذا الترتيب .

وبينا كانت الطابية تضرب التطورات فربط عساكرهم البيادة والنواري والطبجية من عساكرنا ، فأمرتهم بنادقنا رصاصاً غير بارد ، وسقنهم شراً غير راو ، وكانت مدافعهم من جهة محلة السيوف ومن طابية الرمل تضرب ، ومدافع مقدمتنا الامامية وطابية الحفراء الاول تجمع من شرد منهم وترد الهارب ، فإن طوبجيتنا من المشهود لم أنهم من الطبقة الأولى . وقد أظهروا في هذا اليوم ما خلد لهم في تاريخ العسكرية ذكر أجيلا ، كيف لا ورئيسهم البطل المهلم سعادة يندى بك

كان يطوف حول المدافع ، كأنهم بين يدي أمير مطاع ، يأمر فلا يرى إلا نشاطاً وحركات سريعة .

وعندما تسكاثرت نيراننا عليهم تهتروا ، فانقض عليهم أربعائة من سوارينا وخمسمائة خيال من فرسان العرب ؛ وألف وخمسمائة من العرب الراحلة ، انقضاض الشهب المهرقة ؛ وساقوم سوق الأضغان ؛ ومدافعهم تضرب من كل ناحية . وهؤلاء الأسود لا تغيثهم نيران العدو ، ولا ترقعهم كثرتهم ، حتى التجشوا إلى تخيل السيوف والمندرة ، فاتبعهم فرساننا الظاهرون ، وأطلقوا أذنة الخيل خلفهم . وقد سارت العرب الراحلة تبارى جياد الخيل عدواً وجرياً ، حتى تمكنوا من الأتوف المنهزمة ، وأذاقهم المتون حرقاً بنار الرصاص ، وضرباً بالسيف ، وكسراً بسنابك الخيل ، وكلما التجشوا إلى رهوة أو توارطوا في منخفض ، تبعهم وشردوم ، حتى وصلوا بهم محلة السيوف . ورأى العدو أنهم لا يرجعون مع استمرار المدافع من طاية الرمل ، فقصدوا جهة طابيتهم ، وأسود مصر خلفهم تزار ، وفرسان العرب تصيح بصوت له منجاة عظيمة ، حتى منعوم من الالتجاء إلى الطاية ، فزلوا على جسر السكة الحديد ، فاصدين سراى الرمل ، فقبضهم صناديدنا تضرب وتذبح ، وحالوا بينهم وبين السراى ، وفروا جهة الإسكندرية والسيوف تنوشهم ، والرصاص يصيدهم ، حتى صاروا أمام الحديداء . ورأى رجالنا أنهم إن تبعوم إلى الإسكندرية أصابتهم نيران مدافع باب شرقى ، فعادوا وجئت القتل تحت سنابك الخيل ؛ كأنها ربوات . ومن العجب أن أنفاد العملية أخذوا قزوسهم ونبايتهم وهجموا مع المسكر ، وتوغلوا في السير معهم ، وقد تجمعت خلفهم نساء العرب تزغرد وتغنى بألفاظ حماسية وصوت رخيم . ولكن في ساحة القتال سعادة الجلال القيور طلبه باشا عصمت ، فتدان كفر الدوار وسعادة محمد رضا باشا . وحضرة مصطفى بك عبدالرحيم حكمدار المقدمة ، وحضرة أحمد بك عبد القفار أمير الإي السوارى ، وحضرة حيد بك وحضرة سليمان بك سامى ، وحضرة أحمد بك عفت ، ومن البكباشية حضرة محمد أفندى قوده ، وحضرة رزق أفندى حجازى ، وحضرة إبراهيم أفندى هية ، وحضرة علي أفندى رموى ، وحضرة علي أفندى رضا .

فهؤلاء الأمراء العظام أظهروا في هذا اليوم ما أعاد لمصر مجداً يشرف به الحاضر ، ويفخر به الآتي من المصريين . وكنا نود لو حضر الإفرنج ، ودأروا عما كونا وعرباننا وهم كالبيوت خلف غزلان تستنى الحرب من نسيبهم إليها ، حتى كانوا يطمعون ألسنتهم بأيديهم ، جزاء لما اقروه على المصريين ، وما كانوا يقولونه من خرقهم من البرانيط التي لم تجد تحتها رؤوساً . ولكنهم وإن فاتهم النظر ، فلا يفوتهم الخبر ..

* * *

وقد در الفارس الضرمام شيخ العرب اللوم السدي ، والبطل الغضنفر عمر محبوب كيشام . فقد أظهروا من الحاسة والإقدام في الهجوم ، ما شهدت لهم به القتل ، واعترف المهزومون به .

* * *

وبهذه الطريقة السافعة كتب التديم كذلك وهو في الميدان - مقالاً في جريدة الطائف ، يصف ما ساء يومئذ باسم :

المعمعة الثالثة

وما نريهم من آية إلا وهي أكبر من أنحها

« قالولهم يمدبهم الله بأيديكم ، ويغزهم وينصرمكم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » ، ذلكم المادون المفترون بفات^(١) الإنجيل الذين استنصروا في الوجود بأوهام وخيالات ، واستضعفونا لجأوا بالخيال والرجل ، وقد زلزلت أرضهم ، فأخرجت أفعالها ، وثبتت بأقدامنا أرضنا ، فكنا أوتادها . غرتمهم مراكمهم ، الحربية ، فتخيلوا أنهم يسروننا في البر ، ومددوا أن الأسماك يقتلها التراب ، وتلتها الشمس . وهي إذ لا تقرب الشاطئ . خوفاً من الصياد ، وبين أسود تنبع فريستها أنى سارت . يعلم ذلك من شاهد واقعة يوم الأحد ٩ شوال سنة ٩٩ ، فقد أخذ العدو يرمي عساكره من الساعة السادسة نهاراً . وفي الساعة التاسعة

(١) بنات الطير منارها ،

ظهر بقوته المركبة من ستة قولات قادمة من جهة الرمل شرق المحمودية ، وقوانين من جهة حجر النوانية غربي المحمودية ، وقطرين من طريق القبارى ، وكل من سعادة طلبة باشا قنندان فرقة كفر الدوار قد رقب مقدمتنا من أربع أربط شرق المحمودية تحت حكدارية هيد بك ، وحفرة أحمد بك عفت ، أبلغ .

وعندما صار العدو تحت نيران مدافعنا اشتغلت الطوبجية من الطريقية ، واشتغلت نيران المدافع ، وعلت القنابل في الجو ، تعارض الصواعق في اقتضاضها وتضارح الشهب في إحراقها ، وقد أبدى حضرة محمد ائندى حشمت البكباشى ، وأحمد ائندى فحتلى البيوزباشى ، وبقية ضباط وعساكر الطوبجية تحت حكدارية الهمام حضرة بدوى بك ، من المهارة ودقة الضرب ، ما ضطى وجه أرض الميدان بجثث القتلى من العدو .

وقد شاهدنا عدة قتابل فرقت في وسط قولات العدو ، فركت مشات من رجاله صرعى لا روح فيهم ثم وجهت مدافعنا إلى القولات الشرقية ، فأعدمنا وأحرقنا ، وشقت وبددت ، ووجه بعض المدافع إلى قطورات السكة الحديد ، فكسرت وقتلت ، واستمر الضرب بالمدافع ساعتين ونصفاً ، وعساكر القيادة والسوارى والعربان يتقدم تحت حماية نيراننا ، حتى صارت على قرب ستمائة متر من العدو ، وأطلقت عليه نوبة بلك إتش ، وأنبعتها بنوبة إتش ، فتقهقر العدو منهزماً ، وكان يود أن يجعل قهقرته بانتظام ، ولكن هجمت عليه سوارينا وفرسان الربان فشرده من النخيل ، وتبعته تضرب بالنار وتذبح بالسيف ، إلى منتصف الساعة الأولى من الليل ، ومن عهد انقشاب الحرب لم يخرج العدو بقوة كهذه ، فلما كانت مكونة من ١٢ ألفاً بما فيهم آلاى الحرس الملكى وكان الدوق (دكينوت) رابع أنجال الملكة مع توفيق باشا جهة الرمل ، ينظرون بالظارات ، فلما رأوا عساكرهم تقهقرت وتلفت ، طادوا إلى الإسكندرية بالحقيبة والندامة .

وفي هذا اليوم حضر أحد عساكر موسيقى وابور المحروسة ، وأخبرنا أن قتل العدو يوم السبت ألفاً ومائتان ، وأما قتل يوم الأحد فإنها مضاعفة ، وستأتينا بأعدادها ، فنكتب إليكم بها . نحن المصريين أن يقتنخوا ياخوانهم

المجاهدين الذين أسسوا لهم دعائم يجد يلقى عليها تاريخ العز والشرف . نصرم الله (كتب في ميدان القتال بالملاحه) .

هكذا وجدنا التديم يعنى في تلك المقالات المأجلة بوصف المعمعة ، وليس في أسلوبه في هذا الوصف عناية ما بأكثر من العناية بالألفاظ الغنضة المجزلة ذات الوقع في الأذان ، والحرص على إيراد المصطلحات الحربية الغنية بألفاظها التركية ، ثم العناية بالاقتراس من القرآن وخاصة في مطالع هذه المقالات ، وقد رأيتاه يجعل من الآيات القرآنية عناوانات لهذه المقالات . وهو بعد هذا كله ليس معنياً بالترادف الموسيقى العبارة ، ولا للتوازن بين الميل من حيث الموسيقى ، ولا بالاستعارات إلا فيما ندر ؛ كما في استعارته التي شبه بها مرابط الإنجليز بالسماك يحيا في البحر ويموت في البر ، هذا من حيث الأسلوب الكتابي ، وأما من حيث العناية بالحرب فقد رأيتاه كما دمه يتحرق بذكر أوصاف يضيفها إلى الجيش المصرى ويوم بها جمهور المصريين بأن جندهم هم الثالوثون ونحن نعلم أن الحقيقة كانت غير ذلك غير أننا نذكره بالثناء قصدنا إلى ذكر أبطال المصريين من اشتركوا في الدفاع عن بلادهم ضد الإنجليز ، وقد رأيتاه أنه كان يعنى بذكر كبير الصباط وصغارهم على السواء . ولا ريب أنه كان لمثل هذه الطريقة في الكتابة ، ونقصه الكاتب في ذكر أسماء الأبطال ، وقع عظيم في نفوس هؤلاء الجند ، ورة فرح في المسكر المصرى الذى كان بحاجة شديدة إلى مثل هذا التشجيع .

وكان التديم يضمن جريدته الطائفت عناوانات مغرية دائماً ، كما في قوله (الربيع الدائم) ثم يأتي بعد ذلك بالآية تبدأ بقوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، إلخ) . وهكذا كان التديم يستمد من القرآن الكريم قوة يضيفها إلى كلامه ليجعل بها هذا الكلام .

وبينا كان التديم يكتب هذه الكلمات وهو في وسط الميدان إذا بصحافي آخر هو حسن الشمسى يكتب خارج الميدان في صحيفة المفيد مقالات لا شك أنها كانت لسان حال الثورة العربية ، ولأنها عبرت عن كثير من معاني هذه الثورة ، كما

عبرت عن البغض الشديد الذي كان يحسه الثوار ضد الإنجليز .
وهناك نموذجاً مما كتبه جريدة المفيد في عددها الصادر في ٣٠ يولية
سنة ١٨٨٢ بعنوان :

ما لنا مع الإنجليز :

إلى متى نوقفنا الحوادث ونحن نفرد ؟ وحتم تدمرنا المصائب ونحن نفرد ؟
وكيف ينادينا الوحي لنحميه فيجد آذاننا صماء ؟ أم كيف يثير إلينا الوطن
لنحفظه من هوائل الطمع ، فيرى أصفنا عمياء ؟ فما للدافع لاتدق ، وما للنفس
لا تزعم ، ومن للأعراض تحمينا إذا دخلنا تحت صخور الحين (١) ؟ ومن
للوطن يمنة بخوزة ؟ إذا تأخرنا عن نصرته ؟ ما رأينا عرضاً حفظ وصاحبه في
سكرات شغلته ؟

وما نموت دار ولا عز أهلها . من الناس إلا بالقنا والقنايل
أهل يسرنا أن نتنظم في سلك الهند التي فتح الله عليها أبواب العذاب في
الدنيا ! إذ أمسك زمام ملكها قوم لا يرقبون للإنسان إلا " ولا ذمة ، ولا براعون
للمتدين حقاً ولا حرمة ، يحسبون توحشهم تمدناً ، وظلمهم عدلاً ، وجورهم إنصافاً !
ألا وهم الإنجليز .

قد علمت ما هي الأمة الهندية من بعد الصيت في التجارة والصناعة . وطرق
أذانكم ما جرى في وطنهم من الثورة . ولكنهم قوم تبيكى عليهم العيون دماً ،
وتتفطر لسوء حظهم الأكباد . فإن الأمة الإنجليزية قد مسكت الطريق على ثروتهم ،
فأثرت بها نفسها ! فترى في الهند الجم الغفير من التجار الذين تعرب الأمثال بهظم
تجارهم ، ولهم الشهرة العالية في رواج بضائعهم ، ومع ذلك فإنهم في بلادهم أقر
من الواحد البطال ، لأن حكومة الإنجليز في الهند تمر في آخر كل يوم ، فتأخذ
من صاحب الحان أو النكلن ما عنده من النقود في البنك ، فإن أراد أن يشتري
بضاعة يارم بحكم القانون الإنجليزي الهندي أن الحكومة تتحقق جيداً من

الصناعة التي يريد مشتراها ، ثم تكتب للتاجر تحويلا على البنك بالنقد . فإن كان البائع هنديا بقي المبلغ الذي به التحويل في البنك باسمه كما يقال وإن كان إنجليزيا قبض الثمن نقداً وهكذا . فأنت ترى أن ثروة أهل الهند بيد الإنجليز ، وليس للأهالي منها حظ ، لأنها محتكرة أموالهم ، وواضحة لها في سجن البنك تحت استعجالها كيف شامت . فأهل الهند بمنزلة المعتوه ، والحكومة الإنجليزية بمنزلة القيم ١١ وأما غير التجار وأرباب الصنائع فإن الإنجليز لا يستعملونهم إلا في ذوق الصناعة ، ولا يوظفونهم إلا في سافل الرتب ، ولكون الحكومة الإنجليزية لا تقدر أن تسوى الهنود بالعدل لعدم قدرتها عليه ، قد ضيق عليهم أشد الضيق حتى إنما جعلت في كل حارة قره قولا وعلقت في كل قره قول سكيناً في سلسلة فمن برد أن يذبح فرخه أو يقطع لحماً أو يقرم بصلاً أو نحو ذلك بات إلى القره قول ، ليذبح أو يقطع أو يقرم هناك ، ولا يمكن أن أحداً منهم يكون له سكين مهما كانت ، ولا يفرج أحدهم من الهند أو يدخل منها إلا بالكبر المضايقات .

هذا حال الهنود من الإنجليز الذي انتهت أكبادهم بنار الشره قصد الاستيلاء على مصر — لا بلنهم الله ذلك .

فإن جينا وتفرقت كلتنا في المدافعة عن وطننا وعرضنا ، قالت من هذه الأمة الباغية مناها — أحرقتنا الله بحسرة الخيبة في مقاصدها .

فيا أيها الإنجليز — ما تريدون منا ؟ زعمتم إن مرادكم إصلاح حالتنا ، وأنتم أسوأ الناس حالاً . هذه الأمة الأورندية تنديها الإنسانية ، وتبكيها الرحمة ، وتبذل عليها العدل ، ويتحسر عليها الإنصاف ، قد روت الأرض بهرق جبينها ، وقلعتها بقوة يديها ففتحت أبواب النصب عليها ولم تكتسب لاسو معاملتكم ، وعظيم تكبركم ؛ وبأس تجبركم ، وقد قاضت نفوسهم من عسفكم ، ققاموا للطلب الحرية التي بذلت جهنم في رياء السيد فيها للأرقاء ، فركتم خروقكم مفتوحة وأنتم إلينا مدعين السلم ، ومنادين الأمن وأتم أحراب من الحرب ، وأخين (١) من الخيانة . وقد هدتمونا وزعمتم أننا نهديكم .

(١) الصواب أخون ، لأن الفعل كان يخون .

لا تطعموا أن تهينونا وفكرمكم وأن تكف الأذى عنكم وتؤذونا
الله يمسلم أنا لا نجحكم ولا نلومكم ألا تحسبونا

أطبقوا قم الشرة عن مصرنا . فلإنها باب الحرمين الذين يبيع كل مسلم
روحه في المداخلة عنهما ، سيما وأن مصر تابعة لدولة لها ذكر حال بين الدول
العظيمة . فلا يمكن أن تدعكم وشأنكم هذا . وأيضا كل مسلم لا يترك لكم الميدان
فسيحاً تهملون فيه كيف شئتم ، وهذه الأمة المصرية قد ختموها ، وأطلقتم كل
غياتكم على طوايها ، ومدد نيتكم على غرة منهم حيث سودتم وجه القدن بالفسخ ،
قتلتم إنا قوم سالون . وكان في ظنكم أنكم تسوقون المصريين بدافعكم وتهدمون
الإسكندرية وطوايها في مسافة أقل من الساعة . فما هي كللكم قد استمر
إطلاقها فوق العشر ساعات . ومع ذلك فقد نزل على رؤوس مراكمكم القضاء ،
وما استطعتم ولن تستطيعوا أن تبرزوا أمام المصريين في البر . فإ أتم إلا مثل
السك إن قدرتم على حياة الإنسان في الماء تهشون له ، فلا تطول حياتكم
في عداوة البر .

ومع ذلك فإن لكم منا أحوانا اتخفوكم أولياء ، وإنا ولينا الله ، فنعم المولى
ونعم النصير . وحاشا لله أن يكون أحوانكم منا ، ولإنما هم أناس ضل سعيهم في
الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، قالهم الله أنى يؤفكون .

هذا نموذج من كلام صف الثورة العراقية خارج ميدان الحرب . فافظر
إلى قوة هذا النموذج في أوله كيف صاغه الكاتب صياغة حسنة من حيث الموسيقى
ومن حيث المعنى في وقت معاً ، فقد بدأ بقوله :

إلى متى نوقفنا الحوادث ونحن رقوق ؟ وحمام تدهمنا المصائب ونحن قهود ؟
وكيف ينادينا الرض لنحميه ؟ فيجد آذانا صماء ؟ أم كيف يشير إلينا الوطن
لنحفظه من ضوائل الطمع ، فيرى صيلنا عمياء ؟ .. الخ .

وهكذا مضى المحرر في مثل هذه العبارات المثيرة بحرك فيها مكان الحياة
من قلوب المصريين ، ويحس فيها الهمم لقتال الإنجليز . ثم لم يقف صليمة

عند هذا الحد حتى أخذ يزرع في قلوب المصريين هذه الكراهية المرة والبغض الشديد للإنجليز ، ويفضح نواياهم الاستعمارية ، ويكشف عن أطماعهم السياسية ، ثم انظر كيف سلك المحرر سبيله إلى تخويف المصريين من حكم الإنجليز ، وكيف ضرب لهم مثلاً واضحاً بالهند ، وكيف صور هذه البلاد بصورة المعتوه لا يملك تصرفاً في ماله ولا في نفسه ، وإنما يتصرف فيهما غيره وهم الإنجليز .

ثم ضرب لهم مثلاً بالامة الإيرلندية وكيف خدعهم الإنجليز عن أنفسهم وكيف حرموا هذا الشعب من حريته ، وتظاهروا بالنفاق عن هذه الحرية .

وأخيراً يبلغ محرر المفيد غايته في إثارة بغض المصريين للإنجليز بقوله مثلاً بهذا الشعر :

لا تظنوا أن تهنونا ونكرمكم وأن تكف الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أنا لا نحبكم ولا نلومكم ألا نحبونا

الفصل العاشر

جريدة الأستاذ



الحديوي عباس حلمي الثاني

عفا الحديوي عباس حلمي الثاني عن السيد عبد الله
النديم ، فعاد إلى مصر وآلى على نفسه الدفاع
عن الحديوي الذي من عليه ، ونفذ إلى الميدان
السياسي من هذه الثغرة ، وصال في هذا
الميدان وجال ، مدافعاً عن الحركة الوطنية
حيناً ، ومهاجماً الاحتلال الإنجليزي حيناً
آخر . وكان غرضاً من أغراض هذه الصحيفة
ومن أجله كانت (جريدة الأستاذ) معرضاً
كبيراً للأشعار التي مدح بها عباس الثاني
وزيروه ورياض ، فلم تكن تمر فرصة عيد
جلوس أو عيد ميلاد أو عيد اضحى الخ
إلا وجريدة الأستاذ تنشر القصائد الطويلة .
في مدح أمير البلاد والنساء عليه والثناء له .

على أن هذا الغرض السياسي لم يكن أول أغراض (الأستاذ) بل كان غرضاً
ثانوياً بالقياس إلى أهداف الجريدة الأساسية .

وهذه الأهداف هي : —

أولاً - الإصلاح الاجتماعي .

ثانياً - إصلاح التربية والتعليم .

ثالثاً - الدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب .

رابعاً - الحملة على المبشرين المسيحيين .

ولا ننسى أن نقول إن التديم آثم في مجلة الأستاذ ما بدأه في مجلة التنكيك والتبكيك من العناية بأمر اللغة العربية باعتبار أنها اللغة القومية ، فدعا إلى احترام هذه المادة في مناهج الدراسة ، بل دعا إلى المساواة بين مدرس اللغة العربية ومدرسي المواد الأخرى .

ونشر في مجلة الأستاذ ، مقالا لبعض المدرسين كتبه بعنوان (المساواة بين البنين)^(١) وجه فيه الحديث إلى نظارة المعارف وشيها بالآب الكبير بجميع المعلمين وهذه الآخرة تفرض عليها المساواة بين الأبناء . وإلا فقد بدلت في قلوبهم بدور الحقد والشقاق ، قال الكاتب : . . . فإن قال هأنا الذي ظم بمقوق البنوة وقد رما حق قدرها ، فما على " إلا أن أقدم له (مجلة العربي) ين بصوت حزين تمثلا بقول القائل :

وإذا تكون ككريمة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

. . . . يا أبه - أنا يوسف وأنت مقوق - فلا تكثرت بالمفسدين ، ولا حولك زخرفة المبطلين . فإنهم أعداء لك ولا ينالك ، ويريدون أن ينزع الشيطان بينك وبينهم ، قتلاف بهزك مكرم ، ورد عليهم كيدهم في نمرم لتكون أنت وأبنائك بمن وصلت سهامهم إلى أضرأضهم فلبوا غاية آمالهم .

فعلق التديم على هذا المقال بقوله :

(الأستاذ) يا يوسف أنت في ضيابة الحب ، وقد تسلى عنك مقوق يهودا وشعون وروميل وبقية الأخوة الذين يندون وروحون أمامه ، فانتظر بعض السيارة يلتطك ، لملك تنال العيش في صورة المعبودية ، حتى ينتهي دور الاسترقاق ، ويطف عليك الأمير العزيز لما يراه فيك من الأملية إذ ذاك تقول : اجلسني على خزائن الأرض إني حفيظ أمين !!

وعاد التديم يدافع عن اللغة العربية في مقال له كبير بجريدة الأستاذ بعنوان

(١) مجلة الأستاذ العدد الخامس والعشرون بتاريخ ٧ فبراير سنة ١٩٩٣ .

(مجتمع اللغة العربية بمصر) (١) ذهب فيه إلى أن العربية تنفع لكل معنى وتؤدي كل غرض ، وناقش الكلمات التي أقر المجمع استعمالها ، فوافق على بعضها ولم يوافق على الآخر .

وما دمنا نتحدث عن إصناف اللغة العربية ومدرس اللغة العربية ، فلنهدف بإجمال جهود النديم في إصلاح التربية والتعليم ، من ذلك أنه فسح صدر جريدته لبحوث القائمين بشئون التعليم من أمثال علي باشا مبارك ، فحركة يتحدث عن التعليم في بروسيا وبقية الدول الأوروبية وتعرض صورة دقيقة من التربية في تلك البلاد وإحصاء أدق عن عدد المدارس والتلاميذ والكتب والمخصص والمناهج وما إلى ذلك كله .

وكتب النديم بنفسه بحثاً أخرى في التعليم بالأزهر والتعليم بمدارس الحكومة ، وكانت هذه البحوث أشبه بلوائح تعليمية كتلك التي وضعها الأستاذ الإمام محمد عبده .

وفي مقالة من الأزهر بعنوان (العلماء والتعليم) (٢) وهي مقالة طويلة ملأت أكثر من ست عشرة صحيفة من صفحات مجلة الأستاذ وصف النديم طريقة التعليم بالأزهر وصفاً يمتاز بالدقة ومطابقة الواقع ، وقدم في إصلاح الأزهر أربعة وعشرين اقتراحاً فيها ، عمل بها ولاية الأمر ولم يزالوا يعملون بها إلى اليوم .

أما التعليم بالمدارس الحكومية والمدارس التابعة للجمعيات ، فكتب عنه النديم بعض مقالات كان يعمم القول فيها حيناً ويخصصه حيناً ، ومن المقالات التي صمّم فيها واحدة له بعنوان :

رؤية الزكّناء :

عرض فيها الكاتب لطرائق التعليم عند الأوربيين ، فإنبهم الآن على الاختراع ومرجع الترتيب ، فالحسن ما حسنوه والقيح ما قبحوه ، والرواية إن لم تكن لهم

(١) الأستاذ جاريخ ٧ مارس سنة ١٨٩٣ .

(٢) مجلة الأستاذ العدد ٢٦ جاريخ ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ .

فهى باطلة ، والنسبة إذا لم تتصل بهم فهى عاطلة . وهذا الذى لو أننا المدول عن البحث فى طرق تعليم الشرقيين إلى النظر فى طرقهم^(١) .

وأن النديم فى هذه المقالة كيف يحافظ التلاميذ على دينهم ولغتهم وتقاليدهم ، وكيف يمجدون عظماءهم ، ويقصدون ملوكهم ، ويحفظون تاريخهم ، وهذه التربية هى التى رفعت مالك أوروبا إلى أوج السعادة والرفعة ، وانتهت بأعما إلى سلام الملك .

وعجب النديم فى هذه المقالة كيف أن العلماء فى الشرق يعيدون كل البعد عن الاشتغال بالسياسة ، وكيف أنهم قصرُوا أنفسهم على العلوم الدينية ، « فإذا عرض عليهم أمر سياسى أحجموا عن الخوض فيه لجهل طرقه ، وإن تسكلوا فيه بالجرأة كان الخطأ أكثر من الصواب لعدم اشتغالهم به » ، ولهذا أهملهم الأئمة فى المجالس السياسية ، وأخذوا بآراء من هم دونهم فى الرتبة العلمية .

كادما النديم فى مقاله هذا إلى الإكثار من الجنبات على نحو ما يفعل القوم فى أوروبا فإذا على أغنياء الشرق لو عقدوا الجمعيات الخيرية تحت حماية دولتهم ، وقتعوا بها المدارس الوطنية ، وعلوا فيها هذه المبادئ تقليداً لأوروبا ، وساعدتهم الحكومة بحفظ مشروعاتهم من السقوط الخ » .

على أنه من أجل التربية والتعليم كان النديم يبدل جهداً من نوع آخر وهو التجميل — من ذلك أنه ألف رواية باسم (الوطن) الغرض منها الحث على التعاون على إنشاء المدارس العلمية والصناعية .

والخلاصة أن رعاية النديم بشئون التربية والتعليم ، وتحمسه لهذه الأمور لا يقاس به إلا تحمس أديب إسحق للأصلاح التباينى فى مصر ، ولا فرق بينهما فى ذلك سوى أن أديب إسحق كان أكثر مرارة ، وأدنى إلى السخرية والذبح فى حين أن النديم كان فى مقالاته الجديدة لا يصطنع السخرية ولا يميل إلى العنف .

أما الإصلاح الاجتماعي فقد كان الغرض الأول من أغراض التنديم في مجلة الأستاذ . ولذلك كتب فيه كثيراً بحيث لا يكاد عدد من أعداد هذه المجلة يخلو من بحث اجتماعي أو قد خلق . أو قصة لها هذا المغزى ، أو حوار له هذه الغاية .

مرة يكتب مقالاً في محاربة الخرافات ، وأخرى يكتب مقالاً في انتقاد بعض العادات ، وفي ثالثة يبحث في موضوع الطرق الصوفية التي تهافت عليها المصريون ، وكانت جزءاً من حياتهم لا تستقيم الحياة نفسها بدونه .

والقارىء . بلجميع هذه المقالات يقع في روعه أن المصريين كانوا في تدهور خلقى في القرن الماضى ، وأنهم كانوا إلى جانب ذلك مصابين بالجهل الذى حال بينهم وبين فهم الطرق الصوفية على الوجه الصحيح ، فاضطر السيد عبد الله التنديم إلى كتابة البحوث الضافية في هذا الموضوع الأخير . ولم يسلك في ذلك طريق السخرية والتهكم كما كان يفعل أدب إسحق ، أو كما كان يفعل الأستاذ الإمام في بعض الأوقات (١) .

قال عمرو الأستاذ :

« وليس القصد إبطال الطرق نفسها فإنها من أحسن طرق التحليم الدينى ، والتربية الأدبية ، فإن الشيخ عندما يلقي المريد لا إله إلا الله محمد رسول الله يشرح له معناه ، فيبين له صفات الله تعالى ، وما يجب له وما يستحيل عليه . وكذلك تجمعهم في الموالد ، فإنه مظهر ديني لم يتفق لغير المسلمين .

وفي مقال آخر بعنوان (الطرق وإصلاحها) استعرض التنديم أقوال أصحاب الطرق أنفسهم ليعين قناص أنهم بعيدون عن الخرافات التي رموم بها . فأورد كلمة (سيدى أحمد الرفاعى) حيث قال : طريقتنا الكتاب والسنة ، وكلمة (أبى بكر الشبل) حيث قال : الحمية اتباع أوامر المحبوب واجتناب نواهيه . وكلمة (أبى القاسم السنوسى) : هذا طريق مبنى على الفيرة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلمة (عمرو الوجيه التيسابورى) من انحرف عن جادة الظاهر فلا باطن له ، وكلمة (جعفر الخواص البغدادي) من أخلص لله في المعاملة وطرح حب

(١) أقرأ العدد ٣٤ من السنة الأولى بتاريخ ١١ أبريل سنة ١٨٩٣

الجاه والرفعة والتعالى . . حفظ الله تعالى لسانه من الشبهات وأراحه من الدعاوى الكاذبة . وهكذا حتى وصل إلى سادة الطرق في عصره ومنهم (الشيخ الجرجي) والسيد البكري ثم قال .

« وليكن في علم إخواننا المسلمين أن صاحب الساحة السيد البكري مستعد لإبطال هذه النحل والبدع . . والأستاذ الفاضل الجرجي مستعد كذلك لقبول كل مكاتبة ترد إلى ما يقوله الناس وينسبونه إليه ليظهر البراءة منهم » .

وهكذا ملا هذا البحث خمس عشر صفحة من مجلة (الأستاذ) فدنا بذلك على أن أهل مصر في ذلك العصر كانوا بحاجة إلى مثل هذه البحوث المستفيضة لأنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم ، ولم يهتدوا فيها إلى الفهم الصحيح . أما أحاديث التنديم في قد العادات الضارة والأخلاق المعوجة فهي من نوع أحاديث القديمة في مجلة التنسيك والتبكيك قريباً ، فلا داعي للإتيان بنموذج منها .

* * *

وكن من أهداف جريدة الأستاذ كما قلنا الحملة الشديدة على المبشرين المسيحيين وقد انبثوا في أوروبا وفي الشرق ، واتهموا المسلمين بظلمة من التهم العريضة التي لا أساس لها . والتنديم قطعة من العصر الذي عاش فيه وقد كُن هذا العصر شديد الحس من فاحية الدين إلى درجة كبيرة . ولهذا وجدنا التنديم يتصدى لؤلاء المبشرين ويصلبهم ناراً حامية من ضرباته ويذق قلوبهم بحملاته وبعجته ويكلف نفسه قراءة كتبهم حتى يتمكن من الرد على ما جاء بها من التزهات والأكاذيب ، والعجب أنه سلك في كل ذلك طريق الإقناع والهدوء الذي لم يكن يفارقه إلا في أحوال قليلة ونادرة .

ومن أبلغ ما كتب التنديم في هذا المعنى مقالته التي نشرها بمجلة الأستاذ تحت عنوان :

هزا عنركم فما مقابر هنرنا

بدأ بقوله :

كثيراً ما ترمينا جرائد انجلترا بالتعصب الديني تشوفاً لأذهان أهلها ، وترويحاً لأفكار سياسيتها التي تيشها المطامع . ولو تأملنا حال المسلمين وقابلنا بين

سكونهم وعدم تعرضهم لدين غيرهم وبين سعى غيرهم في تصديرهم ؛ رأينا أمراً يذهل العقل كما يحير الأفكار بهذه الدعوى الباطلة فإننا لم نسمع أن مسلماً دخل أوروبا لدعوة أهلها للإسلام ، ولأن جمعية عقد للنشر دين الإسلام بين النصارى ، ولأن ناساً اجتمعوا للمذاكرة في كيفية إخراج النصارى من دينهم ، ولكننا نرى ونسمع هذا كله من أوروبا . ومع ذلك يقول عنا ذوو المطامع الملكية إتنا متعصبون تمصباً دينياً ، . . الخ .

ثم أتى المحرر بتقرير جمعية التوراء الإنجيلية الإنجليزية عن سنة ١٨٩٣ وفيه أن هذه الجمعية التي أسست سنة ١٩٠٤ بقصد نشر كلمة الله في الدنيا كلها . وقد صرفت إلى الآن أحد عشر مليوناً من الجنيهات في الترجمة وطبع الكتب ، المقدسة . . . الخ .

ثم قال النديم . . . فهل هذا عمل المتساهلين مع غيرهم ، البعيدين عن التعرض لدين الغير ؟ أما هذا عمل المجددين في تعمير دينهم ومحو غيره ؟ وهل هؤلاء مع هذا الاجتهاد الغريب غير متعصبين ، والمسلون مع بئسهم عن هذا كله ، وعدم وجود جماعات للنشر دينهم كهنه يقال إنهم متعصبون ، سبحانه ذلك هذا بهتان عظيم . .

ثم أتى المحرر على فصل من كتاب مبشر يدعى (يوحنا هوري الألمانى) سماه (الإسلام وتأثيره في تابعيه) ، وهو لإجابة عن هذا السؤال .

ما تأثير الدين الإسلامى في تابعيه . وما واجبات الأمم النصرانية نحو هذا الدين وتابعيه .

وللإجابة عن هذا السؤال قال المبشر ما ترجمته :

حيث أن الدين الإسلامى دين صحيح وأنه لا تأثير له في حياة تابعيه الدينية ولا على تقدمهم في العلوم ، ويستحيل إصلاحه ، فحينئذ يلزمنا أن نضع الدين النصرانى محله ، .

ورد النديم من جانبه على ذلك ، وبني رده على أخبار التاريخ وعلى رغبة فلان وفلان من كبار المسيحيين في الإسلام ، والشهادة له بأنه الدين القيم .

كارد المحرر في هذا المقال على دعوى المبشرين بأن المسلمين لا يصلحون ،

ما داموا تحت حكم ملوكهم وسلاطينهم ، وأنهم لا يتقدمون ماداموا لا يتعصبون
لدينهم ضد مواطنيهم من الأقباط والنصارى ، كما يتعصب المسيحيون في أوروبا ،
إلى أن قال : فنقرأ هذا الفصل ، وعلم سعى الجمعيات في نفردتها ، واجتهادها
في تصير المسلمين خصوصاً ، والعالم عموماً ، رأى الفرق بين لطف الشرقيين ،
وخشونة قسوس الغربيين ، ولو كتب مسلم مثل هذا لقامت على المسلمين قيامة
أوروبا ، وقالوا هذا دعاء للحرب الدينية ، وتعرض للدين المسيحي ، وسحبوا
قتالهم ونادوا بين أتباعهم المقيمين في الشرق بالرحيل . يدعى فقد الأمن
العام ، وتوحش المسلمين ، فنحن نأل من ملاوا أعمدة (التمس) وغيرها عن
نسبة التعصب إلى المصريين خصوصاً ، والمسلمين عموماً ، هل رأوا المسلمين
اجتمعوا لتغيير دين النصارى ليكونوا معهم ؟ أو تعرضوا لمسيحي بالمجادلة
والمناظرة ؟ أو طعنوا في دين غيرهم وقالوا إن دين النصارى أو دين غيرهم غير
صحيح ، قزم أن يعنى كما قال يوحنا ؟ . نأله إنهم لا يجندون لهذا السؤال جواباً
سوى قولهم : إننا مفترون عليكم . لنهيج أفكار أوروبا ضدكم ، فيحل لنا ما يحرمه
الهدوء والسكون . . . إن كل مسلم ممنوع من التعصب بقول الله تعالى : « لا إكراه
في الدين » ، وإذا قابل المخالفين له هش وبش وقال : « لكم دينكم ولى دين » ، فإن
عارضه متعصب أجنى ذكر له أهال الجمعيات البروتستانتية وغيرها ، وقال له :
هذا عندكم لما مقابلة عندنا ، وملا هذا المقال أكثر من خمس عشرة صفحة ، من
مجلة الأستاذ .

هكذا كان النديم لينا في محاربة المبشرين المسيحيين ، بحيث لم يؤذ نفوس
الأقباط المصريين ، بل أنه كان من دعاة الوحدة والارتباط بين المسلمين والأقباط
إلى درجة أنه اقترح أن تعقد جمعية مصرية موضوعها البحث في الوطن وخصائمه
وواجباته ومقومات حياته ، وذلك في مقال جميل بعنوان : (المسلمون
والأقباط^(١)) .

ولم يسبقه أحد إلى هذه الفكرة الوطنية البحتة .

الفصل الحادى عشر

قضية الشرق والغرب فى صحيفه الأستاذ

بقى أن نتحدث عن غرض آخر من أغراض مجلة الأستاذ ، وهو الدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب واستهزاء الشرق نفسه ليستيقظ من نومه ويلحق بالغرب الذى سبقه أشواطاً بعيدة فى الحضارة والتقدم . وهنا نجد أن النديم يهود أساويه ، وتضيع فيه الحماة ، ويدب فيه الحركة ، ويشعر القارئ بأنه مصارع قوى إنما قلّب بنفسه فى ميدان كله أبطال أقوياء ، وصمم فى نفسه مع ذلك أن يخرج منصوراً من المعركة .

إلى هنا نجد المحرر يلبس ثوب الخطيب . ويتدفق فى كلامه تدفقاً يناسب الخطابة أكثر مما يناسب الصحافة . وإن كانت الصحافة ذاتها تؤثر الأسلوب الخطابى فى أكثر الأحيان .

على أن النديم لم تغلب به حماسه بعيداً عن هذا المظهر . لأنه إنما يكتب فى مجلة الأستاذ ، وهذه المجلة الأخيرة إنما تشهد كهولة النديم ، كما تشهد هدوءه عقب حوادث الثورة المرابية . وعقب اختفائه نحو عشر سنوات ، وعقب استقرار الأمور فى مصر استقراراً نسبياً على كل حال ، لذلك نراه ينسج فى هذه المقالات الجانحة إلى السلم ، ويدعو إلى المحبة والوثام قراء يقول فى مقال له بعنوان :

هرب الأتوموم بجيوش الأوهام^(١)

فلترك الشرقيون والأوربيون لتبع الفريقان بشمرة المخالطة ، وتمسكنت منهما دواخى المحبة ، وتماكنت روابط الألفة بالاشتراك فى المعاملة والمساكنة . وما أوفر الصدور وأفسد التيسات إلا هؤلاء الكتاب الذين قبحوا الشرق

والقرب وانفروا عليه الأكاذيب . وعلتوا بها جرائمهم وكتبهم ، ونشروها بين
العالمين الشرق والغرب ، فظن الغربي أن الشرق بهم لا يصلح للملك ، ولا يليق إلا
للاستعباد والقهر ، ظن الشرق أن الغربي أعدوه الألد الساعى في سب سلطته ،
ونهب ثروته ، ولإعدام دينه واستعباد إخوانه ، فوقعت النفرة بهذه المقترحات
ونختم المقال بقوله :

فنحنو لإخواننا الشرقيين من مقاربة المضلين وغا لطهم . وتطلب منهم أن
يقرأوا عواقب ما هم فيه من الشدة ، وينظروا إلى المستقبل بين البصراء الذين
لا تزعزعهم العواصف ؛ ولا تستميلهم الأباطيل ، وأن يعملوا معاملة الأجنبي
بالمعروف وغا لطته بالمثل نصب أعينهم ، مع التزام الهدوء ، والسكون ، وعدم
الميل إلى الأوهام وما ينصبه الأعداء من إشارات الهيجان والاضطراب . فإنهم
إن لموا هذه الحالة قاوموا كل تهديد ووعيد ، وأظهروا لأوروبا أنهم بقصد
وحسن تصرفهم في الأمور قد قاوموا بقوة مدنيهم (حرب الأقلام بمحوش
الأوهام) .

وليانا لنا القارىء أن ننقل له نموذجاً كاملاً من مقالات التديم في هذا الغرض
الأخير من أغراضه في مجلة الأستاذ ، وليكن مقالاً له بعنوان :

لو كنتم ستناً فعملتم فعلنا

هي كلمة أوروبا التي ترددها على ألسنة الشرقيين كلما فعلت فعلاً يجعلها عليه
الاستعمار الملكي ، أو الانتشار الديني ، وقد أحكت الأتأليف بين القوتين الدينية
والمملكية ، لجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاذ وقد أضاف كل ملك
أوربي إلى عنوان الملك حماية الدين ، فيقول في مخاطباته ملك أو إمبراطور كذا
وحامى الدين المسيحي ، أو عبارة أشد وقفاً في النفوس من هذه . لم الأمم أنه
القباض على زمام السياسة والدين ، فيؤيد رجال السياسة بتنفيذ ما يرونه من لوازم
تأييد الملك وأتباعه ، ويساعد رجال الدين بما يبعث فيهم النفرة على بثه والدعوة
إليه ، فترى رجال القوى ماشين على نسق واحد ، كل فيما فوض إليه ،
لا تفتر لحمة ، ولا تفرق لهم عين عن وظائفهم التي فيها حياة الدين والملك وزيادة
شرف الأمم . والأمم لكونهم أدركوا ما قصده الملوك ورجال السياسة وخدعة
(م ١٢ - أحب للقالة ٢٠)

الدين اندفعوا معهم اندفاع السيل في المنحدرات ، فقدوا الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية والتجارية والزراعية والسياسية وأخذ كل فريق في إحسان ما كلف به نفسه وأوجه عليه مجارة جاره في الملك ، ومباراة نظيره في العلم أو العمل ، ومسابقة غيره من قصدوا قصده ، فاشتغلوا بما اشتغل به . وقد بلغوا التصدي في بلادهم ، وخرجوا من بلادهم محولين على فوق الدين والملك ، سائرين على نور السلم والصناعة ، فدخلوا الأقطار الشرقية سائحين ومتجرين واستوطنوها مراقبين ومتفيلين ، وجرأتهم الكثيرة العدد برزت تنسابق في ميادين الإنشاء بمواضيع مبتكرة ومقالات مطولة وعبارات موزنة ، فأصبحت نافذة للأخبار ناضرة للآداب معلمة للعلوم مؤيدة للمبادئ حاثية على المقاصد منشطة للهمم مرشدة للأمم منبهة على الأغاليط محذرة من التقاعد والتسكاسل والقفلة عن وثبة الجار أو معاكسة المتناخم ناضرة للفضائل مؤرخة لرجال الفضل والعمل حافظة لسمير الملوك داعية أفراد الأمم إلى ما فيه خير البلاد وتأييد الدين غادة للشرقيين لاجبة بأفكار ورجالهم خاتمة لعظائم مقيحة لما هم عليه من دين وسير وميعة واتقاء وصناعة وتجارة وزراعة منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل لا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه ولا مجد لمن لم يتم إليه ، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه ، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويشهد بعبادته ويتقيد بعبادته هذه كليات تحتاج لبيان جريئاتها التي لا تحتاج لبرهان بعد ظهورها للبيان .

قالت أوربا لأنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث واللباس وأنكم في حاجة إلى مصنوعنا ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية وبذا تمسكت من إدخال مصنوعها في الشرق ، لتحول الثروة إليها فأمانت ما كان يصنعه الشرقيون ، وحجرت على ما لا بد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها ، فما يصنع في الهند والصين والمجسم والأناضول وغيره إنما ينفق ويبيع على يد الأوروبي كما يباع وينفق مصنوع بلاده ، فالشرقيون أجراء يزوعون ويحصدون ويصنعون ليرجعوا تجارة أوربا ، ويهضموا ثروتها ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية فلاحظ لهم في الوجود ولا رغبة لهم في الملك . كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لقاعدتهم عن مجارة أهلها وما زاهم بعداً عن الصناعة وثمراتها وجود دخلاء أجراء يزعمون أنهم فصحاء يثبطون الهمم ويرمونهم بالضعف ، ويومنونهم بعدم صلاح

بلادهم للصناعة ويفرونهم بتعذر ذلك لتعذر المعدات والآلات وهم يعلمون أن كثيراً من الممالك التي لا آلات فيها استعانت بآلات اشترتها من الغير وأحيث صناعاتها الوطنية وحتمت على أهلها شراءها لرواج صانعيها ومنعت دخول مصنوع الغير حفاظاً لثروة أهلها فهم بصرفهم المصنع بهذه الترهات يريدون بقاء الشرق في قبضة الغربي احتياجاً إليه وترك الشرق ميداناً لمساواة رجال أوروبا فلا يجدون مصنوعاً يعمل عليهم ولا معرضاً عن صناعتهم فنبور . وضعفاء العقول يفترون بخداع هذا الدخيل ، ويظنون أنه من المخلصين ، فلا يتحركون لعمل من الأعمال لو قرعهم في اليأس والقنوط بالمفتريات ، ورجال أوروبا تمنع من تقاعصهم ويقول لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا .

قالت أوروبا إن وقوفكم عند عاداتكم الشرقية وتخليصكم بأخلاق آبائكم بقاء على الحمجية والتوحش فلا بد من مجاراتنا في حركاتنا المدنية لتساونا في الرتبة ولتحت لنا البير والخارات والمقامر وأباحث الزنا والزنا ووسمت دائرة القهر والحشران فنفعل الشرقيون عما وراء ذلك ضياع الدين والملك والمجد والشرف وانكسب الأضياء والمغفلون على الخور فساء أخلاقهم وضعت عقولهم وقصدت عقائدهم وتحوّلوا إلى المومسات ، فازتكبو الإثم بارتكاب المحرم ، والمار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش . وجعلهم عرضة للأجنبي بعدم غيبتهم عليها ، فهم في رتبة القواد بل هم هم ، ومال فريق إلى القمار ، فباع النبط والدار ، واضطر لبيع حلي زوجته برضاها أو بسرقة منها والكل عطف على المرائين يقترض ويصرف في الملاهي ومتلفات العقل والجسم والمالك حتى أسكن الآدوي مكانه وصار له خادماً بعد أن كان عظيماً محترماً ، وكلما تهاك الشرقيون على الخور والملاهي واصلت أوروبا رسائل الخمر ، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملاهي ، تحويلاً لثروة وإذهاقات لروح الدين حتى أصبح المتلبسون بهذه القبايع والفصائح لا شرقيين ولا غربيين ، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق ، وهي تحمهم على المثابرة على علمهم باسم المدنية وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة ، إذ لو كان الانقياس في الملاهي ومضادات العقل والدين من المدنية لما تجاشت أوروبا وحدت مرتكبة جميعاً جاهلاً ومجنوناً ولما وضعت القوانين الشديدة

المسكرات ومنع التلازمة منها ولما كتبت الر - ثل العديدة في ذم الخمر والفسوق وحرمان ضغفاء العقيلة والمتقاعدين على العبادة وحضور الكنائس وإعما هذه أشراك وغشاخ تنصب في طريق الشرق حتى لا يخطو خطوة إلا وقد وقع في حباله أوروبا ولما رأت أوروبا أن الشرقيين لا يفتنهم من غفلتهم ولا يقولون ، قاصد الدول ، ولا يدركون مكاييد الملوك ، ولا يسمعون في صالح بلادهم ، ولا يحافظون على دينهم ، ولا يعرفون شرف لغاتهم ، ولا يحفظون كرامى ملوكهم ، ولا يهتمهم ضياع أوطانهم اغضبتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء . وهى تقول لهم لو كنتم مثلنا لغفلتم فعلنا .

قالى أوروبا أن الشرق في حاجة لتدخل أوروبا لإصلاح إدارته وماليته وتجارته وتهديب أمة بالتعاليم الآدوية وأجمع رجال أوروبا على جعله تسامقابلا لها وربطوا همهم على ضمه إليهم الجز . بعد الجز . والنقطة بعد النقطة على اتفاق مقود بين الدول ، هذا لى وهذا لك ، ثم تلوا في الدخول فيه تلوى الآفى ، وملكوا بعضه بالتجارة والبذل ، وبعضه بدعوى مسحق دولة . أو إهانة بواب قنصل أو حفظا لطريق ملكة والداية الداهية أن ملوك الشرق وحظماء ملثوا قلوب أمهم بأوهام ، وخوفهم من الآورى ، وأرهجوم باسم اللورد والبارون والكونت والمركيز والمجنال والأميرال والسير والمساجور ، حتى خيلوا لهم أن الآورى ملك يمكنه قلب المملكة ، أو جنى " يقدر على حرقها ، فامتثلوا رعبا وخوفا ، ولبسوا ثوب ذل وهوان ، وذلك بسبب المعاملة التى يعاملونهم بها في وقائعهم مع الآوريين ، وقد اضطروا كثيراً من الوجاه والنهائ الذين يتنفع بهم الوطن والملك إلى الاحتيا بالنير فقادياً من تلك المعاملة فسكانوا أقوى يد للآورى في تداعله واستيلائه على ممالكهم . فلو ربوا رجالهم على الخاسة ومروهم على الأعمال ، وبشوا فيهم روح الحية بالمحافظة على حقوقهم وترقيهم بحسب استعدادهم وساعدوم على انشطار الصناعة والتجارة ، وهذجوم بالآدييات ، وصانوم من المفساد العقلية ، وعطوم العقائد الدينية . وعودوم على الشعائر المليية ، ونهبوم بمرائد وطنية صادقة الهمجة صافية النية مارة بما يقدمهم وينفعهم ، وأوقوعوم على

تواريخ آبائهم ، ومسابقات الدول في بلادهم ودسائس أوروبا ، وخندومهم مزوجال
الفن والاعرجاء الذين يخدمون أوروبا باسم المصلحة الشرقية ، لوجدوا أمامهم
رجالا وأى رجال ، ولكنهم أهلوا بالكم وأهدوا حقوق رعائهم فأصبح
ملوك أوروبا يفتخرون عليهم ويعيرونهم بما صادوا إليه من الضعف والاضمحلال
ويقولون لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا .

ولا لوم على الأوروبيين في ذلك ، فإنهم إنما يسعون في مصالحهم واتساع
مالكهم وتجارهم ، والشرقيون يرونهم يعملون للأعمال العظيمة في بلادهم ، وهم
ينظرون إليهم نظر المشئ عليه من الموت ، ولا يتحركون لجاراتهم أو لإيقاف
تيار تدافعهم ، ويرونهم يسلبون أفعال أمراتهم وولاتهم عملا فعملا ، وهم
ناكسو الزموس ، ومنكشون في ثيابهم ، تسمع منهم أصواتا عالية في خلواتهم ،
يظنها السامع أصوات أقاس حريصين على المجد والشرف ، فإذا خرجوا إلى
الطرق ساقهم أضف أوردى بصاه ، وهم بين يديه كأنهم قطعان الأغنام تناق
إلى الحظائر . بمن تقيس الجزائر إذا شادكة التونسي والهندي والمصري والتبرسي
والعدي والمسطلي والرنجباري والبرنوي والبخاري والمروى والطافستاني والزنكاني
والسرخسي وقابله المراكشي والأفطاني برعدة الخائف الرجل ونظر إليه المعجمي
والعراقي والبنيني والحجازي والتجدي والسوري والطرابلسي والأناضولي نظر
المتوجس الحذر الذي تبشئه الهمة ، وتقدمه الثقة كلما شئوا راتمة السلم من دولة
جاءهم إذ دار الحرب من أخرى سمياً خلف الدين ، لا طلباً لسمه الملك .

فانه لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء النصرانية تلك الدول
الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة ، ولكن المغايرة الدينية ، وسعى
أوروبا في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل الذي أخرج كثيراً من ممالك
الدولة بالاستقلال أو الابتلاع . ولنا نرى كثيراً من المغفلين الذين حكمتهم
قوايلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ، ويرموننا بالجور وعدم النجس ، وسوء
الإدارة ، وقسوة الحكم ، ولو أنصفوها فقالوا أنها أعظم الدول ثباتاً وأحسنها
تبصراً وأمرها عزيمة ، فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا المتدفق ، لأنها دولة

واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات ، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يمالئهم مذنباً أو يقرب منهم جنساً ، وكل دولة طامعة فى قطعة تحتلها باسم المحافظة على حدودها ، أو وقاية دينها ، واتساع أراضيها ، وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للنقل والتحول وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان فى غالب أراضيها ووجودها تحت رحمة الله تعالى إن شاء أمطرها فأخضبت ، أو منحتها فأجدبت ، وهذه لو ابتليت بها أعظم دولة أوروبية ما قاومت هذه الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى ولكنها تلام على إعطاء السكك الحديدية التزاماً للأوربيين بواسطة أناس يزعمون أنهم من رعايتها ظاهراً وهم فرنسيون أو إنكليز باطناً فإن السكك الحديدية بالنسبة إلى المملكة كالأشرايين بالنسبة إلى الجسم ، فهم من أعظم الملل التى ستبتلعها أوروبا وحيلة للتدخل باسم وقاية أملاك أتباعها ومن لنا بكف يد الوزراء عن مثل هذا التهاون ، ويكفى ما جرى وما ذهب من مائدى ، فإن ارتكنا على الشروط فقد ارتكنا على أومن من المنكبروت ، فإننا لم نقدر على تنفيذ عهدة برلين فيما يختص بنا وقد وقع عليها الفول ، فكيف ننفذ شروطاً يفتنا فيها رجال جملتهم الدول ذرائع للتدخل ، ووسائل لأسوء المقاصد . ولقد أذهلتنا أعمال أوروبا التى لم تسمح لشرق بامتلاك شبر فى أرضها ، وهى تفرجنا من مساكننا ، وتقيم فيها بلا شروط معقودة ، ولا حجة مسجلة ، ولكنها معذورة ، فإنها لم نجد من يارضها أو يجارها فهم لا تعترف أننا معها فى ثوب الإنسانية بل تقول لو كنتم مثلنا لفلانتم مثلنا .

أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلداً شرقياً باسم الاستيلاء ، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية ، وتنادى أول دخولها أنها لا تعرض للدين ولا الموائد ، ثم تأخذ فى تغيير الإيتين شيئاً فشيئاً ، فلا تقدم على العمل بل تفعل الشيء على ليل التجربة ، فإن نفذ فقد مضى ، وإن عورضت فيه التزمت التأويل ، كما فعلت فرنسا فى الجزائر وتونس ، حيث سنت لهم قانوناً فيه بعض مواد تحالف الشرع الإسلامى ، بل تسخى مقابلهما من أحكامه ، ونشرته فى البلاد ، واتخذت لتنفيزه

فضة ترضاهم ، ولما لم تجد معاوذاً أخذت تحول كثيراً من موارده إلى مواد ينكرها الإسلام توسيعاً لنطاق النسخ الديني ، ولم يلبث أن جاريناه وأخذنا بقانون يشبه إن لم يكن هو ، ولم يتطلع في إصلاح موارده المخالفة عزاز ، ثم تدخلت في الأوقاف واستولت على غلتها ومنعت المستحقين ، وطردت كثيراً من خدمة المساجد اقتصاداً مالياً ، وتخفيفاً دينياً ، ثم رفضت ضباط العساكر الوطنيين الكبار واستبدلتهم برجالها خوفاً من ثورة يذوقونها بها عن بلادهم ، أو يعمون بها دينهم ، ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية ، وألغتهم بتعليم لغتها ، والأخذ بالطبيعات والرياضيات ، حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين لئلا يعلموا أنهم ينافيرونهم ديناً ، فيثورون عليهم ، أو يلتجئون إلى دولة أخرى ، وهذه عواقب الالتجاء إلى دول أوروبا والاغترار بوعودها الخالية ، وشروطها المكتوبة بالماء على صفحة الهواء ، وهذه دولة الروسية دخلت مرو وهراة وبخارى باسم حمايتها من أعدائها ، وبعثت إليها تجارها لتنفذت ، ثم رجال يساكنون أهلها فعزوا ، ثم بساكر في الحدود فأقاموا ، ثم بشروط تربطها بها فأضيت ، ثم هي آخذة في تقدم لغتها هناك توصلنا لإعدام اللغات التي يموت بموجبها الدين وحمية الجنس والنفرة الوطنية ، وهذه إنكلترة دخلت مصر باستثناء أهلها ، وأخضع بناصرها ، بعهة تأييد المركز الحديوي الشريف ، ثم زيد على تلك العلة بث النظام ، ووضع حكومة ثابتة تقاها حكومات أوروبا ، وقد بذلت ما في وسعها في التحسين والتنظيم بما يترادى لها . ولم تجد غير آذان سامعة وأيد عاملة ، ولكننا مع كثرة سماحنا وتطمينها لنا لم نقلعها في شيء مما دخلت لبثه فينا ، بل تركناها تفعل أفعالها ونحن تفرج عليها ، كأننا في ساحة سيلاوي يرينا من أعماله الجانب ، ونحن في حيرة من ألعابه المدعشة ، ومن جعل أعمال إنكلترة في مصر ييناها له لوى أنه حقيق بما يوجه إليها من النكير .

أولاً : أطلقت حرية المطبوعات والأفكار ، قرأنا المهرائد الكثيرة تتكلم بما تريد وتتصرف في أقبحاها كيف تشاء . هذه تقول أنا وطنية أنادي بأن

خير البلاد وصلاحها موقوف على جمل الأعمال بيد المصريين ، نحو طهم رعاية الحضرة الخديوية ، تحت مراقبة بريطانيا العظمى ، حتى إذا رأتهم قاموا بحكومة ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ ، وفك وعدّها وأجلت جندها ، وتركتم يتمتعون بحريتهم في بلادهم ، كما تمتع البلغار والجبل الأسود والسرب وغيره مما هو أقل من مصر بكثير ، والأمة مرتاحة لها . وهذا تقول مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الإنكليز ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة التزلا . حتى يتيأ المصريون لاستلام أعمالهم ؛ لا يتألى رضى عنها المصريون أو غضبوا منها . وهذه تقول إن فرنسا هي الدولة الوحيدة في المحافظة على مصر ، وحقوق السلطان فيها ، وتأييد الخديوى ، ولا يضرها لإلوجود الإنكليز فيها . وهذه مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وهذه علمية تهذب النفوس وهذه توردهم من مصادر الأديان ما يوقم في الشك والتردد ، وهذه دينية وهذه حقوقية وهذه طيبة . ثم تركت المصريين يندون و يروحون بين هذه المتناقضات وهم يفتاضون ويتجادلون ، لا رقيب عليهم ولا جاسوس ، ولما رأّت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تفهمهم على طلب حقوقهم وظهورهم أمامها بالتظاهرات الأدبية استدلالا على استمدادهم لقيام بأعمال بلادهم وترك الجرائد تخوض في المواضيع المضادة وتلمب بالأنكار الجامدة ، ونحن في بحار الهوى غارقون .

ثانياً : أنها كفت يدها عن الأعمال عند دخولها مصر ، وسلمتها إلى المصريين ظاهراً لتقيم الآلة لأوروبا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين ، وتشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول ، ولما لم تجد أمامها من يحمل هذا الظاهر باطناً بمصر السلطة في الذات الخديوية الفخيمة . والإدارات في الوطنيين ، أخذت تقول وهم يفعلون حتى أصبحت تفعل وهم لا يفعلون ، وكانت تتق باسهم المطاعين الأوروبية ، حتى خلا الجر وأمنت الاعتراض فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع في الخداع ، وهم غير محتمين ، فإنها ما دخلت إلا لتمل عملاً أمام أوروبا ، فلما فرضوا إليها الأعمال استلمتها همة ونشاط ، ومثلها ومثلهم كمثل لص دخل دار قوم ، وقال

لهم حلون ما عندكم من أثاث وحلي وآنية ، فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة ، فهل إذا دخل عليه البوايس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص ؟ كلا بل يقول إنه صاحب الدار ومثولا خدمه ، أيرون أن الإنكليز هم الذين نشروا منشور الموصات ورخصوا النساء أن يخرجن البهاء تحت حماية القانون ، أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البهايا وإعطاء من شهادات بأنهن صالحات للزنا . فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمة الله تعالى في كل كتاب . أم هل قالوا المصريين ستفق ملايين في المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن نسأل عما تفعل فيها ، فلماذا والسؤال عن مبالغ ستكفون حبيدا مكلفين بسدادها إلى روثشيلد وغيره . أم هم الذين أعطوا الالتزامات الواجوبة والأرضية ، ووسعوا نطاق المعاهدات إلى أن ضيقوا كل عمل مصرى ؟ أم هم الذين منوا المصريين من زراعة النخيل والحشيش لتروج مزارع أوروبا بحراب بيوت مثولا الضعفاء ؟ أم هم الذين ياعوا مهماتهم وآلاتهم بغير إذن ، وربما أعطوا من أخذها شيئا يستعين به على نقلها حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يصرسها بالمصا أوبالتبوت ؟ أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة . وحشروا الغرباء في المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يهدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلا ؟ أم هم الذين قللوا من ثلاثة المصريين في مداوسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها ، وتدرجوا لإمالة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن ينفخ في الإنكليزية . لنفسى لغة القرآن فيلص بها الدين الواقف عقبه أمام أوروبا ، كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شورايم ؟ لا والله ما نالوا أملا ولا قارفوا عملا ولا أذلوا رجلا ولا خربوا بيتا ولا امتكروا حرمة إلا بالمصريين . ماذا علم الإنكليز إذا سموا في ربح تجارتهم واستخدام أبنائهم ، ولم يهدوا عاقبا ، أيرجعون وهم لهذا مرتحلون ؟ ومن يلومهم إذا وجدوا طريقا لتوسيع ممالكهم لا خوف فيه ولا عقبات أتركوه وهم في جميع بلاد الدنيا طامعون ؟ كانوا يرون أن المصريين إذا رأوا دولة حرة دخلت بلادهم لتأييد خدوهم وإصلاح بلادهم ، وتبريفهم حقوقهم بين الأمم ، تمسكوا حول

أميرهم حاملين كرسى غلامته على رؤوسهم منادين باسمه . قائمين بقتضاد أوامره
محافظين على حقوقه ، مستبشرين في اختصاصهم بأعمالهم ، والقيام بشعائر دينهم ،
مجتهدين في حفظ الأمن وخدمة البلاد ، حافظين لحقوق الأجانب والغرباء ، النزلاء
والمجتازين ، جاعلين محافلهم التي استخدمتها أوروبا في مصالحها محافل وطنية ،
تستخدم أوروبا لمصلحتهم فكانت تساعد على هذه الأمور التي تهتت لأوروبا
أن تعلمها المصريين ، وتؤملهم إليها ، ولكنها رأت غير ما ظنت ، فلأولم عليها
إذا وضعت قدمها على عاتقنا لتعول جواد الفخر والخيلاء .

لماذا نتألم من أعمالها وأمرأنا اقتصرنا على العقود في القصور وركوب
العربات للتفسيح في المنتزهات ، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أو صوت
استصراخ ، وضعاؤنا حيارى ينتظرون هؤلاء وهم عنهم لاهون ، ونهبأؤنا في
المحافل يتحاورون ويقتناظرون ، بما لا يفيد الوطن والمملك شيئا متعللين بأن محافلهم
لا تعرض السياسة ولا الدين فإذا انصرف النباه عن وجهتي السياسة والدين
فبمن قوم الأعمال ويتقوم أود الحكومة ويبقى عمسود الدين قائما كبقية
الآديان؟ أبا لاعاء الذي ربطناه بين الأجنبي نتخل عن مرجع الحمد وأصل الشرف؟
وهل تريد أوروبا أن تقتصر علينا في حرب عوان بأكثر من صرف نهباء البلاد عن
النظر في الملك والدين ، ليخلو لها الجو فتفعل ما تشاء وتغير ما تشاء ؟ مع أن
النباه يمكنهم أن يستخدموا محافلهم في مصالح بلادهم فيتمكنوا بقوام العقيلة
عما لا يمكنهم منه سيف ولا مدفع من غير إثارة فتنة أو إراقة قطرة دم ، ويصلحون
ما أفسده الاغترار والانخداع ويحدنون في البلاد عصية وطنية لا تردأ أعظم أمة
عن مشربها المصري وسميها للمؤيد برهط القلوب على عزيمة واحدة صادقة . وما
الذي استفاده النباه المصريون من الاخلط والأمشاج ، غير تقدم الفخر وتأخرهم
واخذنا بيت مال لفقراتهم وصجاوهم ؟ دعونا من الجمالة في الكلام والقسر بما
استهجنه العقلاء ، ما ابتدعت المحافل إلا لتصير الممالك دستورية ، وقد نجحت في
ذلك وعلبت كثيرا من ممالك أوروبا ، وحيث أننا بين يدى حكومة دستورية فلم لم
نؤيدها بعصية وطنية ونظهر من أعمالنا ما تقتخر به إنكلترا أمام أوروبا ؟

والإقنان بقى الأمراء في البيوت والنباه في المحافل على ما هم عليه ، والمغلاء سامتين ، والصفاء طائرين حول أو هام الأجنير وإرهابه ، والتديوى الأعظم ينظر إلى هذه الجوع نظر الأب الرحيم إلى الأبناء العائين ، فلا نتمرض على بريرة أفريقية فضلا عن الإنكليز إذا جاءوا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلتنا وتمتعوا بما تخلفه لهم من عرض ومال ومتاع وصغار معذت والله أيام التقاعد والاعتراو بالترهات ، وصرفنا بين يدي خديوى يريد أن نجارى الإنكليز في الأعمال الإصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية ونحن عن إرادته السنية ساهون ويجب أن نتقدم في التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ونقبض على أزمة أمورنا ونحفظ عرشه المصرى بالمصريين ولكننا على نظره المال صمون يتألم من ضياع المصرى والاستخفاف به وتركه في ذوايا الإهمال أكثر من تألم المبعدين ولو أحسننا بما عنده من الآلام لبئنا لمضاجتنا جالفين إن أوروبا تنظرنا من بعيد ترى أحوالنا وما تقلب فيه من الأحوال وما تهدينا إليه إنكارة عما تؤيد به التديوى الأنظم كنفورها التداخل ونحن عن هذا كله لا هون . كفوا أيها المصريون عن القيل والقال ، فقد صيرتنا الأمم بأننا نقول ولا نفعل وأظهروا بين يدي إنكارة برجال يسرها تجمعهم حول أميرهم الذى جاءت تؤيده ، واطلبوا منه حقوقكم المقدمة واشكروا إنكارة على ما أوصلتكم إليه من الحرية التى تركتكم تظاهرون تظاهراً أديباً طلباً للحقوق وسعيّاً خلف الحقائق والامتيازات الوطنية ، فإن كل إنكليزى يراكم في هذا التقاعد وهو يدأب في عمله القيل والنهار يقول لو كنتم مثلاً لفعلتم فعلنا انتهى المقال .

تحليل المقال :

يمكن أن تلخص الملاحظات على هذا المقال فيما يلى :

أولاً : شغلت المقدمة نحواً من ثلاثين سطراً أو تزيد ، وهو قدر بسيط ومعقول بالنسبة لطول المقال نفسه ، وفي المقدمة شرح ذكر لهذه الكلمة التى جعلها عنوان المقال . لو كنتم مثلاً لفعلتم فعلنا) ، ثم شرح السبب الأول من أسباب ذلك .

وهو نشاط الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية المنسوبة إلى الأوروبيين واقتدار هذه الجمعيات في ربوع الشرق .

ثانياً . يبدأ الجزء الأول من صلب المقال بالرد على التهمة الأولى من تهم أوروبا ضد الشرق ، وهي (تهمة التوحش) أو (التأخر) ودعواهم أن الشرقيين عاجزون عن السير في مضمار الصناعة والعلم ، ويرد الكاتب على ذلك بأن الأوروبيين هم الذين أرادوا ذلك للشرق حتى يصبح مصرفاً لبضائعهم .

ثالثاً : يبدأ الجزء الثاني من صلب المقال بالرد على التهمة الثانية ، وهي أن أخلاق الشرق وعقيدته هما من أسباب تأخره . ومع ذلك فقد انفتح الشرقيون بقولهم هذا ، فارتكبوا كثيراً من المحرمات تقليد منهم للأوروبيين لا أكثر ولا أقل . . .

وفي هذا يقول النديم :

وبذلك أصبح المتلبسون بهذه القبايح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين
وص ١٩٠ ، « وانظروا أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من
الشرق الخ » .

رابعاً : يبدأ الجزء الثالث من صلب المقال بالرد على التهمة الثالثة وهي (أن الشرق في حاجة ماسة إلى تدخل الغرب) وهي حجة تدرج بها الغرب لاستعمار الشرق ويوضح كيف أن ملوك الشرق أنفسهم خوفوا الناس من الورد والبادون والكورن الخ ، ولم يحاولوا ترقية الأمة وتربيتها على الحية والدفاع عن حقوق البلاد ولم يمددوها بالجمرايد النافعة أو المرشدة في هذا السبيل وأخذ النديم يوازن في هذه الفقرة بين جسارة الأوروبي وتحريره المصاحبة الذاتية له وبلاده من جهة ، وبين الشرق وتخوفه من الخطر الأوروبي من جهة ثانية .

خامساً . وفي الجزء الرابع من صلب المقال ينتقل الكاتب إلى الدفاع عن الدولة العثمانية فيقول « لو كانت هذه الدولة مسيحية ل بقيت بقاء النصر الخ آخر ص ١٩٢ ، ولكن المغايرة الدينية دعت إلى إخراج كثير من الممالك التابعة لها عن طاعتها . مع أن الدولة العثمانية لا تألوا جهداً عن العمل على رخاء هذه

المالك ومد السكك الحديدية . وهنا يلوم الكاتب الدولة المثانية على إعطاء السكك الحديدية التزاماً للأوروبيين الذين وجدوا في ذلك الالتزام طريقة من طرق التدخل في أمم الشرق ١١١

سادساً : عاد النديم فنصح أساليب الأوروبيين في الاستيلاء على الشرق بدعوى الإصلاح مرة ونشر المدنية مرة أخرى ، كما فعلت فرنسا بتونس والمجرات وسياستها فيهما معروفة . وكما فعلت كل من روسيا وإنجلترا .

سابعاً : وحين وصل النديم إلى إنكارة أخذ يفضح أعمالها في مصر وذلك في شتى المجالات المختلفة . كجمال حرية الصحافة وكيف أغلقت من هذه الظاهرة أداة للتعاين بين الصحف ، وهي أي إنكارة تقف كلتنفرجة وكجمال الإدارة الحكومية فقد تظاهر الإنجليز بالكف عن التدخل منها حتى أمنوا الاعتراض ، فتدخلت بشكل ظاهر ، ورضى من المصريين أنفسهم حكاية العن) ص ١٩٧ .

وبعد أن أتى النديم على القارىء أسئلة استنكارية كثيرة تمحل بقرينات البناء والتعليم والربا وغير ذلك قال عن الإنكليز : لا واثق ما قالوا أملا ، ولا قارقوا عملا ، ولا أدلوا رجلا . ولاخروا بيتا ، ولاهتكوا حرمة ، إلا بالمصريين ص ١٩٨

ثامناً : وفي الفقرة التي تلت ذلك أخذ يصبب الووم على المصريين لاعلى الإنجليز . والمضريون أولى بأن يلاموا في نظره لأسباب كثيرة :

أولاً : لأن أمراءهم غارقون في الهوى والترف .

ثانياً : لأن عقلامهم متنرعون بالصمت .

ثالثاً : لأن نبياهم أو المثقفين منهم لا يترشحون للدين ولا السياسة .

ثم قال :

« فإن بقي الأمراء في البيوت والنيهاء في المحافل على ما هم عليه ، والعقلاء صامتين ، فلا يجوز لنا أن نعترض على رابرة إفرقية فعنلا عن الإنكليز ص ١٩٩ إذا جاموا وأخرجونا من مساكننا وأبعثونا عن عائلتنا النخ » .

تاسما : يأتي بعد ذلك فقرة كالحاجة وليست بحاجة وفيها يدعو المصريين إلى الانضمام إلى رأى الخديوى عباس في أعماله الإصلاحية والمطالبة بالحقوق الوطنية، والتقدم في التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ، والإدارة وهكذا طلق النديم يستنهض الهمم حتى ختم كلمته بقوله « لو كنتم مثنا لفعلمتم فعلنا » وهى الجملة التى تعود أن يحتم بها كل فقرة من الفقرات التى تألف منها المقال .

عاشراً : ويلاحظ أن النديم كان فى الجزء الأخير من هذه المقالة يضم الإنجليز إلى جناب الخديوى فى الدعوة إلى الإصلاح والمطالبة بالحقوق والعمل على تقدم التجارة والصناعة والزراعة وقد يدل ذلك على أن المقال إنما كتب فى عهد من جهود الوفاق بين السلطين الشرعية والفعلية فليرجع إلى هذا المقال بمريدة الأستاذ للتحقق من تاريخ صدوره بالجريدة .

حادى عشر : والمقال يسرف فى الطول حتى أنه ليلاً عدداً كاملاً من أعداد جريدة الأستاذ (١) ويذكرنا ذلك بما فعلته المقالة الصحفية فى إنجلترا فى بعض أطوارها يوم كانت الحكومة تفرض الضرائب على الاختبار ولا تفرضها على المقالات الخ .

ثانى عشر : اعتمد الكاتب فيها على الإسهاب وطول النفس فى العبارة حتى أن الجملة الواحدة تستغرق أكثر من إثني عشر سطرأ . اقرأ قوله (فدخلوا الأقطار القرية . . بعد ظهورها للبيان — ص ١٨٨) .

ثالث عشر : توخى النديم فى كثير من مواضع المقال أن تنتهى كل فقرة من فقراته كما قلنا بالعبارة التى صاغ فيها العنوان (لو كنتم مثنا لفعلمتم فعلنا) . وهذا يذكرنا بالطريقة التى اتبناها خطباء الرومان حين كانوا يتشرون مثل ذلك فى خطبهم .

(١) هذا الذى نمرته من كلام النديم إنما هو نصف المقال الذى نمره بمريدة الأستاذ فيلاحظ ذلك . ومما أن المقالة الأصلية تبلغ نحواً من ثلاثين صفحة من صفحات هذا الكتاب وهو قدر أحبه بفضل من فضول كتاب لا مقال أو عمود فى حصة من الصفح بها كان لوها .

رابع عشر : لغة المقال قريبة في مجموعها من لغة الحديث الراقى أى من لغة الصحافة . والتدعيم بمثل هذا المقال يعتبر في منزلة بين منزلتين : الأولى منزلة أديب إسحق وإبراهيم المويلحى وأمثالهما ممن كانوا يسعون وراء التأنق في الأسلوب الأدبى حتى بلغوا به الذروة ، والثانية منزلة على يوسف ولطفى السيد ممن كانوا يكتبون بلغة الصحافة لا لغة الأدب الصرف . وكان التدعيم كان في الحقيقة لإرهاصاً حقيقياً لظهور المدرسة الثالثة من مدارس المقال الصحفى في مصر .

خامس عشر : في المقال بعض ألفاظ من ألفاظ البيئة الإسكندرية البحتة مثل لفظ د بير ، جمع بيرة ، ويطلق على الأماكن التي تتبع هذا النوع .

ولكن هاهو محرر (الأستاذ) تنظره ظروف صحية ، أو على الأصح سياسية ، إلى مقادة مصر ، وإلى مفارقة الصحيفة التي أدلى فيها بدلائله ، وكانت خير معرض لأفكاره وآرائه . وفي الثالث من شهر يونيو سنة ١٨٩٣ ودع قرأه في كلمة له بعنوان (تحية وسلام) شكر فيها لقراء حسن عنايتهم به وإقبالهم عليه (١) .

وذكر لم أنه صيد لطائفة من التهم التي وجهت إليه ، ومنها التمسب الدينى ، وأنه نصح لأعمال الأوربيين ، وأنه محرر ثورى ، وهو يشكر الصحف التي دافعت عنه ضد هذه التهم كجريدة المؤيد والأهرام والوطن وبعض الصحف الأجنبية في مصر وفي أوروبا ولا ينس في هذا المقال أن يقدم الثناء عاطراً للتدويرى عباس فهو الذى أصدر عفوه عنه ومنحه الحياة في مصر ، فكان لإماماً على (الأستاذ) أن تخلصه وتدافع عنه ، ثم هو يشكر قنصل فرنسا والروسيا ، ويشكر جميع المصريين الذين تأثرت نفوسهم وأشفقوا على الجريدة من الغيبة ثم قال :

(١) من أجل ذلك تمكن المهر من توزيع ٢٨٤ نسخة من كل صفحة .

وكنيت أود لو دامت لي صحتي فأقوم على خدمتي ، ولكنني أصبت بضعف
فيها وأشار عليّ جمع من الأطباء بتغيير الهواء خارج القطر المصري ، حتى يقوى
ضعفكم ويشفي مريضكم فيعود لخدمة وطنه وأهله وهكذا اختفى الأستاذ بعد أن
اقتنى القراء منه مجلداً فيه ألف وثلاثمائة صحيفة ، وودع التذمير قراءه بقوله في نهاية
الكلمة السابقة :

| | |
|------------------------------|---------------------------|
| أودعكم والله يعلم أنني | أحب لقاءكم والحسود إليكمو |
| وما عن قلبي كان الرحيل وإنما | وداع تبدي والسلام عليكمو |

الفصل الثاني عشر

الخصائص العامة للأسلوب الصحفي عند النديم

فرغنا من عرض نماذج قليلة من أسلوب النديم ، وأن لنا أن نلخص السمات العامة لهذا الأسلوب موجزين في ذلك بقدر ما نستطيع .

ولست أدري لماذا أريد أن أتجمل القارىء وأصله بالرأى العام الذى تكون لى من قراءة الآثار الصحفية لهذا الأديب الشعبي الكبير . وخلاصة هذا الرأى هو أن محرر التنكيث ، والتبكيث ، والطائف ، وجملة الأستاذ كل رجل خالياً قبل كل شيء ، وأنه لم يستطع أن يتخلص قط من آثار الخطابة فى أسلوبه الصحفي الخالص .

ولا غرابة فى ذلك فن الأدباء من غلبت عليه صفة التدريس لجأت كتاباته كلها على شكل دروس أو محاضرات ، وتهتم من غلبت عليه المحاماة لجأت كتاباته لتحمل هذا الطابع ، وهكذا . وليس من السهل على النفس أن تتخلص من هذه السمات .

فلذا قلنا أن الطابع العام لأسلوب النديم هو الخطابة لم يكن ذلك طعناً فيه ولا قصاً عنده ولا قصيراً فى العناية به .

من أجل هذا كان الفرق كبيراً جداً بين النديم الأديب والنديم الصحفي . أما النديم الأديب . فهو ذلك الرجل المفتون بالسجع والبديع إلى درجة ربما تفوق فيها على بعض القدماء . وقد كانت قننته بالبديع مقرونة بالأبام الأولى من شجابه حين كان يكتب الرسائل الإخوانية أو الأدبية على اختلافها . ولعلك تذكر أياًها القارىء . مقاله بعنوان (نار العدو ونار العدو) وكيف كانت هذه الرسالة غريبة (م ١٣ - أدب للعامة ج ٢)

في بابها ، وكيف شق الكاتب فيها على نفسه إلى الدرجة التي أعادت إلى الأذهان ما كان يقمه بعض كتاب النثر العربي في القرن الرابع الهجري .

ومهما يكن من شيء فقد كان الكاتب في هذه المرحلة الأولى من حياته الكتابية متأثراً أشد التأثر بأسلوب المقامة العربية ، وللقامة العربية فضل كبير في الواقع على كثيرين من الأدباء منذ ظهور هذا اللون الجديد من النثر في الأدب العربي . ومن الباحثين من يذهب إلى أن هذا الغرض - وهو تعلم اللغة العربية للناشئين - كان من أجل أغراض المقامة وقت ظهورها ما لم يكن الغرض الأول والوحيد لها .

وأما التديم الصحفي فهو رجل الخطابة في عصره غير مدافع . وفي هذه المرحلة الثانية والأخيرة من حياته كانت الخطابة صفة له وسمة يعرف بها في الشعب المصري .

والخطابة نفسها نوعان مسجوع ومرسل ، ولا ريب أن الصحافة لا يناسبها إلا المرسل . ومن ثم كان التديم يرسل الكلام لإرسالاً كأنه الحديث العادي . ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نجد الخطابة تتضح على أسلوب هذا الحرر ببعض خصائصها ومنها كثرة النداء في الكلام ، ومنها تكرار عبارة معينة قصد التثبيت في ذهن السامع أو القارئ . وليلم بها القارئ أنها من هذا الحديث أو ذاك (بيت القصيد) . ألا ترى أنه بسبب ذلك كان التديم حريصاً على أن يحتم مقاله بنفس العبارة التي اتخذها عنواناً لهذا المقال ؟

وأكثر من ذلك - وأيت أنه كان يكرر عبارة العنوان ويجعلها نهاية لكل فقرة من فقرات المقال - كما فعل بالكلمة التي قلنا جزءاً كبيراً منها لتكون نموذجاً من أسلوب التديم وهي الكلمة التي عنوانها « لو كنتم مثناً لفضلتم فعلنا » .

وربما كان من سمات الخطابة أو الحديث العادي في أسلوب التديم القسم في التمييز كما في قوله :

« والمهد وذمته والشرف وحرمة إن قلبي في خدمته لمن الصادقين ولساني في

أخباره لمن التامحين فاشدتك الحق يا شقيق الإنسانية إلا ما تأنيت على عادم
أفسارك حتى يفرغ من حديثه ... الخ (١) .

وأظن القارئ.. كذلك لم تفته ملاحظة أخرى ، وهي أن المحرر يوجه الكلام
للقارئ.. بلغة المخاطب ، وتلك خاصة من خصائص لغة الحديث أو المحاضرة أو
المخاطبة ، كثيرة الظهور في أساليب المعلمين ومن إليهم من الخطباء والوعاظ
والمصلحين .

فذلك إذن هو اللون العام لأسلوب التديم أو القالب الذي يصب فيه كلامه
في الصحف . نعم كان أديب إسماعيل يميل كذلك إلى الأسلوب المخاطبي ، ولكنه
على كل حال لا ينبغي أن يقارن بالسيد عبد الله التديم في ذلك مجال ما . كما
لا ينبغي أن يقارن به التديم في القيم الموسيقية التي وفرها أديب إسماعيل لعبارة
في الصحف .

من أجل هذا كان التديم في مقالاته الصحفية أقل حرصاً حتى على الزواج في
الكلام من أديب إسماعيل ، لماذا ؟ لأنه كان يرسل كلامه إرسالاً لا تكلف فيه إلا
حين يقصد قصداً إلى هذا التكلف ، وذلك حين يتاح له بعض الفراغ لهذا التكلف
أو حين تمن نفسه ويهفو قلبه إلى شيء منه .

بل من أجل هذا كان التديم في مقالاته الصحفية أقل ضاية بالبدع أو احتفاء
بالوئدة اللفظية والمنوية ، وبالصور البيانية ، والآيات الشعرية أو التسلق على
كلام الغير ، من أديب إسماعيل .

وليس معنى هذا أن التديم لا يحسن تكلف البدع في حين أن أديب إسماعيل
يحسنه ، بل معنى ذلك أن التديم أميل في صحافته إلى الحديث البليغ أو السليم الذي
يستطيع أن يقطع معك أطول وقت ممكن دون أن تمل أو تفهم بالسأم . ومن
هنا طالت فصول التديم في صحفه أحياناً إلى درجة قد لا يبلغها فصل من كتاب .
وقد تكررت حدوث ذلك من التديم بأكثر مما تكررت حدوثه من أديب إسماعيل .

(١) هكذا ابتدأ مقالا له بعنوان جرائد الأخبار مدارس الأفسكار من ١٠٠٠ ج ٢ سلافة التديم

ثم من أجل هذا كان النديم أقرب إلى نفوس الشعب نفسه من أديب إسحق ومن سواه . وساعد على ذلك أن النديم كان كما رأينا أقل ثقافة من أديب إسحق ، أو على الأصح أقل تنوعاً في ثقافته من أديب إسحق ، وهذا ما جعل الأول وهو النديم صحنى الشعب كله لا يستغنى عن قراءته رجل ولا امرأة ، بل إن النساء في مصر رجونه أن يمررن لمن بحجة عامة بهن من دون الرجال وقلن له إنك وحدك القادر على ذلك ولم يحدث أن طلب النساء من أديب إسحق شيئاً من ذلك شعوراً منه بأن ثقته أعلى من مداركهن وأرفع من مستواهن في ذلك الوقت .

وأخيراً من أجل هذا كان النديم أقرب إلى نفوس الفاضلين بالشورى العراقية وأقدر على التعبير عن رغباتهم وآمالهم حتى حقق لهم النديم كل ذلك وأكثر منه . في حين أن أديب إسحق كان في تلك الآونة من دعاة الاعتدال ، أو قل لم يكن راضياً عن الشورى والثوار بحال من الأحوال

ومع هذا وذلك فالتارىء لا يعدم أن يقع من حين لآخر في أسلوب النديم على استعارة وائمة أو تشبيه جميل أو كناية لطيفة ، كما في قوله يكفى عن القلب ، ويقلد أسلوب المقامة في الرواية : « روى الواله الولوح عن الساكن بين الصلوح الخ » (١) .

نعم كان النديم يمن حينئذ إلى البديع وذلك في أثناء اشتغاله بمجربة الأستاذ إلى درجة أنه كتب مقالا صحفياً واحداً في هذه المجربة كله بجمع ، ردّ فيها على خصومه وحساده . بل كان فيه إلى الشعر أقرب منه إلى النثر وبدأ المقال بهذين البيتين من الشعر :

ولو أنى بليت بهاشمي خولته بنو عبد المدان
لما ن على ما ألقى ولكن نعالوا فانظروا بمن ابتلاني

والمنطوق أن النديم في هذه المقالة جعلها لوصولا كثيرة يختص كل فصل منها بموضوع مستقل فوجه الخطاب في الفصل الأول إلى أعدائه . ثم تفرق من ذلك إلى الحديث . عن أعداء الله والأنبياء ، ثم الحديث عن أعداء السلطان الأعظم

ثم الحديث عن أعداء الحضرة الخديوية ، ثم الحديث عن أعداء مصر وحكامها ، ثم الحديث عن أعداء المصريين ، ثم الحديث عن أعداء السوريين ، ثم الحديث عن أعداء إنجلترا وفرنسا ، ثم الحديث عن أعداء الصدق ، و انتهى من ذلك كله إلى فصل من المقال عنوانه قائل الله الأعداء (١) .

(والخلاصة) في أسلوب التديم أن القارئ له في جميع مراحل حياته يلمح فيه ثلاث شخصيات .

الأولى : شخصية الأديب المفتون بالبديع ، وذلك فيما دمج من رسائل وكتب لاصلة لها بالصحافة .

الثانية : شخصية الصحفي المفتون بالكلام المرسل لا يتكلف فيه سجماً ، وقلماً يقصد منه الأنواع البديعية التي لا تتفق والصحافة .

الثالثة : شخصية الأديب الشعبي الذي يكتب باللغة العامية ويستطيع أن ينفذ على أسلوبه في هذه الحالة ما يسميه الأدباء - « بالقول المحلى » ، بالعبارة . والذي ينفذ من هذه الشخصيات الثلاث إنما هو شخصيته الثانية ، وهي شخصية الصحفي الذي يكتب باللغة العربية الفصيحة . وهنا تلمح في أسلوب التديم طائفة من الخصائص منها .

أولاً - شغفه بالاستطراد على طريقة الملاحظ وقد كان الاستطراد عند الملاحظ وسيلة من وسائل التفريق وإبعاد السأم عن القارئ . وهو كذلك عند التديم . ومن ثم كان خفيف الظل كاتباً . وخفيف الظل خطيباً أو محاضراً . ويبقى الناس في زمانه مفتونين به وبأسلوبه حتى مات .

ثانياً - ميله إلى المقابلة والطباق لا أقول بين الألفاظ ، بل أقول بين المعاني ذاتها ، وأكثر ما يكون ذلك عندما يكتب التديم عن الشرق وأحواله ، وبوازن ينفذ وبين الغرب وتقدمه ، أو حين يكتب عن المسلمين ويوازن بينهم وبين المبشرين المسيحيين ونحو ذلك .

(١) لعل السبب في اتباع هذه الطريقة السببية شعور التديم بأنه يتحدث عن شيء وأن الصحافة ليست كالأدب في هذه الناحية البحتة . فتناول بالمقال من موضوع ذاتي إلى آخر غيبي على هذا النحو .

ثانياً - إشارته الإسهاب والإطناب على طريقة الجاحظ أيضاً. وقد لاحظنا أن التديم كان ذا نفس طویل في الخطابة والكتابة ، وكان يؤدي المعنى الواحد بمبارات كثيرة في الفقرة الواحدة ، و فقرات كثيرة في الموضوع الواحد ، وما نظن أن كاتباً استطاع مجازاة التديم في ذلك القرن الماضي ، ولا أن خطيباً . تدفق في عبارته كما تدفق هذا الرجل .

رابحاً - أما ألفاظ التديم فكانت عتارة ، وأما مادته الغوية ، فكانت غورية ، ولا غرابة في هذا فقد كان التديم يعرف من بحر وكان غيره من الكتاب يتحون من بحر ، وإن غلب عليك العمور بأن كتابة الجميع كانت أشبه شيء بهاء البلبل برداً وصفاء وحلاوة وذائق .

(وبعد) فهؤلاء ثلاثة كانوا رواد النهضة الأدبية الصحفية في مصر في القرن الماضي وهم الشيخ محمد عبده ، وأديب إسحق . والسيد عبد الله التديم ، وإذا جاز لنا أن نفاضل بينهم . أو نرتبهم على حسب إجادتهم الفنية فإننا نقول - ولا نلزم أحداً بما نقول - إن أولهم وأجودهم وأقربهم إلى الفن الأدبي لا الصحفي بالمعنى الصحيح إنما هو أديب إسحق ، ثم يليه الأستاذ الإمام ، ثم يليه السيد عبده أقال التديم . وأديب إسحق أول الثلاثة بمواجه الفن ، وثقافته المنوعة ، وطريقته التي تنادي على نفسها بأنها طريقة أديب .

والأستاذ الإمام واسطة هذا المقدرته على التعبير ، وبمحاسنه في النقد ، بطريقة تنادي على نفسها بأنها طريقة المعلم الديني والاجتماعي .

والسيد عبد الله التديم واحد من هذه الحلبة ، ولكن جواده لا يتقدم جوادهي صاحبيه لأنه لم يجهد نفسه كثيراً في كتابة المقالات الصحفية إلا بمقدار ما يجهد الخطيب أو المحاضر نفسه في ترتيب قطع الحديث ، وفي تنظيم الأدلة والحجج ، وفي الضبط على عبارات من نوع خاص ليتأكد من ثبوتها في أذهان الجمهور . من أجل ذلك كله لم يصدر عبد الله التديم في كثير من مقالاته عن ثقافة متنوعة أو دراسة متسقة اللهم إلا في موطنين .

أولهما : موطن الدين وما يتصل به من البحث في الطرق والتصرف .

وثانيهما : التربية والتعليم وقد كان في هذه الأخيرة يستوحى تجاربه الخاصة ويفسح المجال لأمثال على باشا مبارك ، ليحدثوا الفقراء عن هذه الأمور حديثاً علياً في صحيفة الأستاذ ونحوها .

غير أن هناك احتياطاً لابد من ذكره هنا قبل أن نفرغ من الحكم على التديم أوله . وهذا الاحتياط هنا ذو شقين .

أولهما : الحديث عن الموهبة الأدبية التي اختص الله بها كل واحد من هؤلاء الثلاثة على حدة . وهنا لا نحتاج إلى عناء كبير في البرهنة على أن الموهبة الأدبية عند التديم كانت أعظم منها عند الأستاذ الإمام ، بل أنها لم تكن تقل عن موهبة إسحق نفسه .

وثانيهما : الحديث عن الأسلوب الشعبي عند التديم ، فإذا كان الأسلوب نوعين . أرستقراطي وشعبي فمن اليسر أن نلاحظ أولاً أن التديم هذين النوعين معاً ، في حين أن صاحبه لم يكن لكل منهما إلا نوع واحد فقط . والذي له موهبتان أكبر درجة من صاحب الموهبة الواحدة ، ولهذا الاعتبار الأخير ، ولاعتبارات أخرى سابقة تقدم التديم على أديب إسحق في ميدان الصحافة ، كما قدمنا هذا الأخير على التديم في ميدان الأدب .

ونحن إنما وازنا بين الثلاثة فيما اشتركوا فيه جميعاً ، وهو النوع الأرستقراطي فربما هم على النحو المتقدم ، ثم لم يمنحنا ذلك من أن نعطي للتديم حقه من التقدم الذي له على صاحبه .

وبعد : فقد كان التديم أقل خطأ في ثقافته ، كذلك من هذين الصاحبين ، ولكننا نحبب كيف استطاع التديم أن يبسط هذا القدر القليل من الثقافة على أكبر عدد ممكن من الشعب المصري ، ومن الشعوب التي كانت يمنة أن قرأ ما ينتجه العقل المصري أو القلم المصري ، وهذه القدرة على التبسط إنما يمتاز بها كذلك التديم وترفعه من هذه الناحية درجة أخرى على كل من الأستاذ الإمام محمد عبده والأديب البارح أديب إسحق .

ذلك إذن فصل الخطاب في ثلاثة من الكتاب لا شك أنهم كانوا زعماء القرن الماضي في مصر من حيث الصحافة ومن حيث الكتابة ، نرجو أن نكون فيه قد وقفنا إلى الحق ، واجتنبنا الحيف أو التزبد في القول .

الخاتمة

في الطابع العام للمقالة الصحفية

هند تلاميذ المدرسة الثانية في مصر

يذكر القارئ أننا أشرنا في ختام الجزء الأول من كتابنا هذا إلى المقصود من كلمة (المقالة الصحفية) ، عند إطلاقها ، ويذكر القارئ أننا قد انتهينا من ذلك إلى أن المقالة الصحفية لا يمكن أن تكون موضوعاً إنشائياً ، ولا مقاماً من المقامات المعروفة في الأدب العربي ، ولا قصة ولا حكاية . وليست المقالة الصحفية فصلاً من فصول كتاب أدبي أو علمي ، ولا محاضرة من المحاضرات العلمية ، أو الأدبية ، ولا ضرباً من هذه الأضراب الأدبية المعروفة . إنما المقالة الصحفية عبارة عن فكرة تتلقاها السكائب من البيئة المحيطة به ، وتأثر بها ، ثم عبر عن ذلك بطريقة حظها من النظام قليل ، وحاجتها إلى الترتيب والتحصيل والتدقيق والبحث العميق أقل . فإذ المقالة حديث بوشك أن يكون عادياً . يعرضه السكائب على قرائه كما يعرض الموضوع من الموضوعات التي يزجى بها وقت الفراغ ، مع بعض جملاته ، فيحسب المحرر الصحفي أن يتحدث إلى قرائه في الأمور الخاصة والعامة حديثاً فيه سخرية حيناً ، وفيه تفكير غير عميق حيناً ، وفيه استطراد حيناً ، وفيه مراعاة لمزاج القارئ آخر الأمر .

وليس معنى هذا أن المقال الصحفي يجب ألا يكون له حظ من نظام أو ترتيب أو تعمق في التفكير ، ولكن معنى ذلك أن النظام والترتيب والتعمق في التفكير ليس شرطاً في الأدب الصحفي ، فإن توافر فيه فمن غير قصد من الكاتب ، وعن غير إلحاح على القارئ . وعن غير رغبة في أن يتجشم هذا القارئ مشقة التفكير وعناء البحث .

من أجل ذلك خطأ البحث الحديث رجال المدرسة القديمة الذين ظنوا أن المقالة الصحفية قطعة أدبية يجب أن يكون لها مقدمة ، وموضوع وعامة ، كما يجب

أن تبني على عمق الفكرة وحدة الساطفة . ذلك أن الصحافة أدب غير خالد ، لأن الأدب إنما يستمد خلوده من أشياء لها بالنفس الإنسانية أوثق صلة وأقوى رابطة . أما المقال الصحفي ففضلا عن أنه وليد الساعة التي يكتب فيها ، والظرف الذي أنشئ فيه ، في فرغ القارىء من قراءته لم يصر بحاجة إلى العودة إليه ، وفي ذلك فصلنا القول في نهاية الجزء الأول من كتابنا هذا ، فليست بنا حاجة إلى إعادته .

ولكن لمن أراد التعمق في هذا الموضوع إلى أبعد من هذا الحد أن يراجع الفصل الثاني من كتابنا (مستقبل الصحافة في مصر) وعنوان الفصل : لغة الأدب ولغة الصحافة .

فهل حققت المدرسة الصحفية الثانية في مصر شيئا من ذلك ؟ وهل يحق لنا أن ننظر إلى كتابها على أنهم صحفيون بهذا المعنى ؟ قد أشرنا في مقدمة (الجزء الأول من هذا الكتاب) إلى أن الصحافة الشعبية بالمعنى الصحيح إنما تقتزن بمهد إسماعيل ، لأن الصحافة قبل هذا كانت وفقا على محمد علي وحكما له ، أو كانت آفة في يده يحركها كيف يشاء ، فلم تحرر الصحف في صده شيئا من النقد ، ولم تملك من الحرية ما يجعلها تذكر رأيها بصراحة في أى أمر من الأمور التي تتصل بسياسة الوالى الداخلية أو الخارجية ، ومضى عهد محمد علي . وتلاه عهد عباس ثم سعيد ، فلم تظفر الصحافة منهما ببناءية تذكر . حتى إذا ولي عرش مصر إسماعيل ، ووقعت البلاد تحت ضغط التدخل الأجنبي البغيض ، لم ير الخديوى بدأ من الاستعانة بالصحف التي كانت (كما قلت) سلاحا ذا حدين ، فمن الصحف ما كان يؤيد سياسة إسماعيل ، وكان هذا يأجر بعضها على ذلك ؛ ومن الصحف ما كان يتصدى لعتد إسماعيل قعدا وصل إلى حد التجريح ، كما وجدنا ذلك في بعض صحف التديم .

وتخلص من هذا إلى القول صراحة بأن المدرسة الصحفية الأولى لم تتح لأفرادها الفرصة للتعبير عن آرائهم في حرية وجملاء ، فلامفر لنا من النظر إلى تلاميذ المدرسة الأولى على أنهم ناشتو في حرقة الصحافة ، وعلى أنهم كانوا يشغلون أنفسهم بشئ غير الصحافة ، وهو نشر الثقافة في البلاد ، عن طريق التأليف والترجمة .

ومن أجل ذلك جاءت صحافة المدرسة الأولى فصولا من كتب مؤلفة ، كانت تنشر تباعا في جريدة الوقائع حيناً ، وروضة المدارس ونحوها حيناً آخر . ومن ثم لم يظفر الباحث في نتائج المدرسة الأولى بمقال صحفي بالمعنى المراد من هذه الكلمة عند إطلاقها ، ثم إنه لم يكن الصحافة نفسها موضوع هام على يد تلك المدرسة الأولى ، ولا كُن لها أسلوب يصح أن ينظر إليه على أنه صحفي بالمعنى الذى أشرنا إليه في بداية هذه الكلمة فإذا تركنا المدرسة الأولى إلى الثانية ، قم نجد موضوعا الصحافة ، و ثم نجد فكرة تصدر عنها ، و ثم نجد أسلوباً يختص به كل واحد من أفرادها ، و ثم نجد طابعا عاما تمتاز به هذه المدرسة عن سابقتها ؛ وباختصار نجد عناصر كاملة تؤلف لنا منهجاً جديداً من مذاهب الصحافة ، وتجعلنا أمام طائفة من الصحفيين يستحقون احترامنا وتقديرنا ، لا لمجهود ثقافى كالذى بذله رجال المدرسة الأولى من لدن رقاعة الطباطبائى وأمثاله ، ولكن لمجهود صحفى بحث بذله رجال هذه المدرسة الثانية . حين ارتفعوا بالصحافة المصرية إلى الحد الذى أصبحت فيه منافسة الصحف الأجنبية في ذلك الوقت .



على أننا ننظر إلى العالِم العام لهذه المدرسة الصحفية الثانية ، فرى أن المقال الصحفى خصائص وميزات آن لنا أن نذكرها في هذه الخاتمة .

الخاصة الأولى : غلبة الأسلوب الخطابى على مقالات هذه المدرسة ، وأكثر ماكن ذلك في مقالات التنديم ، ولقارنى . أن يستعرض النماذج التى عرضناها من كلامه ، فسيجد فيها ميلا شديداً إلى اصطلاح الأسلوب الخطابى . وسيجد في حياة التنديم أصول هذا الميل .

والخاصة الثانية : أن المقالة الصحفية عند رجال هذه الخلية أخذت كآرائنا — شكل الدرس ، وجاءت أكثر المقالات على شكل المحاضرة . ووضح ذلك في مقالات الشيخ محمد عبده ، ولقارنى . أن يستعرض لذلك حياة هذا الرجل كما عرضنا لها في هذا الكتاب ، فيرى منها ومن تحليل نفسيته ، دوافع ميته إلى التدريس ، وحسن استعداده له ، ولقد بدأ الشيخ يكسب المقالات الأولى في

الأهرام وجريدة مصر ، لجاءت هذه المقالات على شكل ملخصات للدروس التي كان يلقيها أسناده السيد جمال الدين الأفغاني ثم تصدى الشيخ محمد عبده للإصلاحين الديني والاجتماعي ، وكُتب كثيراً في هذا الموضوع ، ولم تكن مقالاته في هذا الميدان أكثر من دروس منظمة ذات هدف معين ، ولا يكاد يخرج عن هذه الخاصة من كتاب هذه الحلية غير أديب اسحق الذي غلبت على نفسه طبيعة الأديب ، كما غلبت على نفس التديم طبيعة الخطيب ، وغلبت على نفس محمد عبده طبيعة المعلم ، ومن قبل غلبت على نفس الطهطاوي وتلاميذه طبيعة الترجمة ، إن صح أن تكون الترجمة طبيعة هذا الحق .

الخاصة الثالثة : شيوع الجد إلى حد الصرامة والحزن ، فقد أحاطت بمصر في القرن الماضي ظروف عصيبة ، دعت المصريين إلى ترك اللهو واللعب ، روح طالع الحك والسمر جانباً ، وانقبه معنى كالنديم على وجه التمثيل لوجود مدينة الإسكندرية غارقة في جهدها ، تاركة طوعها وأسماءها وأحاديثها الفارضة ، غاض ليا عاض فيه القوم ، ومنذ اشتغل بالصحافة لم يفارقه طابع الجد أو الحزن ، اللهم إلا في مقالاته التي كتبها في مجلة التنسيك والتبكيك ، وفي اسم هذه المجلة الأخيرة ما يدل على نوع الضحك الذي كان يضحك الكتاب وزعماء الإصلاح في مصر في ذلك الحين ، والحق أننا لا نكاد نستقي من نتائج هذه المدرسة غير ما كتبه الصحفي الإسرائيلي المعروف باسم يعقوب بن صنوح .

الخاصة الرابعة : شيوع السخرية في مقالات هذه المدرسة ، وإن جاءت هذه السخرية مزوجة دائماً بالحزن الذي أشرت إليه في الخاصة السابقة ، ومن أجل ذلك قلما انفردت شفاء الكتاب في القرن الماضي عن ابتسامه ما في مقالاتهم الجديدة لا المزلية ، اللهم إلا في قرات قليلة ، كالتى دأبناها عند التديم ولم نجد لها نظيراً عند صاحبيه . على أن سخرية التديم وصلت إلى حد التهكم المرير ، في مقالاته التي كتبها في نقد إسماعيل ، وقريباً من هذه الدرجة من التهكم وصلت مقالات أديب إسحق في نقد المجالس التباينية في مصر ، أما الأستاذ الإمام فكانت سخريته هادئة كل الهدوء ، خالية في الوقت نفسه من الضحك خلواً تماماً .

الخاصة الخامسة : شيوخ الانفعالات في مقالات المدرسة الصحفية الثانية أكثر من شيوخها في مقالات المدرسة السابقة لها . والحق أن ميزان الحساسة يرتفع كثيراً عند أدیب إسحق ومحمد عبده وعبد الله النديم ، وأن ثلاثتهم كانوا يكتبون بأفهام شديدة ، هو في الواقع أشد ما ينبغي للكاتب الصحفي ، فقد قلنا أن الفرق كبير من هذه الناحية بين الصحفي والشاعر ، والأديب والخطيب .

تلك أم الخصائص التي تتصل بالفكرة أو الموضوع . أما ما كان منها يتصل اتصالاً مباشراً بالأسلوب ، فأمه ما يأتي :

الخاصة الأولى : تخلص المدرسة الصحفية الثانية إلى حد كبير من السجع والجناس وغيرهما من الألوان البدئية التي قن بها أكثر تلاميذ المدرسة السابقة لها وكانوا في قناتهم تلك يتأثرون كل التأثر بالميراث الأدبي الذي ورثه العصر العثماني من المصور الأدبية التي سبقت ، وفي تاريخ الجبرق صورة من النثر الأدبي المصري في العصر العثماني ، نرى منها إلى أي حد أوع كتاب ذلك العصر بالبدع ، على صورة قاسدة من طريقة القاضي الفاضل ومن قبله من أدباء البرية ، كالفريرى وبدع الزمان وغيرهما ، ولكننا نلاحظ أن العيب ليس في اتباع طريقة ما من طرق الكتابة ، ولكن العيب في الكاتب المتبع لهذه الطريقة . ثم إن لكل مذهب أدبي أجله وحياته التي تشبه فيها حياة الإنسان ، فإذا وصلت حياة مذهب من المذاهب الأدبية إلى الشيخوخة تهدم وأصابه التلف ، ثم إنه لا شيء يضر بمذهب أدبي أو عقل إلا نقص الثقافة . ونرى بذلك أنه يشترط في معتق طريقة من الطرق أن يكون فرق تصمه لها قد أعد لها من الثقافة الواسعة والذوق الرفيع والموهبة ، ما يعينه على التبوغ في الطريقة الكتابية التي اختارها . ونحن نعرف أن الطريقة الفاضلية كانت قد شاخت ، وتهكأ المرض ، ومع ذلك بقيت في مصر إلى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولم تقطر بكتاب يحسنون تقليدها ، ولا تكن لمؤلف الكتاب ثقافة وذوق ولا موهبة تميزهم على إجادتها ، ولذلك دامت هذه الطريقة سقا على سقم في نتاج الكتاب الذين ظهروا في تلك المصور المظلمة . ثم لم يكن أمام المدرسة الصحفية الأولى مثال يحتذى في الكتابة غير ذلك المثال الفاضل . فلما كاه بعض تلاميذها ، وفرضوه على أنفسهم ، وتقيدوا

به ، حتى في ترجمة الكتب والنقص من الأوربية إلى اللغة العربية ، وظهر أثر ذلك في السنوات التي اتخفوها لتلك الكتب بحيث روعى فيها السجع بدقة تدعو إلى العجب ، فلما كانت المدرسة الصحفية الثانية وجدنا كل واحد من تلاميذها يفتن في مستهل حياته الأدبية بالسجع فتنة لا حد لها ، ثم لا يلبث أن يفارقه هذا السجع إلى غير رجعة على أثر اشتغاله عملياً بالصحف . فهكذا كان أديب إسحاق ولو أنه لم يبرأ من بعض السجع في حياته الصحفية كلها . وهكذا كان محمد عبده الذي ظهرت أولى مقالاته في الأهرام مسجوعة من أولها إلى آخرها ثم هكذا كان النديم الذي رأيناه في أول أمره أكثر من صاحبيه مراعاة البديع ، ثم غدا أكثر منهما تحمراً منه في نهايته .

الحاجة الثانية : على أن أفراد هذه المدرسة قد استعاضوا عن السجع بمخاطبة أخرى هي الازدواج ، أو التظليل للصوق ، وجزالة اللفظ ، وحن اختياره ، ووضعه في البين مواضعه . وإن من يتبع أساليب الثلاثة الذين أتينا على ذكرهم في هذا البحث ، لتبوء هذه الظاهرة ، وهي تقدم كل واحد فيهم تقدماً محسوساً في الجمالة اللفظية من جهة وحن انتقاء الألفاظ وقوة دلالتها على المعاني من جهة ثانية . ولاشك أنه كان للمرأة الصحفية أثر كبير في هذا التقدم الذي نلاحظه ، وأظن أن فيما أشرنا إليه من مقالات أو تلك الثلاثة الرجال ما يكفي لإثبات هذه الظاهرة .

الحاجة الثالثة : تأثر المقالة الصحفية بأسلوب القرآن الكريم ، لجميع الكتاب بدون استثناء . يؤثرون ألفاظ القرآن وتراكيب القرآن ، وإذا صنعت لأحدهم فرصة الاقتباس منه لم يتأخر في ذلك ، وربما تكلف في مقاله حتى يطلق الموقف البياني المناسب له . والظاهر أنهم كانوا يفعلون ذلك لشبعا لرغبات فنية في نفوسهم من جهة ، وتعلقاً بقرآن من جهة ثانية .

الحاجة الرابعة : تأثر الأسلوب الصحفي كذلك بأسلوب المقالة العربية بشكلها المعروف في الأداء ، والحق أن لهذا اللون من ألوان الأدب العربي الخالص أثراً في الأسلوب يأتي بعد أثر القرآن نفسه مباشرة . لكن لا مفر من القول بأن تأثر المدرسة الصحفية الأولى بأسلوب المقالة — ونخص بالذكر من تلك المدرسة

فارساً الشدياق - كان أقوى من تأثر المدرسة الصحفية الثانية بذلك الأسلوب ، كما أنه لا مفر أيضاً من القول بأن تأثر أديب إسحاق بهذا الأخير كان أوضح من تأثر صاحبه به . فقد كان ذلك الصحفي الأديب يتأق في ألفاظه ، ويوردها مسجوعة في بعض الأحيان ، ويحشوها بالتشبيهات والاستعارات ، ويسوق القليل منها على لسان راو يتخيله ، كما يصنع كتاب المقامات .

الخاصة الخامسة : بدأ ظهور الفرق بين لغة المقالة الصحفية من جهة ولغة الأدب الخاص من جهة ثانية . وآية ذلك ما وجدناه من أن كل معنى من هؤلاء الثلاثة الذين درسناهم ، كان يعنى بعبارة وبشديد هذه العبارة ، وكان هؤلاء الصحفيون أدركوا فيما أدركوه يومئذ أنه ينبغي أن يكون أسلوب الصحافة غير أسلوب الأدب . وكان كل واحد منهم إذا فرغ لنفسه ، أو وجد أمامه مقسماً من الوقت تأق في عبارته ، وأمن في زيفته ، فإذا جاء الجد وضاق الوقت ، وألحت الجريدة أو المطبعة في طلب المقال ، فهنا يسرع الصحفي في الكتابة ، ولا يجد مقسماً للاجادة الأدبية الخاصة . غير أنه من الحق أن يقال إن صحافة القرن الماضي لم تغارها كثيراً صفة الأدب ، وهنا يضطر المؤرخ الأدبي إلى الوقوف لحظة للخطر في هذه المسألة ، وهي ما الفائدة التي طادت على الأدب البحث من الصحافة ؟ وما الضرر الذي أصيب به منها ؟

والجواب عن ذلك أن الأدب أقاد من الصحافة سمة في الموضوع ، وغزارة في الأفكار ، وتنوعاً في المادة ، وحرية في التعبير ، وانبساطاً في الأساليب الخ ، غير أن الصحافة أضرت في الوقت نفسه بالأدب ضرراً بليغاً فيما وراء ذلك . ويتلخص هذا الضرر في أن الصحافة في كل زمان ومكان ، انحطت بالأساليب الأدبية إلى أدنى درجاتها الكتابية ، وذهبت بالفن الكتابي إلى حيث أحالته إلى فن باهت اللون ، لاحظ له من جمال الأصباغ التي تفتن العين . . والسبب في ذلك أن الأدب يحتاج له من الفراغ ، ما يجد له في أسباب التأق والتحدث والتصنع والتفنن ، على أن الصحفي وراءه مطبعة تطالبه بتذاتها كل يوم ، وصحيفة لا تقي عن مطالبتيه بالمقالات الكثيرة كل ساعة ، فلا مفر له إذن من الإسراع في التفكير والإسراع في الكتابة ، فالسرعة إذن هي الطابع العام للأدب الصحفي . والسرعة

إذن هي المستولة عن إخراج الصحافة من حيز الأدب الخالد . ووضعها في حيز الأدب الذي لا يبقى أكثر من ساعة .

تلك إذن بعض خصائص المقالة الصحفية ، التي تركتها لنا هذه المدرسة ، فما مكانة هذه المدرسة الصحفية في مصر ، وما منزلة أصحابها من رجال الصحافة في بلد غير مصر ؟ الحق أن رجال هذه المدرسة الصحفية الثانية أثبتوا أنهم كفء العبد الذي اضطلعوا به ، وأنهم أهل للاشتغال بالحرقة التي وضوا بها ، وكان عندهم من الاستعداد ما أعانهم على التبوخ فيها نبوغا يلفت النظر ، فقد رزقوا قوة الملاحظة ، ورزقوا الانفعال إلى درجة الشعور بالنقمة . ثم بالسخرية التي صدرت عنها في جميع ما كتبوه للصحف . ثم بصديق التعبير عما أحسوا من نقمة وسخرية في وقت معاً ، وكانوا يرسلون كلامهم إرسالاً لا تقيد فيه بالمنطق ، اللهم إلا عندما يخرج مقال أحدهم على هيئة درس كما رأينا . أو عندما يسكون المقال رداً على فكرة ، أو دفاعاً عنها ، وهكذا .

وإذا صح ذلك وآمنت معي بأن المدرسة الثانية حققت لنا كل ذلك ، فأنت معي إذن في القول بنجاح هذه المدرسة ، بالقياس إلى المدرسة السابقة لها ، وإذن فالفصل كل الفضل للمدرسة الأولى ، لأنها نشرت الثقافة التي ارتوى منها كثير من وضعموا أسس الصحافة في مصر في النصف الأول من القرن الماضي . ثم الفصل كل الفضل للمدرسة الثانية ، التي انتفعت بهذه الثقافة أولاً ، ثم اشتركت في بناء الصرح نفسه آخر الأمر .

ولكن ليس معنى ذلك أن المقال الصحفي ، بلغ أشده على يد هذه الطبقة التي منها أديب إسحق ، وعبد عبيد ، وصيد الله التديم وغيرهم ، بل ما فنيه هو أن المقال الصحفي قطع شوطاً كبيراً . وتقدم خطوات واسعة ، ادرتت بها الطبقة الثانية على الطبقة التي سبقتها . والدليل على صحة ما تقول من أن المقال الصحفي لرجال هذه الطبقة الثانية لم يبلغ حد الكمال ، هو أن هذا المقال لم يبرأ بعد من عيوب المقال عند الطبقة الأولى التي منها رفاة الطباطبائي وفارس الشدياق وغيرهما وأنت تعلم أن من عيوب المقالة الصحفية عند هؤلاء . أنها جاءت على شكل دروس

وأبحاث، وأنها طالت عند بعضهم أحياناً إلى أن بلغت حد الكتاب وذلك ما وجدناه أيضاً عند محرري الطبقة الثانية بوجه عام، وما وجدناه أحياناً — عند النديم من رجال هذه الطبقة بوجه خاص . وبذكر القارىء أننى عرضت عليه فى غضون بحثى هذا فصلاً للنديم عنوانه :

« لو كنتم مثلاً لعلتم فعلنا » ، وأن هذا الفصل كان طويلاً مسرفاً فى الطول إلى حد أنه ملا تسع عشرة صفحة من صفحات « سلافة النديم » ، وهو كتاب من القطع الكبير .

أتفجد فى الصحف الحديثة مهما كان لونها مقالاً صحفياً يبلغ هذا الطول ؟ . كلا . . بل إن هذا المقال الذى كتبه النديم ليس إلا فصلاً أو بحثاً أو خطبة من الخطب الطويلة ، التى كان يقضى فى إلحائها على مسامع الجمهور ساعات طويلة ، لا يمل فى أنانها الجمهور من استماعه .

وقد اتفقت على أن المقال الصحفى ليس بحثاً ولا فصلاً من كتاب ، ولا موضوعاً من موضوعات الإنشاء ، ولا خطبة من الخطب السياسية أو الدينية أو الاجتماعية .

ولئن فلا بد أن يكون طول المقال على يد النديم عيباً صحفياً ، كالعيب الذى ظهر على يد الطبقة التى سبقتة إلى ميدان الصحافة . ونفى بها طبقة الشيخ رفاعه .

الحق أن المقال الصحفى على عهد النديم وصاحبيه أديب إصناق ومحمد عبده إنما بلغ طور الصبا ، ولم يتجاوز بعد دور الشباب إلا بقليل ، وليست هذه الطبقة الثانية هى التى تمثل الشباب بالمعنى الصحيح ، وإنما تمثل طبقات من الصحفيين توالى على مصر تباعاً منذ ذلك الحين ، وذلك إذن هو التطور الطبيعى للصحافة ، والتدرج المنقول فى نموها ونضجها ومن الإسراف فى القول أن نظفر بالصحافة ، أو نزع لها التخرج دفعة واحدة .

فقول هذا القول ونحن لانفط فضل هذه المدرسة الثانية من مدارس الصحافة كما قدمنا ، ولا نبخسها حقها كما رأيت .

وخلاصة الرأي في هؤلاء الثلاثة الذين اشتمل عليهم البحث أن (أديباً) غلبت عليه صفة الأديب ، في حين أن التديم غلبت عليه صفة الخطيب أو التديم ، وأن محمد عبده غلبت عليه صفة المعلم .

حقاً كان أديب إسحاق أدنام جميعاً إلى الأدب ، وكان أكثرهم لفظاً في الحبس ، وحنّة في المزاج ، واضطراباً في الأعصاب ، ولقد خلقت منه هذه الظروف أديباً ممتازاً ، بمعنى بعبارة ، ويختير لها الألفاظ القوية الإيحاء ، والجرس الذي يملؤها أنفاساً موسيقية تتلادم وحنّة مزاجه واقمعالاه . فإذا أتى أديب إسحاق بصورة من الصور الكتابية عنى بها حناية تامة ، وأخرج منها لقارئه لوحة من لوحات الفن ، تنقل إليه جميع المعاني التي أرادها الكاتب . وهنا يحسن أن أجيل القارئ إلى المقالات التي كتبها أديب إسحاق - وهو في باريس - بعنوان (فتنة مسدور) وفي بعضها يقول غاطياً المصريين :

يا قوم ، ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسعيتم غير مشكورين فهل كنتم غير مأسوف عليكم الخ . وفي هذا المقال أتى الكاتب بهذه الصورة التي لا تستطيع لوحة رسام ماهر أن تأتي بأجود منها ، وهي قوله يصف خوف المصري من جور حاكمه الذي « يشد رجله يده ، ويده ينفقه ، وعنفه بالقيد ، وقيدته بوتر السجن » إلى مثال هذه الصورة التي توضح كل الإزجاج في مواطن الإزجاج ، وتبحث البهجة والسرور في مواطن البهجة والسرور ، وهكذا .

وأما الأستاذ الإمام فرجل تغلب عليه صفة المصلح الديني والمصلح الاجتماعي ، كما تغلب عليه صفة العالم الذي يحرص على أن يلتقي بالتلاميذ ، ويمجد في نفسه سروراً عظيماً بإلقاء دروسه عليهم . ومن ثم جاءت مقالاته وعاشقة في الدور الأخير منها - أدنى إلى الصحافة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة : ألفاظ مهمة في موضع التعليم ، جولة في موضع الإثارة ، قليل الاكترات بالزينة اللفظية أو المعنوية ، ضعيف العناية بالاستشهاد من القرآن أو الحديث أو الأثر أو الخطب ونحو ذلك .

وأما السيد عبد الله التديم فالخطابة هي كل صفاته ، وأظهر سماته ، والمسيطرة عليه من جميع جوانبه ، لا يستطيع إغلاتاً منها ، ولا يملك فكاً عنها ، فإذا (١٤م - أدب للقاء ٢٠)

كتب مقالا صحفياً نسي أنه يكتب في صحيفة ، وساقه الطبع إلى الكلام ، فأطال فيه . حتى لكأنه يخطب في جمع حائل ، وتستغرق خطبته ساعات متواصلة .

وبريد الناقد الصحفي أن يلخص رأيه في المدرستين الصحفيتين فيرى بينهما فرقاً من حيث الخبر ، وفرقاً من حيث المقال .

فأما الفرق بينهما من حيث الخبر الصحفي فالظاهر أن عناية المدرسة الأولى بالأخبار كانت أكبر من عناية المدرسة الثانية بها ، على حين أن عناية المدرسة الثانية بالمقال كانت أشد وأعظم من عناية المدرسة الأولى به . وأكثر من ذلك أن المدرسة الأولى إنما شهدت ميلاد المقال الصحفي ، واقتربت بها المحاولات الأولى لكتابة المقال الذي لم ينضج بعد .

وأما المدرسة الثانية فقد خطت بالمقال خطوات واسعة موفقة ، وبلغ الأمر عند بعض الصحف أنها كانت تخرج الأعداد تلو الأعداد بحيث لا يشتمل الواحد منها أكثر من مقال واحد يملأ صفحات العدد من أوله إلى آخره .

غير أن ذلك عيب من عيوب الصحافة كما قلنا . والحقيقة أن هذه المدرسة الثانية من المدارس الصحفية في مصر — وإن خطت بالمقال الصحفي هذه الخطوات الموفقة على هذا النحو — إلا أنها لم تستطيع أن ترسم في ذهنها صورة صحيحة للمقال الصحفي كما يفهم من هذه الكلمة عند إطلاقها اليوم .

وقد سبق أن أشرت القارئ إلى فصل من فصول « مستقبل الصحافة في مصر » عنوان « لغة الأدب ولغة الصحافة » . وفي هذا الفصل أوضحت الكثير بين الثنتين ، وهو كالفرق بين الملابس التي يرتديها الناس في حياتهم اليومية ، والملابس التي يرتدونها في المناسبات الخاصة ، مثل مناسبة عرس أو حفل من الحفلات الرسمية أو الدورية . فالملابس الأولى تمثل اللغة التي تكتب بها المقالة الصحفية ، والملابس الأخيرة تمثل اللغة التي يكتب بها الأدب البحت .

فهل أدرك تلاميذ المدرسة الثانية هذا الفرق ؟

الجواب عن ذلك أنهم أدركوه إدراكاً جيداً ولكنهم في تطبيقهم هذه الإدراك الجيد قطعوا مرحلة واحدة فقط ، هي المرحلة التي مهدت لظهور المدرسة الثالثة . تلك المدرسة التي ستحدث عنها ابتداء من الكلام عن السيد علي يوسف

في صحيفة المؤيد . أو بعبارة أخرى ابتداء من ظهور الصحافة اليومية في مصر ، وهي الصحافة التي حلت محل الصحافة الدورية كما تجلت لنا بوضوح على يد المدرسة الصحفية الثانية التي يدور حولها هذا البحث .

ومعنى ذلك أن نوع الصحافة التي ما رسها رجال المدرستين السابقتين نحكم في اللغة المستخدمة فيها ، ونحن نعلم أن صحافة المدرسة الثانية كانت دورية ، وأن صحافة المدرسة الثالثة كانت يومية . فكان من الطبيعي أن تتاح لتلاميذ المدرسة الثانية من الوقت والإجادة ما لم يتح لتلاميذ المدرسة الثالثة .

(وبعد) فهذا حديث عن ثلاثة قطب من تلاميذ المدرسة الصحفية الثانية في مصر . وليس معنى ذلك أن هؤلاء الثلاثة لم يكن لهم نظراء في عصرهم . كلا ، بل إن مصر في ذلك العصر كانت تنعم بطائفة كبيرة من الصحفيين المتنازين ، وليس فيهم إلا من هو خليلق بأن يذكر ويدرس على النحو الذي مضينا فيه . ولقد كنا نود أن يشتمل هذا البحث على مجموعة أخرى من تلاميذ هذه المدرسة عدا الثلاثة الذين عرضنا لهم في هذا البحث ، ولكننا آثرنا أن نكتفي بهؤلاء الثلاثة مؤقتاً ، وأن نخص رجلاً من رجال هذه المدرسة الثانية بجزء من أجراء هذه السلسلة . وهذا الرجل هو إبراهيم المويلحي الذي طفر بالطريقة الأدبية إلى الغاية القصوى .

ونظرنا نحن فلم نجد من العلماء والمؤرخين من يكتب عن المويلحي الكبير كتابة وافية إلى اليوم ، فانتبهنا هذه الفرصة لتؤدى واجبتنا نحو تاريخ الأدب والصحافة في مصر من هذه الناحية .

تم الجزء الثاني ويليها الجزء الثالث وموضوعه
السلام عن إبراهيم المويلحي وجرينة مصباح الشرق

محتويات الكتاب

| صفحة | |
|------|---|
| ٣ | مقدمة |
| ٩ | الفصل الأول : ظروف عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية |
| ٩ | حركة التنوير |
| ١٢ | حركة المستور |
| ١٤ | حركة المقاومة |
| ١٨ | الفصل الثاني : حياة أديب إسحاق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) |
| ٢٣ | الفصل الثالث : أسلوب أديب إسحاق |
| ٢٤ | جريدة التقدم |
| ٢٧ | جريدة مصر |
| ٤٣ | جريدة مصر القاهرة |
| ٤٧ | نقطة مصدر |
| ٥٦ | خصائص الأسلوب عند أديب إسحاق |
| ٦٣ | الفصل الرابع : حياة الشيخ محمد عيده : ١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ |
| | ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م |
| ٦٤ | سيرة الأستاذ الإمام |
| ٦٥ | مع جمال الدين الأفغاني |
| | الملم الثاني والمقدمة التركيبية (٦٦) مواهب العقلية |
| | والنفسية (٦٧) الموهبة الأولى أو العقلية التطورية |
| | (٦٨) الموهبة الثانية أو طيبة الملم (٦٨) الموهبة الثالثة |
| | أو شجاعة الشيخ النفسية (٦٩) |
| ٧٢ | دعوة الأستاذ الإمام إلى الإصلاح |

صفحة

| | |
|-----|--|
| ٨١ | الفصل الخامس : أسلوب محمد عبده : |
| | المرحلة الأولى (٨٢) النموذج الأول - في تحريض الأهرام |
| | (٨٣) المرحلة الثانية (٨٦) خطأ العقلاء (٨٨) المرحلة الثالثة |
| | (٩٢) برنامج العروة الوثقى (٩٣) القضاء والقدر (٩٩) |
| | المرحلة الرابعة (١٠٣) العلم الأم للأمة (١٠٤) الرسائل |
| | الاخوانية (١٠٩) |
| ١١٥ | الفصل السادس : حياة عبد الله النديم : |
| | ١٢٦١ - ١٣١٤ هـ |
| | ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م |
| ١٢٢ | الفصل السابع : الأسلوب الأدبي للنديم |
| | حدثنا أحمد سمير في ترجمة حياة النديم قال (١٣٢) ثم قال |
| | أحمد سمير (١٣٣) نار الغدو وتار العدو (١٣٤) لواء |
| | النصر في أدياء العصر (١٣٧) |
| ١٤٠ | الفصل الثامن : جريدة التنكيك والتبكيك |
| ١٤١ | جلس طي على مصاب بالفرنسي |
| ١٤٦ | محتاج جاهل في يد محال طامع |
| ١٤٩ | سهرة الانطاع |
| ١٤٩ | عربي تفرنج |
| ١٥٠ | إضاعة الفئات تسليم لذات |
| ١٥١ | هف طلع النهار |
| ١٥٢ | تحريفة خذ من عبد الله وانكسر على الله |
| ١٥٦ | الفصل التاسع : الطائف |
| ١٥٦ | سلب الأملاك من الملاك |
| ١٥٩ | المعممة الثانية (إن جندنا لم الغاليون) |

صفحة

| | |
|-----|---|
| ١٦١ | المعمعة الثالثة (وعا نريهم من آية إلا وهي أكبر من أختها) |
| ١٦٤ | حالتنا مع الإنجليز |
| ١٦٨ | الفصل العاشر : جريدة الأستاذ |
| ١٧٠ | تربية الأبناء |
| ١٧٢ | هذا عندكم فما مقابله عندنا |
| ١٧٦ | الفصل الحادى عشر : قضية الشرق والغرب فى صحيفة الأستاذ |
| ١٧٦ | حرب الأعلام بمجيوش الأوهام |
| ١٧٧ | لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا |
| ١٨٧ | تحليل المقال |
| ١٩٣ | الفصل الثانى عشر : الخصائص العامة للأسلوب الصحفى عند النديم |
| ٢٠١ | الحاتمة : فى الطابع العامة المقالة الصحفية |
| ٢١٢ | عند تلاميذ المدونة الثانية فى مصر |
| ٢١٣ | محتويات الكتاب |
| ٢١٦ | المؤلف |

للمؤلف

| | |
|----|--|
| ٥٠ | ١ - أدب المقالة الصحفية الجزء الأول |
| ٥٠ | ٢ - " " " " الثاني |
| ٢٠ | ٣ - " " " " الثالث |
| ٤٠ | ٤ - " " " " الرابع |
| ٤٠ | ٥ - " " " " الخامس |
| ٤٠ | ٦ - " " " " السادس |
| ٥٠ | ٧ - " " " " السابع |
| ٧٠ | ٨ - " " " " الثامن |
| ٨٠ | ٩ - المدخل في فن التحرير الصحفي (الطبعة الثالثة) |
| ٤٠ | ١٠ - مستقبل الصحافة - الأدب والصحافة |
| ٥٠ | ١١ - أزمة الضمير الصحفي |
| ٤٠ | ١٢ - الإعلام له تاريخ ومذاهب |
| ٣٥ | ١٣ - أخبار الشرق الأوسط بالاشتراك مع الدكتور وليم الميرى |

وتطلب جميعها من ملزم طبعتها ونشرها

دار الفكر العربي

١١ شارع جوا دحسني (طلعت حرب سابقا) بالقاهرة

تليفون : ٥٦٤٦٧ - صندوق بريد : ١٣٠
